

الفكر الاستخباري الإسلامي

دراسة توثيقية بمنظور معاصر

اللواء الدكتور / عبد العزيز بن عبد الله الأسمرى



الفكر الاستخباري الإسلامي

دراسة توثيقية بمنظور معاصر
للنشأة والتطور والتطبيق

اللواء الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الأسمرى

ح) عبدالعزيز عبدالله الاسمري ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الاسمري، عبدالعزيز عبدالله

الفكر الاستخباري الاسلامي . / عبدالعزيز عبدالله

الاسمري . - الرياض ، ١٤٣٨هـ

٣٦٤ ص : ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٥٢٠٨-٤

١-المخابرات - تاريخ - عصر صدر الاسلام ٢-الاسلام والامن

أ.العنوان

١٤٣٨/١٠٤٣٨

ديوي ٢٥٧،١

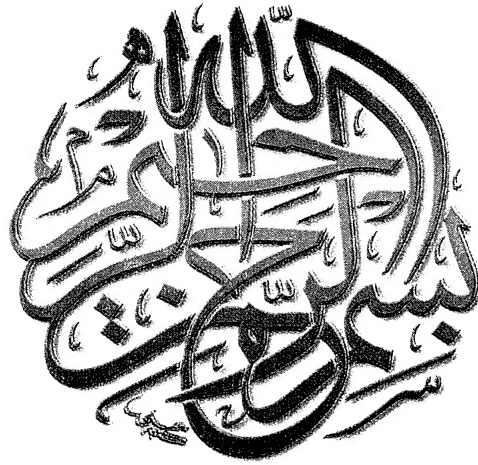
رقم الايداع: ١٤٣٨/١٠٤٣٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٥٢٠٨-٤

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م



المحتويات

3	المقدمة
17	تمهيد
	الفصل الأول :
29	الاصطلاحات الاستخباراتية والسجلات العربية الأولى
	الفصل الثاني :
69	القرآن الكريم والاستخبارات
	الفصل الثالث :
95	السنة النبوية الشريفة والنشاط الاستخباري
	الفصل الرابع :
153	استخبارات المعارك
	الفصل الخامس :
197	المهارات والفنون الاستخباراتية
	الفصل السادس :
243	مصادر المعلومات البشرية
	الفصل السابع :
281	المفهوم الاستخباري في المنظور المعاصر
303	الخاتمة
317	الهوامش
343	قائمة المصادر والمراجع

الفهرس

1	قائمة الصور والرسوم والخرائط
3	المقدمة
17	تمهيد
29	الفصل الأول : الاصطلاحات الاستخباراية والسجلات العربية الأولى:
31	1.1: تقديم.
33	2.1: المصطلحات الاستخباراية العربية.
43	3.1: التجسس في الوثائق والتدوينات العربية الأولى.
69	الفصل الثاني : القرآن الكريم والاستخبارات:
71	1.2: تقديم.
73	2.2: القرآن الكريم وعناصر المفهوم الاستخباري الحديث.
95	الفصل الثالث : السنة النبوية الشريفة والنشاط الاستخباري:
97	1.3: السنة النبوية وعناصر الاستخبارات.
102	1.1.3: الجمع السري.
115	2.1.3: الاستخبارات المضادة.
126	3.1.3: التحليل والتوزيع.
131	4.1.3: العمليات السرية.
153	الفصل الرابع : استخبارات المعارك «الغزوات النبوية»:
155	1.4: تقديم.
159	2.4: غزوة بدر رمضان 2 هـ.
168	3.4: غزوة أحد شعبان 3 هـ.
178	4.4: غزوة الخندق شوال 5 هـ.
188	5.4: غزوة حنين شوال 8 هـ.

197	الفصل الخامس : المهارات والفنون الاستخبارية:
199	1.5: المهارات الاستخبارية في عهد النبوة.
203	2.5: البيوت الآمنة «دار الأرقم».
207	3.5: الوقت والاتصالات.
219	4.5: الكتابة المشفرة Encryption.
223	5.5: الاستخبارات المضادة والاستخبارات الاستراتيجية.
227	6.5: السرية والكتمان.
235	7.5: الرشوة والخداع وأساليب التضليل.
238	8.5: الاستخبارات العسكرية.
243	الفصل السادس : مصادر المعلومات البشرية:
245	1.6: أهمية المصادر البشرية.
247	2.6: العناصر الرسمية في المدينة.
247	1.2.6: عناصر استخبارات المقر الرئيسي.
249	2.2.6: السفراء والدعاة وعمال الزكاة.
254	3.6: شبكة المعلومات السرية:
255	1.3.6: المصادر السرية في مكة.
258	2.3.6: مصادر من القبائل المجاورة لمكة والمدينة.
266	3.3.6: مصادر من التجار والمتجولين.
270	4.3.6: الأسرى والسجناء.
276	5.3.6: مصادر من بلاد الروم.
277	6.3.6: المنشقون والمخبرون المستقلون.
281	الفصل السابع : المفهوم الاستخباري في المنظور المعاصر:
283	1.7: المفهوم الاستخباري المعاصر.
291	2.7: تطور الثقافة الاستخبارية.
296	3.7: دورة الاستخبارات الحديثة <i>Intelligence Cycle</i> .
303	الخاتمة:
317	الهوامش:
343	قائمة المصادر والمراجع:

قائمة الصور والرسوم التوضيحية والخرائط

- | | |
|-----|---|
| 45 | 1. خريطة الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد. |
| 72 | 2. صورة للمصحف العثماني. |
| 105 | 3. مخطط للطريق الذي سلكه الرسول ﷺ في هجرته. |
| 157 | 4. خارطة الطرق التجارية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. |
| 165 | 5. مخطط يوضح مواقع المسلمين والمشركون في غزوة بدر. |
| 175 | 6. صورة لموقع غزوة أحد. |
| 183 | 7. مخطط لغزوة الخندق. |
| 191 | 8. مخطط يوضح بعض كمائن غزوة حنين. |
| 259 | 9. أهم القبائل العربية عند ظهور الإسلام. |
| 297 | 10. نموذج توضيحي لمراحل دورة الاستخبارات. |

مقدمة

مقدمة

يستعرض هذا الكتاب بمنهج استقرائي منابع الفكر الاستخباري العربي الإسلامي، ويسعى إلى تفسير القواعد الشرعية للأنشطة الاستخبارية في القرآن الكريم وما طبق منها من سنن نبوية في المدينة المنورة في ظل الدولة الإسلامية الأولى. وقد تم التركيز على العهد النبوي الشريف الذي تمت مقاربته من خلال النظرية العلمية الحديثة في علم الاستخبارات. فإلى جانب الأسلوب المسحي الذي تم اعتماده لدراسة الوقائع التاريخية التي انطوت على العمل الاستخباري فقد سعينا أيضًا إلى مناقشة الدورة الاستخبارية للمعلومات وإلى تصنيف النشاطات الاستخبارية وفقاً للعناصر المكونة للنظرية الاستخبارية الحديثة.

ينبثق هذا الكتاب من أصليين مزدوجين. الأول هو ممارستي كمهني محترف للعمل الاستخباري خلال خدمتي العملية الطويلة في هذا المجال والتي تزامنت مع كثير من الأحداث على المسرح الدولي، كانت الاستخبارات فيها محط الأنظار. وإبان هذه الفترة الحرجة من تاريخنا المعاصر كانت الأجهزة الاستخبارية تحقق نجاحات ملحوظة يشهد لها، أو تتكبد فشلاً ذريعاً يضعها تحت المجهر ويدفع بمحاسبتها كما هي الحال في نتائج عمليات التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، وكارثة الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وما تلاها من أحداث إرهابية متفرقة دفعت البشرية فيها ثمنًا باهظاً، لم يقتصر على المال والممتلكات بل لما هو أثمن ألا وهي الأنفس البشرية البريئة. فبعد أكبر كارثة إرهابية وقعت في العصر الحديث والمتمثلة في تفجير برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك، أدرك العالم أهمية

«الاستخبارات اللحظية» «Timely Intelligence» ودورها الفعال في محاربة الإرهاب والحيلولة دون وقوع كوارث جسيمة في المستقبل.

والأصل الثاني هو الفرصة التي أتحت لي أثناء عملي الرسمي في الخارج والذي مكّني من الاتصال بعالم العلماء والبحوث العلمية والدراسات الاستخبارية في الجامعات من الأكاديميين والقائمين على مراكز الأبحاث، وكان بشكل رئيسي في المملكة المتحدة، حينها كنت أواصل دراساتي العليا. خلالها استطعت أن أطلع عن كثب على أدبيات هذا الفرع من المعرفة وما نشر حديثاً فيه ومناقشة ما كان يطرح في المؤتمرات التي تعقدها الجامعات الغربية في مراكزها المتخصصة بحضور الأكاديميين وقدامى المحترفين والممارسين الفعليين آنذاك.

من هذين المنبعين إذن تأتي هذه المحاولة لإعداد دراسة علمية تلتزم بالمنهج العلمي نحاول فيها التقصي والتقييم والسعي لبحث ونشر المفهوم المعاصر للاستخبارات، بهدف بيان منابع وملامح الفكر الاستخباري العربي والإسلامي على نحو أفضل، وعلى نطاق أوسع. فالكتاب يستهدف القارئ العام المهتم بالموضوع داخل وخارج الدوائر الرسمية الذي قد لا تكون لديه خلفية واسعة في الدراسات القديمة والتاريخ الاستخباري، كما أنه في الوقت نفسه يخاطب المتخصصين الذين يتوفر لديهم المعرفة العميقة والخلفية العلمية العريضة في التاريخ العسكري وعلوم الاستخبارات.

ويمكن فهم مضمون هذا الكتاب من المقولة الشهيرة التي تنص على «أن التجسس قديم قدم التاريخ نفسه» لذلك كان ولا زال عبر العصور محط اهتمام بالغ من القادة، والساسة، والعسكريين، وصناع القرار، وأصحاب المصالح والنفوذ وزعماء المجتمع على حد سواء.

ولم تعد المكتبة العربية من بعض المؤلفات والبحوث التي تناولت هذا الموضوع على نحو عام أو من زوايا ومنطلقات مختلفة، إلا أن بعض هذه الكتب قد شابها شيء -قل أو أكثر- من الضعف الواضح في الخلفية العلمية والخبرة العملية في مجال الاستخبارات. لذلك لم تخرج مضامين هذه الكتب عن سياق النتائج المسحية للأحداث دون تمييز أو تصنيف علمي لها. ومن المأمول أن يسهم هذا الكتاب في سد ثغرة ظلت شاغرة يشعر بها كل من له اهتمام خاص في العلوم الأمنية والاستخبارية ذلك أن الكتاب يؤصل ويؤطر لأعمال الجاسوسية وفنونها وفقاً لمنظور علمي حديث له معايير المهنية والعلمية وأحكامه الدقيقة في هذا المجال.

نشأت فكرة إعداد هذا الكتاب منذ أن كنت طالباً في مرحلة الماجستير وأذكر مرة أن أحد المحاضرين الأمنيين افتتح محاضرتة في «مركز جامعة برونيل للدراسات الأمنية والاستخبارية» في لندن بالتشديد على أن جذور الفكر الاستخباري الحديث تعود إلى عصر النهضة الأوروبية.... وأن المفهوم الأمريكي للاستخبارات هو المفهوم السائد الذي تعتمد إليه دول العالم الثالث على نحو خاص لاستنساخه والعمل به، «لا لكونه الأمثل وإنما لافتقار تلك الأمم والشعوب إلى مفاهيم استخبارية تُستمد من ثقافتها الأصلية». وبالرغم من أن ذلك التعميم ينطوي على الكثير من الصواب، إلا أنه كان مجحفاً بعض الشيء بالنسبة للعديد من الشعوب والمجتمعات التي مارست العمل الاستخباري منذ القدم ومنها شعبنا العربي. وقد تلت تلك المحاضرة عدة لقاءات ونقاشات مع المحاضر الكريم أدت بالتالي إلى تبلور فكرة هذا الكتاب وإلى السعي لاستشراف جذور الفكر العربي. فالعرب كسائر الأمم مارسوا الأنشطة الاستخبارية وبرعوا فيها منذ أقدم الأزمان ففي تلك العصور كان الرومان يملكون جيوشاً جرارة وقوية بحيث كانت لهم اليد العليا في أي نزاع، إلا أنهم لم يعيروا الاهتمام الكافي للاستخبارات، وكان

على خصومهم الأضعف الذين لا يملكون جيشاً قوياً أو جيد التنظيم الاعتماد على الاستخبارات ليدافعوا عن أنفسهم وليحققوا النصر عليهم من خلال استخدام المباغته، والمراوغة، والخداع، وسرعة الحركة، وغير ذلك من التكتيكات التي تحقق امتيازات ذات قيمة عسكرية فعالة. وكان العرب يعتمدون على الاستخبار في إدارة تكتلاتهم البشرية وإدارة شؤون حياتهم. وعندما ظهر الإسلام وجد الأوائل هذا الإرث التاريخي القديم من أنواع النشاط الاستخباري وفنونه، فقاموا على تشذيبه وتهذيبه ليتفق مع طبيعة النفس البشرية وحرمتها وخصوصيتها وفق الشريعة السمحاء، ثم طوروا تلك الأنشطة لتواكب التغير الزمني وتسد حاجة مستخدميها آنذاك.

وستبرز هذه الدراسة نشوء النموذج العربي/الإسلامي للاستخبارات، الذي سيتضح بجلاء أنه ليس منسوخاً عن تجارب الآخرين، أو أنه نتاج مؤثرات أجنبية، بل يمثل توجهاً عربياً/إسلامياً يستلهم الإرث الثقافي والاجتماعي العربي الإسلامي، ويبنى على ما تراكم من خبرات وتجارب عبر التاريخ. فهذه العقيدة العربية الإسلامية للاستخبارات كانت المنبع الأساس لبناء وتطوير الأجهزة الاستخبارية والأمنية لدى كثير من الدول عبر العصور. ورغم كل ما تحقق من إنجازات تقنية وفنية في العمل الاستخباري، فإن الميراث العربي الإسلامي، يمثل حجر الزاوية الذي أقيم عليه مفهوم الاستخبارات، وأصبح مرجعاً يقيسون عليه مستوى أدائهم.

إن الهدف الآخر من هذه الدراسة هو تفحص المنابع والجذور التاريخية التي ينطلق منها المفهوم الاستخباري الإسلامي المعاصر، واستجلاء خصائص العقيدة الاستخبارية الإسلامية لتحديد أبرز ملامحها، واستبيان طرائق عملها، وتثبيت ما يميزها عن المدارس الأخرى. وسنتعامل معها في ظل المنظور الحديث للاستخبارات أي في ظل العناصر الاستخبارية التي

حددها شيخ الدراسات الاستخبارية ومنظرها «روي غودسون، Roy Godson» ذلك أن تلك العناصر تمثل منهجاً بحثياً معتمداً على نحو واسع في المعاهد العلمية حول العالم لدراسة وتقييم أنشطة المنظمات الاستخبارية الرسمية وغير الرسمية.

وهنا لا بد من الإقرار بدءاً أن ندرة المصادر المفتوحة والبحوث المنشورة في هذا الموضوع الحساس شكلت ولا تزال تشكل عقبة كبيرة تقف أمام أي باحث في هذا المجال، إلا أن التنقيب الدقيق المصنفي في المصادر المفتوحة المتوفرة من أمثال كتب السيرة والتاريخ والتفاسير والمنشورات والمدونات، والكتب الإلكترونية، ومواقع الشبكة العنكبوتية، ينتج في النهاية ما نتوخى معرفته، ويفرز في معظم الأحيان التوجهات العامة في العمل الاستخباري، ويمدك أيضاً بنزق قد لا يكون يسيراً عن جذور الفكر الاستخباري الإسلامي، وتشريعاته وأساليبه، وعملياته كمدرسة مستقلة متميزة بحد ذاتها. وبالرغم من أن الأبحاث المنشورة عن أجهزة الاستخبارات في دول الشرق الأوسط عمومًا وعن العالم العربي خاصة، تكاد تكون نادرة ومتفرقة.¹ إلا أن السنوات القليلة الماضية شهدت بعض التغيرات التي أدت إلى تحسن فرص إجراء البحوث في هذا الموضوع الحساس. فمنذ أوائل التسعينيات ولاحقاً، صادف الباحثون والخبراء المتخصصون، صعوبة أقل في إنجاز دراساتهم ومشاريعهم البحثية بعد أن سمحت الأجواء الدولية السائدة، بتدفق المعلومات بحرية أكبر وتمكن كثير من الباحثين والدارسين من الاطلاع عبر شبكة الإنترنت على كم لا بأس به من المعلومات والتفاصيل التي كانت حتى إلى فترة قريبة تعد من الأسرار التي لا يمكن الاطلاع عليها البتة. فقد تميزت السنوات القليلة الماضية برفع تدريجي متصاعد عن الكثير من القيود التي كانت مفروضة على حرية الحصول على المعلومة في عهود سابقة ليست ببعيدة.

وفي تتبعنا لأصل وتطور النشاطات الاستخبارية في العالم العربي، وجدنا أدلة واضحة تشير إلى وجود نشاط استخباري عربي في فترات قديمة تعود إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين. ولكن لم يتم تسجيل أي نشاط استخباري بارز في الفترة التي سبقت بروز الإسلام مباشرة، فيما يُعرف عموماً عند العرب بالعصر الجاهلي، أي ما يوافق القرنين الخامس والسادس الميلاديين عند المؤرخين. وحيث أن بدو الجزيرة لم يكونوا تحت خطر غزو من أي غاز أجنبي فإن نشاطهم الاستخباري كان معظمه منصباً ضد بعضهم. حيث أنهم كانوا منهمكين باستمرار في حروب قبلية إما بدافع الانتقام أو الثأر، أو بدافع التنافس الشديد على المصادر المائية الشحيحة، والسيطرة على مواقع الكلاً والمراعي.

ويزخر التاريخ العربي بالأحداث والوقائع والسير والأعمال الأدبية العديدة والأساطير والقصص الشعرية، والمقامات الأدبية والمساجلات وما إلى ذلك من مصادر تراثية غنية بالمعلومات القيمة عن النشاطات الاستخبارية القديمة. فهذا التراث الغني إلى جانب قيمته كمنتج أدبي وفكري وفلسفي إلا أنه يجسد أيضاً سلوك المجتمع وعاداته ومعتقداته وممارساته ويسلط الضوء على آمال ذلك المجتمع وطموحاته في الحياة وجهود القائمين على الأمر للإبقاء على مواقع نفوذهم وثبيت دعائم سلطتهم. على أن أهم مصدرين على الإطلاق تم الرجوع إليهما والاستئناس بهما باستمرار، هما القرآن الكريم والسيرة النبوية العطرة. فالقرآن الكريم هو الدستور الجامع لأحكام الإسلام ولا مناص لأي باحث في مثل مبحثنا هذا من الاسترشاد به والركون إليه لاستجلاء ركائز المفهوم الإسلامي العام للعمل الاستخباري. أما السنة النبوية الشريفة فإنها كما لا يخفى على أحد تمثل سجلاً لأحاديث الرسول الكريم ﷺ وأفعاله في مجالات الحياة كافة ومنها بالطبع ما يتصل بالنشاط الاستخباري.

وهناك بالطبع العديد من المصادر الغنية بالمعلومات عن حياة الرسول ﷺ ومن أبرز تلك المصادر وأهمها كتابي «المغازي» لـ «لواقدي» و«السيرة النبوية» لـ «ابن هشام»، وهما سيرتان كتبتا بعد أقل من مئة سنة من بعد وفاة الرسول ﷺ. هاتان السيرتان قائمتان على روايات شفوية لأشخاص عاصروا حياة الرسول ﷺ، ونقلوا إلينا ما رأوه وما سمعوه عنه. ويتسم هذان المصدران المهمان بمصداقية عالية في نقل المعلومات عن حياة الرسول الكريم ﷺ بما في ذلك تعاليمه ومواقفه إزاء هذا الجانب من أنشطة المسلمين في عصر الرسول ﷺ. ومن خلال استقراء ما ورد في هاتين السيرتين وغيرهما يمكن للمرء أن يستخلص بسهولة ويسر أن الفترة الأولى من الإسلام كانت زاخرة بما قد يسمى بالمصطلحات الحديثة بـ«النشاط الاستخباري» وأن هناك من بين المسلمين الأوائل رجال استخبارات ماهرين، وأن أساليبهم وخططهم كانت دقيقة ومتقنة. ولحسن حظنا، فإن جميع الروايات المتعلقة بالمعارك التي قادها الرسول ﷺ وخطط لها، والتعليقات الخاصة بها موثقة إما على نحو مستقل، أو مشار إليها في ثنايا النصوص التاريخية والأدبية التي تزخر بهذه الروايات التي أصبحت الآن متوفرة على شكل رقمي يسهل البحث فيها.

ومن الصعوبات التي واجهتها عند إعداد هذه الدراسة هي كيفية التوفيق بين الروايات المختلفة أو حتى المتضاربة والمتناقضة لبعض الأحداث التي تطرق لها البحث. وحسباً لهذا الإشكال الجدي فقد بنيت حكمي واختياري لما رأيته أصدق وأقرب إلى الواقع وإلى التطور المنطقي للأحداث، وسمعة الأطراف الواردة في الروايات، وبالطبع على آراء الباحثين والعلماء الأخصائيين في ذلك الحقل. وفيما يتعلق بالتفسير الإسلامي للنصوص، فقد ملتُ مع قوة الأدلة التي يوردها مفسرو القرآن الكريم كـ «ابن كثير» و«الطبري» و«القرطبي» و«القاسمي».

ويجب الاعتراف بأن الدراسات الاستخبارية شكلت على مدى التاريخ صعوبة للمؤرخين ومن يعنون بالدراسات القديمة والدراسات الاستراتيجية على حد سواء، لا لشيء معين، إلا لكونها لم تسجل وتدون تفاصيل أحداثها بسبب طبيعتها السرية وما يكتفها من غموض. ولهذا أطلق عليها «البعث المفقود» من التاريخ السياسي والدبلوماسي.² فغالباً ما تنقل لنا الروايات والكتب التراثية في هذا الجانب ما يشير إلى حدوث نشاط استخباري دون أن تأتي على تفاصيله، فعبارة «أتى الخبر بكذا...» أو «نقل عين له بكذا وكذا...» هو ما رشح إلينا من عالم السرية والجاسوسية عبر الحقب التاريخية المتتالية، بل هو لا يمثل إلا الجزء اليسير من تلك العمليات، فيما لو قورن بالثراء اللغوي للمسميات والمفردات الذي منحها العرب الأوائل للعاملين في هذه الحقل من المعرفة، وهو ما يؤكد على كثافة الممارسة وتعدد المحترفين لها عبر تلك الأزمان.

كما أن العرب الأوائل كان غلب عليهم أمية الكتابة، فكان التدوين نادراً، والنقل لا يروى إلا عبر الأشعار التي كانت ترتجل وتتلّى شفويّاً، مما جعل تفاصيل الممارسات الجاسوسية يشوبها الندرة في النقل، والضعف في التفاصيل. وقد وصف الله تعالى حال العرب العلمي قبل البعثة النبوية فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾³ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾⁴ ويعني بالأميين في كلا الآيتين الشريفتين الأعراب.⁵ ويمكن القول أن كل الأمم التي خلت، مارست بشكل أو بآخر النشاطات الاستخبارية التي تفي بمتطلبات وجودها، والأمة العربية والإسلامية ليست استثناء من ذلك، فمتى ما كانت هنالك حاجة لاتخاذ قرار متنور كانت هناك حاجة لممارسة نشاط جمع المعلومات وبالتالي استمرار العمليات الاستخبارية. إن لكل أمة طريقة في كيفية أداء نشاطاتها الاستخبارية والتي عادة ما ترتبط بموروثها الثقافي ارتباطاً وثيقاً. فدراستنا للنشاطات

الاستخبارات العربية في التاريخ القديم يحقق لنا معرفة «ماذا تم، وكيف تم» في عصور كانت تفتقد لوسائل التواصل الإلكتروني والجمع والنقل السريع للمعلومات. وهنا تكمن أهمية دراسة التاريخ الاستخباري للعالم القديم لبيان كيف كانت، حتى في العصور البدائية، الاستخبارات تؤدي دوراً أساسياً في تشكيل ما قد نسميه في عصرنا هذا بالسياسة الدفاعية والخارجية للدولة، وذلك في زمن الحرب والسلم معاً.⁶ ففيها نلاحظ كيف كان القرار يتخذ، وكيف وقعت الكوارث، وكيف لعبت العمليات السرية دوراً في قيام الدولة وتشكيل سياستها.

يتناول هذا الكتاب منابع المفهوم الاستخباري الإسلامي، ويناقش النشاطات السرية لفترة الدعوة الإسلامية بمراحلها الثلاث. فيستعرض النشاطات الاستخباراتية التي مورست آنذاك ويصنفها وفقاً لنوع النشاط وطبيعته، مبيناً أن النظرية الحديثة للاستخبارات حية في المفهوم الاستخباري العربي الإسلامي منذ أقدم العصور. كما يناقش المفهوم الاستخباري المعاصر لهذا قسم هذا الكتاب إلى مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة. وناقش في التمهيد أهمية الاستخبارات والدور الذي تلعبه منذ الأزل في حماية المجتمعات والذود عن الأوطان بالإضافة إلى عرض سريع للخلفية النظرية التي تنطلق منها مفهوم الاستخبارات الإسلامي في محاولة جادة لتحديد معالم العمل الاستخباري واستعراض بعض أساليبه المستعملة بهدف رسم ملامح النموذج الإسلامي وتحديد معالمه.

ويتناول الفصل الأول القرائن المبكرة الأولى الدالة على حدوث نشاط استخباري في الجزيرة العربية. وسنرى أن ما وصل إلينا من أدلة تاريخية من وثائق ومخطوطات ونقوش خاصة بالمناطق القحطانية القديمة في جنوب الجزيرة، تؤكد أن هذه القبائل كانت لها قدرات استخباراتية عسكرية لا يستهان

بها. فاستعمال العيون كمصادر سرية مشهود له في عصور ما قبل الإسلام. وسنرى أيضاً أن القحطانيين مثلاً تمكنوا من خلال عمليات التجسس السرية بأنماطها المختلفة، من الدفاع عن وجودهم وضمّان ديمومتهم في بيئة رمليّة جدباء، جُلّها من الهضاب القاحلة الممتدة عبر الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أننا لا نعلم الكثير عن التاريخ القديم لجنوب الجزيرة، إلا أن الأدلة التي وردتنا والتي تمت مناقشتها في الفصل الأول، تشير إلى أن سكان جنوب الجزيرة وبعضاً من أجزائها الشمالية، قد مارسوا بالفعل استخبارات بدائية، لا عندما وجدوا أنفسهم في حالة حرب، ولكن حتى في حالة السلم لضمّان أمنهم وتدعيم ما ينعش اقتصادهم البدائي أيضاً.

أما في الفصل الثاني فسنناقش فيه الأهمية التي يوليها القرآن الكريم للاستخبارات، وسنحاول أيضاً استقراء بعض ما ورد في الكتاب الكريم لنتفحص شرعية العمل الاستخباري في الإسلام. وحيث أن القرآن يعتبر المصدر الرئيس للقوانين الإسلامية والمرجع الأول للإرشاد القانوني والروحي والأخلاقي للمسلمين، فإننا سنذكر الكثير من الآيات ونتطرق إلى تفسيرها. وسنرى أن عدداً من السور القرآنية تتناول على نحو مباشر أو غير مباشر العمل الاستخباري وتميز بين المشروع في ممارساته وغير المشروع منه. فالقرآن يحوي العديد من الأمثلة والدروس الأخلاقية، إما بإشارة مباشرة أو بالتمثيل أو برواية قصصية مثل قصة سيدنا سليمان عليه السلام والهدد، وهي قصة يمكن فيها وبكل سهولة رؤية ما يسمى في علم الاستخبارات بـ(الدورة الاستخبارية) وعناصر التقرير الاستخباري.

في الفصل الثالث ستركز هذه الدراسة على النشاطات السرية في عهد الرسول ﷺ في ظل التعريف الحديث لمفهوم العمل الاستخباري، والذي يشمل التجميع السري للمعلومات، والاستخبارات المضادة، والتحليل

والنشر، والعمليات السرية حيث نفصل سُنن الرسول ﷺ الاستخبارية أثناء مراحل الدعوة الثلاث. فيبدأ الفصل بما يعرف بالمرحلة السرية عندما بدأ الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام سرًا، ثم نقدم وصفًا لنشاطات الرسول ﷺ في المرحلة الثانية أي إبان دعوته السلمية إلى الإسلام، وأخيرًا نتناول مرحلة المدينة عندما قام الرسول ﷺ بتأسيس نواة الدولة الإسلامية بعد هجرته من «مكة» بوقت قصير.

نستعرض في الفصل الرابع أهمية استخبارات المعارك وذلك أثناء الغزوات التي قادها الرسول ﷺ أو أحد أصحابه، ونركز فيه على المعارك الأربع الكبرى التي قادها الرسول ﷺ بنفسه وهي «بدر» و«أحد» و«الخندق» و«حنين». فمن بين جميع المعارك التي دخلها النبي ﷺ، فإن هذه الغزوات الأربع مليئة بالنشاط الاستخباري السري. بعض هذه النشاطات كانت عسكرية محض (إرسال الكشافة للتعرف على ساحة المعركة واستغلال طبيعة تضاريسها لصالح الجيش... الخ). أما النشاطات الأخرى فشملت استعمال العيون لجمع المعلومات، وتنفيذ عمليات سرية استطاع من خلالها الرسول ﷺ كسر تحالف كبير تجمع ضده.

وسنناقش في الفصل الخامس بشيء من التفصيل مهارات الاستخبارات في الفترة الإسلامية المبكرة. فمن بين القضايا المتعددة التي سيناقشها هذا الفصل نذكر الأمن والاستخبارات المضادة، والآليات التي كان العرب ينقلون بها المعلومات الاستخبارية (كالإشارات المشفرة، والرسائل المكتوبة والشفوية)، واستعمال البيوت الآمنة ملاذًا آمنًا لتجمعاتهم السرية، وأساليب الإخفاء، والرشاوى، وطرق التحايل والتضليل المعلوماتي، والتمويه، الخداع، خفة الحركة، وما إلى ذلك من مهارات العمل الاستخباري، كما يبين أهمية الاستخبارات العسكرية.

ويتناول الفصل السادس تقسيم مصادر المعلومات البشرية العلنية منها والسرية وبيان خارطة توزيعها بين القبائل المتناثرة في شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى الامبراطوريات المجاورة. كما سنبين من كان له ارتباط مباشر بالقيادة في المدينة من هذه المصادر والأدوار التي لعبتها في كثير من المواقف والأحداث والتي ساهمت في درء المخاطر عن الدولة الإسلامية الفتية.

ويتناول الفصل السابع المفاهيم المعاصرة للاستخبارات وأبرز تعريفات المختصين فيها، بالإضافة إلى توضيح العناصر الأربعة المكونة للمفهوم الاستخباري الحديث، ودورة الاستخبارات في المفهوم المعاصر.

وتلخص خاتمة الكتاب الملامح الرئيسة للعمل الاستخباري العربي منذ عهوده الأولى حتى بزوغ الإسلام. وسنسعى في الخاتمة إلى التأكيد على استمرارية هذه الأنشطة الاستخبارية إلى الحد الذي باتت فيه هذه الممارسات تشكل مفهوماً استخبارياً عربياً إسلامياً. وتسلط الخاتمة أيضاً الضوء على أهمية الدور الذي تلعبه الثقافة والدين في تشكيل المفهوم الاستخباري عند المسلمين، وتحدد أيضاً أبرز معالم النظرية الإسلامية للاستخبارات.

تجدید

تمهيد

أدت الاستخبارات ومنذ قديم الزمان دوراً بالغ الأهمية في الذود عن الأوطان، وحماية الاستقلال، والدفاع عن الدول، والكيانات، والفصائل المسلحة على حد سواء. فمن خلال العمل الاستخباري، أمكن تجنب العديد من الأخطار والمهددات، الخارجية منها والداخلية التي كانت تحقيق بها. ويفضل المنظومات الاستخبارية التي تنهض بمهمة استشراف آفاق المستقبل، وتقديم المعلومات الموثوقة، في شتى الميادين، وعلى مختلف الصُعد، أصبحت الدول والكيانات والفصائل أكثر جاهزية واستعداداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، وتنفيذ السياسات الهادفة إلى تحقيق مراميها، ومخططاتها الخاصة.¹ وقد بات من المسلمات أن الاستخبارات عبر التاريخ، كانت على الدوام، ذات أهمية قصوى لا عند السياسيين وصناع القرار فحسب، بل عند القادة العسكريين، وزعماء الفصائل، والمجموعات المسلحة. وقد أدى استخدامها على نحو فعال الى "إنقاذ ملايين الأرواح".²

ولكي نتمكن من استخلاص وتحديد المفاهيم والعقائد الاستخبارية لأي شعب من شعوب العالم، فإنه لا مناص من التوقف ولو على عجالة، عند بعض معالم البيئة الثقافية، والاجتماعية، والعقائدية التي نشأ العمل الاستخباري في كنفها. فالعمل الاستخباري - شأنه في ذلك شأن أي مجهود بشري نوعي- ليس من المسلمات الكونية العامة، بل هو -كما تؤكد خبيرة العلاقات الدولية «أدا بوزمن، Adda Bozeman» - "مشتق من منظومة القيم السائدة في المجتمع، ومن الثقافة العامة التي ينشأ داخلها".³ ولهذا السبب تحديداً فإنه لا يحسن في رأينا أن تجرى أية دراسة عن التراث الاستخباري في آسيا

أو في العالم الإسلامي، على سبيل المثال لا الحصر، من خلال منطلقات ومقاربات أوربية غربية لا تصلح لهذا الغرض.

وهكذا سنسعى في هذه الدراسة إلى الأخذ بعين الاعتبار عوامل شتى كان لها أثر بالغ في تحديد طبيعة العمل الاستخباري وهويته على مر السنين والعصور. ويأتي في مقدمة العوامل التي طبعت العمل الاستخباري في الشرق - الدين الإسلامي الحنيف - والتراث الثقافي، والقيم المجتمعية، والقبلية، ودور الفرد، والعائلة في المجتمع. فالثقافة كما يرى أستاذ الدراسات الأمنية والاستخبارية «فيليب ديفيز، Philip Davies» تؤدي دوراً مهماً في تحديد الإطار الذهني للاستخبارات ومفاهيمها العامة في أي مجتمع.⁴ بل إن كثيراً من خبراء الأمن والاستخبارات ومنهم «ألن غودمن و Allan Goodman» و«برووس بركوفيتز Bruce Berkowitz» على صواب عندما يؤكدون على أن الوقوف على أصول الثقافة وسماتها الخاصة لأي مجتمع كان، أي فهم العناصر المتشابكة التي تقوم عليها تلك الثقافة (مثل القيم المشتركة والمعتقدات والممارسات والأفكار الشائعة حول العالم الخارجي وسبل التمييز بين ما هو شأن محلي أو خارجي طارئ... الخ) من شأن كل ذلك أن يكون عوناً لنا عند تحليل المعلومات واستشراف آفاق المستقبل الذي ينتظر ذلك المجتمع والتقرير فيما بعد إن كان ذلك المجتمع سينعم بالاستقرار أم غير ذلك.⁵

عليه فإن فهم الركائز الدينية والعقائدية والوقوف على الموروث الثقافي لأي شعب، يعد شرطاً لازماً، إذا ما أريد تجنب الإحباط والفشل في فهم العقلية التي تقف وراء هذا الحدث أو ذاك من الأحداث أو التطورات أو حتى المفاجآت التي قد تشهدها أية بقعة من بقاع الأرض. ولنا من تجربة غزو العراق عام 2003 م أحد الأمثلة الصارخة في هذا الشأن، حيث سقط آلاف

الضحايا نتيجة جهل الذين أقدموا على مشروع الغزو بديناميكيات المجتمع العراقي وتراثه الثقافي وروافده الفكرية. ومما لا شك فيه فإن هذا الجانب ينطوي على أهمية قصوى في المرحلة الحاضرة، لا سيما إذا استذكرنا على وجه التحديد أن الدين يمثل الركيزة الأساسية للعقائد والمشارب الفكرية في معظم أنحاء العالم، وإنه "لا يرتبط عادة ارتباطاً تاماً بالسياسة، كما هو الحال في الشرق الأوسط".⁶

وما ينصرف إلى الأمم والشعوب الأخرى ينصرف دون شك إلى العالم الإسلامي الذي ورث حضارة شاملة متكاملة متجسدة بتعاليم الدين الإسلامي التي تضم كل ما يحتاجه البشر من حقائق وضوابط وإرشادات تضمن للجميع العيش الآمن في ظل مجتمع منظم متكافل. فالإسلام بكتابه المبين وسيرة نبيه الأمين لم يغفل جانباً من جوانب الحياة إلا تولاه بالرعاية والتنظيم والإصلاح قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾⁷. ويفسر الأوزاعي «تبيان كل شيء» بأنها السنة النبوية الشريفة.⁸

إن الأسس التي ارتكز عليها المفهوم العربي للاستخبارات قديمة، بل سبقت بزوغ فجر الإسلام بأربعة قرون تقريباً، أي أن بذرتها الأولى كانت في القرن الثاني الميلادي. فالقبائل القحطانية في جنوب الجزيرة العربية، وكما الحال في شمالها ووسطها، كانت تمارس مختلف الأنشطة الاستخبارية من خلال شبكاتها الخاصة من الرقباء السريين والعملاء. وكان هؤلاء الرقباء والمخبرين ينهضون بمهمات ذات شأن كبير، لا أثناء فترات الحروب والأزمات فحسب، بل في أوقات السلم أيضاً. وقد أثبتت الوقائع أن الرسول ﷺ وأصحابه لجأوا إلى استخدام الاستخبارات في المراحل الأولى من الإسلام حين كلفوا من الله تعالى بنشر الدين الجديد بل إنهم أمهروا في استعمالها وأضافوا إليها أبعاداً جديدة، وشذبوا وطوروا ما ورثوه من ممارسات وأفكار

استخبارية عن أسلافهم العرب، وقننوها ووضعوا لها أسساً وقواعد تضبط أداء من كانوا يكلفون بهذه المهمة الحساسة.

وقد انطوت عمليات جمع المعلومات وتوظيف العيون، سواء من أجل نشر الدعوة إلى الدين الجديد أو لأغراض عسكرية محضنة، على أهمية قصوى لأولئك الذين أسهموا في وضع اللبنات الأولى لبناء الدولة الإسلامية. فالأساليب والخطط التي ابتكرها وأتقن أداءها مؤسس الصرح الإسلامي، تشكل بداية التكوين لما نسميه «المفهوم الإسلامي العربي للاستخبارات». ورغم أنه قد يُعتقد لأول وهلة أن هذا المفهوم لا يختلف بأي شكل من الأشكال عن سواه من مفاهيم الاستخبارات الحديثة المألوفة، إلا أن هناك في واقع الحال عدة فروق بين هذه المفاهيم من جهة والمفهوم الإسلامي العربي الذي نحن بصددده. ومرد هذه الفروق أن الأسس التي يقوم عليها المفهوم العربي الإسلامي تختلف اختلافات جذرية عن أسس المفاهيم الاستخبارية الأخرى. وأبرز هذه الفروق أن الثقافة الإسلامية الغنية القائمة على تعاليم القرآن والسنة، توفر مصدراً ثرياً للعمل الاستخباري، الذي لم يتوقف مجتمع الاستخبارات الإسلامي، وعبر أجياله المتتابة، عن استلهامه والاسترشاد به، ومحاكاته.⁹

من المؤكد أن الدين الإسلامي تخلل الثقافة العربية إلى أبعد الأعماق، حتى بات من الصعب التفريق بين ما هو إسلامي وما هو عربي. فالإسلام يمثل الأساس الروحي والأخلاقي والتشريعي الذي تقوم عليه المجتمعات العربية كافة من ممارسات، وقيم، وعادات، وآمال، وطموحات. بل إن المراحل المتقدمة من تاريخ العرب باتت متسقة ومتداخلة مع الإسلام إلى درجة أن المصطلحين، إسلامي وعربي، أصبحا مترادفين وأن أحدهما بات يدل على الآخر، لاسيما في فترة التوسع الإسلامي خارج الجزيرة العربية، حيث رفعت

رايات المسلمين في بلاد الفرس والروم، وتغلغت إلى أعماق آسيا وشمال إفريقيا وما بعدها. وقد تبنت الدول والممالك والإمبراطوريات التي اعتنقت الإسلام اللغة العربية، ليس فقط كوسيلة للتخاطب أو كجسر تواصل مع العالم الخارجي، بل كوسيلة للتفاهم بين أفراد شعوبهم في شتى مجالات الحياة. ولا يقتصر استخدامها على ممارسة شعائر العقيدة الإسلامية. فأثر العربية -لغة القرآن- بات يتضح عاماً بعد عام في العديد من اللغات الآسيوية والأفريقية، بل حتى الأوربية الحديثة والقديمة. وقد تمثل هذا التأثير بأن أصبحت العربية اللغة المعتمدة في العلوم التطبيقية، والنظرية، والفلسفة، والفقه، وفي سائر مجالات البحث العلمي في بقاع العالم الإسلامي كافة. كما أن من الإنصاف القول أن اللغة العربية هي الأخرى استفادت من بعض تلك اللغات الآسيوية والأوربية واستعارت أو أضافت إلى كنوز مفرداتها الشيء الكثير.

وتدور عجلة التاريخ، وتبدأ السطوة العربية الإسلامية بالانحسار إزاء ما يعرف بالنهضة الأوربية، ومن بعدها الثورة الصناعية، ولم يعد العرب والمسلمون على ما كانوا عليه من بأس وسؤدد. وفي القرون التي سبقت الصحوة العربية الحديثة، التي بدأت في القرن الثامن عشر الميلادي لم يكن العرب والمسلمون يشعرون بالزهو، والفخر، بانجازاتهم الفكرية والحضارية التي كانت موضع إعجاب الدنيا قاطبة. ولكن مع أول احتكاك جدي بين الغرب الأوربي والشرق العربي الإسلامي المتمثل بغزو نابليون لمصر، في أواخر القرن الثامن عشر تبين لسكان الشرق أن هناك هوة كبيرة تفصل بينهم وبين الزاحفين الجدد. فقد أدرك كثيرون في المشرق العربي الإسلامي أنهم باتوا متخلفين عن ركب الحضارة الأوربية، وأنه لا يمكن أن تقوم لهم قائمة حتى يستفيقوا ويستعيدوا هويتهم التي اهتزت إبان قرون التخلف. ولن يكون ذلك إلا حين يملكوا زمام المبادرة، وينفضوا عنهم غبار الكسل والخمول، فان لم

يفعلوا ذلك فإن هويتهم الحضارية ستكون عرضة للتلف والاضمحلال.

وهكذا ومع ولادة الصحوة العربية الحديثة بزغت من جديد مسألة هوية العرب والمسلمين، وذلك كرد فعل على الصحوة الأوربية التي تم رفض قيمها ومبادئها. ويتضح هذا الميل في نشوء عدد من الحركات المناهضة للغرب، حيث كانت هذه الحركات تعارض كل المحاولات التي أقدم عليها الغربيون لترسيخ ثقافتهم وقيمهم في الشرق. فقد كان المسلمون ينظرون إلى تلك المحاولات على أنها تهدف إلى إحكام الغزو الثقافي للعالم الإسلامي.¹⁰

وفي الشرق الأوسط تطور الموقف المناهض للمخططات الغربية مع الزمن على نحو أدى إلى نشوء فكر أصولي عربي وإسلامي لاسيما منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وإنشاء دولة إسرائيل منتصف القرن العشرين تقريباً. فقد اخذت الكثير من الحركات الراديكالية، والمجموعات شبه العسكرية، تدعو وبدرجات متفاوتة إلى اعتماد «العنف»، أو «المقاومة المسلحة»، أو «الإرهاب» للوقوف بوجه المطامع الغربية في المنطقة، بدءاً بحركة الإخوان المسلمين، وتنظيمات الشباب القومي، والعديد من المنظمات الفلسطينية، وانتهاء بالمجموعات المسلحة المشهورة أمثال حركة طالبان، وتنظيم القاعدة، وما تفرع عنها، وتنظيم ما يسمى بالدولة الإسلامية وغير ذلك.¹¹ ومعظم هذه الحركات والتنظيمات، سواء الراديكالية منها أو غير الراديكالية، سعت ولو بدرجات متفاوتة إلى استلهاً أو توظيف بعض جوانب هذا الميراث الإسلامي الغني، لخدمة أغراضها الخاصة عندما دشنت مشاريعها السياسية، أو بدأت تبني أجهزتها العسكرية والأمنية.

إن أهم مصدر للمفاهيم الاستخبارية بالنسبة لمعظم المسلمين، هو القرآن الكريم. حيث ظل كما هو لا تؤثر فيه التطورات التي شهدتها

العصور، لكونه صالحاً لكل زمان ومكان. فأيات القرآن الكريم تؤكد على وجوب الذود عن ديار المسلمين، والدفاع عن بيضة الإسلام، ودفع العدو. ومن هذه الزاوية -زاوية الدفاع عن الدين والوطن- يمكن القول عموماً إن الإسلام يبيح العمل الاستخباري وفقاً لأحكامه، لاسيما إذا أخذنا في عين الاعتبار الصعوبات والتضحيات والمخاطر التي يواجهها المدافعون عن شرع الله. ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾¹²

تشير الآية، حسب ما شرحه المفسر محمد القاسمي، إلى أنه من أجل الدفاع عن الدين، ألزم الله المسلمين بأن يلحقوا بالعدو أكبر قدر ممكن من الضرر. ولا اختلاف في ذلك بين العامل في حقل الاستخبارات وبين أي فرد يعمل للذود عن بلاده ودينه. وعلى ذلك فانه يمكن القول بأنه كلما تعرض العامل في حقل الاستخبارات إلى الأخطار والمحن، كلما اقترب من الجزاء الحسن مقابل ما بذله في سبيل الله.¹³ وأكثر تحديداً فإن الآية لها سبب نزول. عن ذلك يقول «ابن كثير»:

"يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم «لا يصيبهم ظمأ» وهو: العطش «ولا نصب» وهو: التعب «ولا مخمصة» وهي: المجاعة «ولا يطئون موطئاً يغيب الكفار» أي: ينزلون منزلاً

يُرهب عدوهم «ولا ينالون» منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾¹⁴.

وفي الوقت الذي يحوي القرآن الأساسيات الأخلاقية، والأطر التشريعية التي تنظم العمل الاستخباري، فإن سنة الرسول ﷺ تجسد الأمثلة العملية لهذه الأسس والتشريعات، التي يمكن أن تستمد منها نظم العمل الاستخباري. فالإسلام يلزم جميع المسلمين اتباع خطوات الرسول ﷺ والامتناع عن عصيان ما أمر به، لكونه هو من اختاره الله واصطفاه ليعلم الأمة، ويرشدها إلى سواء السبيل، فالرسول ﷺ يعتبر النبراس والدليل الذي ننهج خلفه ما سن لنا في كل المجالات، بما في ذلك سننه في المجال العسكري وفروعه الأخرى. ففي مجمل الضمير الإسلامي يعتبر رسول الله ﷺ القائد المثالي والمجاهد الملهم، ولم لا وهو الرسول الذي شهد له الخصوم، قبل الأصحاب، واعترفوا بعبقريته وقيادته، وهو في غنى عن تزكية البشر، إلا أنه حتى الآن يشهد له حتى غير المؤمنين به، فيقول رئيس مركز الدراسات الدولية في جامعة هارفارد البروفسور «صموئيل هنتغتون، Samuel Huntington» في كتابه «صراع الحضارات» إن «محمداً كان مقاتلاً عظيماً وقائداً عسكرياً محنكاً»¹⁵. أما المؤرخ العسكري وخبير الدراسات الأمنية «ريتشارد غابرييل، Richard Gabriel» فيقول في كتابه (محمد: أول جنرال عظيم في الإسلام) "إن ذكرى محمد لا تزال راسخة في عقول المجاهدين من عصرنا".¹⁶

وإلى جانب القرآن والسنة، هناك مصدر ثالث هو الفقه الإسلامي، فمن خلال مبدأ الاجتهاد الذي يتم به السعي إلى استنباط الفروع من

الأصول، أي استعمال الحُكم الفقهي في اشتقاق واستنتاج الرأي الفقهي في أمر لم يرد ذكره في القرآن أو سنة الرسول ﷺ. ويقوم الاجتهاد على مبدأ واسع القبول في الفقه الإسلامي مفاده أنه مباح للشخص أن يفعل أي شيء لم يرد بخصوصه حظر من الله أو الرسول ﷺ. ولا شك أن هذا الأمر ينصرف أيضاً إلى حقل الاستخبارات والأمن. ففي هذا الحقل تحديداً يوفر الاجتهاد المرونة والحرية المطلوبة لتنفيذ ما يخدم مصالح المسلمين في أي مكان وزمان. ومن جوانب الاجتهاد - كما هو معلوم - التوفيق بين الشريعة الإسلامية من جهة وبين المستجدات العصرية من جهة أخرى، كالاختراعات الجديدة، والتقنيات الحديثة، والابتكارات، والأنماط الحياتية المتغيرة، على أن لا تتنافى تلك المستجدات بأي شكل من الأشكال مع مبادئ الإسلام الواردة في القرآن والسنة النبوية الشريفة.

ومن هنا يتضح الدور المهم الذي يؤديه المفهوم الاستخباري في الإسلام في ضبط وتوجيه العمل السري، والنشاطات الاستخبارية، في الكيانات، أو المنظمات، أو مؤسسات الدول الإسلامية. فالنموذج الإسلامي في مجال العمل الاستخباري يجسد للقائمين على هذه الكيانات والتنظيمات والدول، أنموذجاً ومثالاً حياً تحتذي به أجهزتهم الخاصة وتُقلده. وليس من المبالغة الزعم بأن معظم التنظيمات والحركات السياسية في العالم العربي، وخاصة شبه العسكرية منها، تعتمد إلى محاكاة الأنموذج الاستخباري الإسلامي في ممارساتها، وأنشطتها السرية، سواء عند تأسيسها أو في المراحل التي تلي ذلك، مما أنجح بعض ممارساتها كلاعب استخباراتي.

على أن العمل الاستخباري الإسلامي - كما أسلفنا - لم ينشأ من عدم، فالنشاطات الاستخبارية الإسلامية الأولى كانت امتداداً واستمراراً للنشاطات السرية في الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام. ففي تلك

الأزمة المبكرة، وحين كان الولاء لزعيم القبيلة فوق كل شيء آنذاك، كانت القبائل في العصور الجاهلية تنيط المهام الاستخبارية والأمنية في الغالب الأعم لشباب أصحاب أشداء يتم اختيارهم بعناية وحرص، بهدف تنفيذ بعض العمليات السرية ضد الخصوم، أو القبائل المنافسة. ولا يقتصر عمل هؤلاء الشباب على زمن الأزمات والحروب بل إنهم كانوا يكلفون بواجبات سرية حتى في زمن السلم. هؤلاء الشباب، كان يطلق عليهم أسماء محددة تصف نوع العمل المنوط بهم مثل: «العين» و«الريئة» و«الطليعة» و«الدليل» ونحوه. فالربايا (جمع ريئة) مثلاً كانوا يقومون بمهام تشبه ما يقوم به هذه الأيام جهاز الإنذار المبكر، إذ كانت هذه الزمرة مكلفة بمراقبة أرض الخصوم عن بعد، وتقوم بأعمال الرصد للهدف. أما الطلائع فكانوا بمثابة الكشافة، يستكشفون أرض المعركة قبل انطلاق غارة على هدف معين.¹⁷ ورغم بدائية هذه الوسائل التي لم تكن تطورت بعد، فإن هذه النشاطات الاستخبارية والأساليب العسكرية كانت كافية لسد حاجة المجتمعات القديمة بالمعلومات السرية المطلوبة. وكانت هذه النشاطات -رغم بساطتها- وبدائيتها تؤلف مفهوماً استخبارياً يجسد الثقافة السائدة، والظروف المحيطة بهذه المجتمعات، ويمكن أن توصف بأنها كانت بواكير المفهوم الاستخباري العربي.

الفصل الأول

الاصطلاحات

الاستخباراتية

والسجلات العربية الأولى

1.1: تقدير

يقول الجاحظ في رسالته «كتمان السر وحفظ اللسان»: أن من طبيعة البشر ومنذ أقدم الأزمان "محبة الأخبار والاستخبار"¹. وليس من الصعب على المرء أن يفهم سبب ذلك. فالبقاء على قيد الحياة يتطلب أول ما يتطلب الصراع مع الطبيعة، وتطويعها، والتغلب على كل ما أو من يقف في وجه التطور والنمو. ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا استطاع الفرد أن يحمي نفسه من المخاطر، ويبقى يقظاً طول الوقت، ويواصل استعداداته للتعامل مع ما هو غير متوقع أو منظر. والعرب مثلهم في ذلك مثل شعوب أخرى في الكون، لجأوا منذ أقدم العصور -ولأسباب ليست عصرية على الفهم- إلى جمع المعلومات الاستخباراتية وإلى ممارسة مختلف أنشطة التجسس خلال أوقات السلم، وزمن الحرب على حد سواء. بل إن العمل الاستخباري العربي قطع شوطاً بعيداً إلى الحد الذي تم فيه أفراد مصطلحات فنية دقيقة خاصة تصف بدقة وتفصيل عمل المنخرطين في هذا الحقل، وتحدد واجباتهم ومسؤولياتهم، وتثبت المتطلبات البدنية أو المعرفية التي ينبغي توافرها لدى كل صنف منهم.

ولا شك أن العنصر البشري أو ما يطلق عليه «Humint» في علم الاستخبارات يبقى هو العمود الفقري في العمل الاستخباري، مهما تطور العلم والتقنية لإحلاله. وقد أدرك الأوائل أهمية العنصر البشري في العمل

السري وميزوه وصقلوه وحددوا مهام كل فرع من فروعهم، فلا غرابة أن تعج قواميس اللغة وكتب الأدب بمسميات تصف كل نوع من ممتهني هذا الفرع من المعرفة.

إن المرادف العربي لكلمة «Intelligence» الإنجليزية هي «الاستخبارات» أو «المخابرات»، وكلاهما مشتق من كلمة «خبر». ولهذه الكلمة أو الاسم استعمالات ودلالات عديدة في أكثر من سياق وعلى أكثر من صعيد. ويمكن استعمال هذه الكلمة للدلالة على أي من الآتي: «الأخبار»، «الرواية»، «النصيحة»، «المقولة»، «الرسالة»، «الشائعة»، «العلم»، «الجواب»، «الرد»، «الخبر»، «التقرير»، «القصة». ويمكن استعمالها أيضاً لتدل على «كمية كبيرة من الأخبار»، أو «غزارة في العلم أو الخبرة». وقد تدل كلمة «خبر» أيضاً على الخبر الأخير، أي خبر الموت وهكذا يقال على سبيل المثال: من يأتني بخبره؟ أي من ينبئني بخبر وفاته؟ أما اسم الفاعل «المُخبر» وهو مشتق من «الخبر» أيضاً فيعني «الشخص الذي ينقل الأخبار» أو «الذي يتجسس على الآخرين» لأي سبب من الأسباب، وإن كان هذا المصطلح يستعمل عادة للإشارة إلى عملاء «مصادر» الدولة.² ويكاد استعمال المصطلح الحديث الشائع «المخابرات» ينحصر هذه الأيام ليدل على «الاستخبارات» دون غيرها، وإن كان قد استُعمل في العهدين الأموي والعباسي ليدل على «المراسلات»، و«التقارير»، و«الخطابات»، و«الاتصالات».³ وفي العالم العربي المعاصر، يستعمل المصطلحان «المخابرات» و«الاستخبارات» للدلالة على شيء واحد هو «الاستخبارات»، وهذه الكلمة تستعمل عادة للدلالة على الاستخبارات الخارجية، في الوقت الذي يستعمل فيه مصطلح المخابرات للإشارة إلى أنواع شتى من الاستخبارات: الداخلية «المضادة»، والخارجية «الاستراتيجية» و«العسكرية».⁴

1.2: المصطلحات الاستخبارية في التاريخ العربي

تستعمل كلمة «Spy» في اللغة الإنجليزية لتدل على عميل أجنبي، أو محلي، يقوم بالمراقبة، أو التحقيق، أو الانخراط في المراقبة السرية، أو التجسس لمصلحة هذا الفريق أو ذاك. واشتق الإنجليز هذه الكلمة من الفرنسية القديمة «Espy» التي تعني «راقب»، أو «رأى»، أو «لحظ»، أو «تابع». ومن هذه الكلمة أيضاً اشتق المصطلح الإنجليزي «Espionage» الذي يعني التجسس، سواء أكان هذا التجسس لمصلحة البلد الذي ينتمي إليه الجاسوس، أم لحساب دولة أو جهة أجنبية أو معادية. أما في العربية فثمة تمييز واضح بين المصطلح الذي يستخدم للدلالة على الذين يتجسسون لشعوبهم، أو دولهم، أو مصالحهم، وبين أولئك الذين يتم توظيفهم من قبل الأعداء أو المنافسين، أو الجهات الأجنبية أياً كانت. فكلمة «جاسوس» استعملت أصلاً وعلى نحو شبه حصري للدلالة على الذين يتم تجنيدهم ليكونوا عملاء وجواسيس للمنافسين، أو الخصوم، أو الأعداء الأجانب على وجه العموم. أما على المستوى الشعبي، فقد باتت هذه الكلمة تطلق على الذين يبحثون عن معلومات مشينة، أو مخجلة، أو فاضحة عن الآخرين بهدف القذف، أو التهديد، أو الطعن، أو التزوير، أو الابتزاز، أو لأي غرض آخر غير شريف.⁵

فكلمة «جاسوس» أصبحت إذن مثقلة في مدلولاتها العامة بالمعاني السلبية المعيبة، التي تلقي بظلال غير حميدة على من تطلق عليه. أما كلمة «ناموس» فتطلق عادة -ولو على نحو غير حصري- على كل من بحوزته معرفة خاصة، أو إلمام أو اطلاع على خفايا سلوك الآخرين، وأسرارهم وخبائهم. وبخلاف كلمة «جاسوس» فإن كلمة «ناموس» محملة بالدلالات

الإيجابية، التي توحى بالاطلاع الواسع، والعلم الغزير، والحكمة والحنكة والتأني. بل إن هذه الكلمة باتت - في بعض جوانبها - ترد مرادفة لكلمة «كرامة» أو «شرف» أو «الضمير الحي». ويزيد صاحب «لسان العرب» إلى ذلك كله فيقول: "إن المصطلح استخدم أيضاً للدلالة على أعظم وأصدق مصدر «للأخبار» و«الاستخبار»: الملك جبريل الذي أرسله الله تعالى إلى الرسول محمد ﷺ، ليحمل إليه الأوامر الإلهية والوحي القرآني الكريم".⁶

وللتمييز بين «التجسس» لغرض مشروع أو حميد، وبين استراق المعلومات واقتناصها لأغراض سيئة، فقد استعمل العرب فعلين مختلفين هما «تجسس» و«تحسس». ويكاد استعمال الفعل «تجسس» ينحصر للإشارة إلى محاولة الحصول على معلومات سرية أو خفية. وبينما لم يرد الاسم «جاسوس» في أي نص قرآني، فإن الفعل «تجسس» يرد في سورة الحجرات، حيث يأمر الله المسلمين ألا يتجسسوا على بعضهم بعضاً. في إشارة إلى النشاط السري لأي فرد يمارس التجسس لحساب فرد أو جهة معادية، لاسيما إن كان ذلك خصماً، أو عدواً، أو قوة خارجية.⁷ وينصرف معنى اسم «جاسوس» أيضاً إلى عملية تسقط أو رصد المعلومات الشخصية لأي فرد كان لأغراض نفعية أنانية، أو مكسب مادي غير مشروع، أو لأغراض أخرى غير شريفة. فلفظ «تجسس» مخصص لأعمال الشر فقط، يقول الله تعالى في سورة الحجرات عند الإشارة إلى التجسس:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾⁸.

وعلى الرغم من أن الفعلين «تجسس» و«تحسس» يلتقيان في أكثر من نقطة، لاسيما في ارتباطهما المشترك بعمليات الحصول على المعلومات

بصفة عامة، إلا أن استخدام الفعل «تجسس» يخص أعمال الشر وحده، بينما «تحسس» أعم وأشمل، ويكاد ينحصر في الحالات التي يُراد بها الإشارة إلى جمع المعلومات لغرض مشروع، أو بريء أو شريف أو حماية للأمة. وفي هذا السياق يرد الفعل في سورة يوسف،⁹ حين طلب يعقوب -عليه السلام- من أولاده أن يبحثوا عن أخيه يوسف. قال تعالى ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾¹⁰ (٨٧). ومن المناسب في هذا المقام، ما دمننا نتكلم عن دقة العرب في اختيار الألفاظ وفي مقصودهم من الكلام أن نذكر ما قاله المفسر ابن كثير في هذا الخصوص:

(ولا تجسسوا) أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ «يوسف: 87» وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً".¹¹

كان الجاسوس عبر تاريخ العرب، -سواء العميل الأجنبي أو العامل المحلي منهم- يُعرف «بالعين». وهنا لابد من الإشارة إلى أن مصطلح «العين» يطابق تماماً الفعل الإنجليزي «Espy» من حيث المعنى والترميز والاستعمال. فكلاهما يشير إلى الرؤية والنظر والملاحظة. وكلمة «العين» التي تداولها العرب طوال القرون الماضية، لا تزال تستعمل على نحو مكثف في حقل الاستخبارات والتحقيقات وفي سياقات مختلفة شتى لاسيما في الإعلام والوسائل المتعددة للاتصال بال جماهير. ويشير مصطلح العين من

بين أمور أخرى إلى الرقيب، أو المبتعث، أو الرسول، أو المراقب السري، أو جامع المعلومات، أو أي فرد يكلف باستكشاف موضع أو حالة ما، أو كل من يعمل عموماً في مجال الاستخبار ونقل المعلومات. ويشير المؤرخون العرب وأصحاب المعاجم أمثال «محمد مرتضى الزبيدي» إلى أن «العين» -والتي تعني أيضاً «الطير الجارح» وبالتالي «امتلاك بصر نافذ»- كانت تطلق على الجواسيس والمخبرين لأن معظم عملهم يعتمد على ما يلاحظونه، لاسيما بالعين.¹²

من المصطلحات العربية الأخرى التي تدل على طبيعة العمل الاستخباري الذي يقوم به العين سواء كان «جاسوساً» أو «عميلاً سرياً» أو «ناقلاً للرسائل» أو «عميل توصيل» أو «مراقباً سرياً» أو «عميلاً مزروعاً» أو «عميل تأثير».. وخلافه، وفقاً للمصطلحات الحديثة، نذكر: «دسيس»¹³، و«دليل»¹⁴، و«طليعة»¹⁵، و«ديدبان»¹⁶، و«ربيئة»¹⁷، و«مهرول»¹⁸، و«حواس»¹⁹، و«فيج»²⁰، و«شيفة»²¹، و«بَغِيَّة»²²، و«خَرِيْتُ»²³، و«مِثْمٌ»²⁴، و«نَقْرَسٌ»²⁵، و«حَمَكٌ»²⁶.

فالإسم «دسيس» مشتق من كلمة «دس» التي قد تستعمل لتدل على «التغلغل» أو «الدخول خلسة»، أو «الاختلاط»، أو «التدخل» وفي المصطلح الحديث تعني المصدر المزروع في منطقة الهدف. وعموماً فإن كلمة «دسيس» تعني الشخص الذي يرصد ويراقب سراً، أو الذي يدخل أرضاً دون علم الآخرين، أو موافقتهم بهدف الرصد والمراقبة. وتأتي وصفاً لمن «يبعثه قومه سراً ليأتيهم بالأخبار»²⁷ والعلاقة بين هذا المفهوم وبين كلمة «الجاسوسية» واضحة لا تحتاج إلى بيان. يقول الشاعر العربي في هذا المعنى:

"لا تسأما لي من دسيس عداوة أبداً فليس بمسئمي أن تسأما"²⁸

وتستعمل كلمة «دليل» عادة لتدل على «المرشد»، أو «الكشاف»

الذي له دراية بالطرق السلوكية من قبل عامة الناس، وتلك النائية الاستخدام والأماكن التي تمر بها، ويتم اختيار «الأدلاء» لا لمعرفةهم بالأمكنة فحسب بل لدرايتهم وحسن اطلاعهم على شؤون العرب، ومعرفةهم بالقبائل والبطون، وإلمامهم بالعديد من الجوانب المهمة المتصلة بالخصومات، أو العداوات والحزازات أو المعاهدات والمهادنات والأحلاف التي تنشأ بين هذه القبيلة أو تلك. ويعني هذا أن الدليل ينهض بالكثير من مهمات «العين»، أو «الجاسوس»، لكن الفرق بينهما أن «الدليل» يتحلى بمهارات متعددة، قد لا تتوفر في سواه من «العيون والجواسيس».²⁹ وهنا يشبه الشاعر «الدليل» بأنه كالنجم الذي يهتدي به، وهو خفي ولا يبدو منه بين النجوم إلا الشيء اليسير فيقول:

"يكون بها دليل القوم نجم كعين الكلب في هبى قباع"³⁰

أما كلمة «الطليلة» وهي مشتقة من «طلعة»، فيراد بها من كان «في المقدمة»، وتستخدم في العادة بمعنى «فاتح الطريق»، أو «المقتحم» أو «قائد الطليلة»، أو «المستكشف»، و«المستطلع» الذي يقوم «بكشف الخبر»³¹ ويأتي به، وتكتسب المهمات التي ينهض بها «الطليلة» زمن الحرب أهمية كبيرة لاسيما قبل بدء المعارك أو حين تتقدم الوحدات المسلحة لتنفيذ مهماتها القتالية. وإلى جانب المهام التي يؤديها «العيون» وهي الاستكشاف والاستطلاع، فإن أفراد «الطليلة» يشتركون في كثير من الأحيان في العمليات القتالية أيضاً ويشنون هجمات ذات أهداف محددة إما لغرض إرباك العدو أو مباغتته أو صرف نظره أو التمويه عليه كقول الشاعر:

"يقاتل مرة ويعين أخرى ففرت بالصغار وبالهوان"³²

وفي رد لشاعر من «بني قريم» على أحد شعراء الصعاليك وهو «تأبط

شراً» عندما رصدوا له وقتلوه، قوله:

"فلتم تهريون ولو كرهتم تسوقون الحرائم بالنقاب
وزال بأرضكم منا غلام طليعة فتية غلب الرقاب"³³

إن تسمية «الطليعة» لا تزال حية ومتداولة حتى في وقتنا الحاضر، حيث يشار إلى «طليعة الجيش» أي «مقدمته»، ولم تفقد هذه التسمية مدلولاتها الأصلية الأخرى التي تعني «الشخص الذي يبحث عن الأسرار ويستكشف» أي «الجاسوس».

وتعتبر تسمية «الديدبان» من المصطلحات الخاصة التي تشير إلى صنف خاص من رجال الاستخبارات، ونقصد بهم أولئك الذين يمارسون مهماتهم الاستخبارية لرصد العدو وطلائعه من مكان مستو ليس به علو. ويكثر استخدام «الديدبان» زمن الحرب لا سيما حين يتوقف الجيش أو المجموعة التي ينتمي إليها «الديدبان» لأي غرض كان، سواء أكان ذلك للتموين، أو، لتأدية الصلاة، أو المبيت، أو الاستراحة، أو قبيل شن الهجوم حيث تكون مهمة «الديدبان» إنذار جيشه للاستعداد والاستجابة السريعة لأي طارئ.³⁴ ويصف أحد الشعراء مهام «الديدبان» فيقول:

"أقاموا الديدبان على يفاع وقالوا لا تنم للديدبان
فإن أنست شخصاً من بعيد فصفق بالبنان على البنان"³⁵

وإذا كان العرب يستخدمون «الديدبان» لوصف العيون الذين يؤدون مهامهم في الأراضي المستوية، فإنهم أفردوا مصطلحاً خاصاً لأولئك الذين يكلفون بمهام الرصد والمراقبة من الأماكن العالية والتلال أو الجبال. وتطلق على هؤلاء تسمية «الريئة». ولا تختلف المهام المنوطة بهذا الصنف من العيون عن تلك التي يؤديها «الديدبان» لكن متطلبات «الريئة» تختلف

بعض الشيء لأنها تفترض في من يتخذ من الأماكن العالية والطبيعة القاسية موقعاً لعمله أن يكون قوي البنية، وذا بصر ثاقب يتمكن من خلاله التعرف على الأهداف المراقبة وتزويد مسئوليه بتفاصيلها.

ومسمى «الربيئة» كما لا يخفى مشتق من «الريوة» أو «الرابية» التي تعني المكان العالي. ويستعمل هذا المسمى أيضاً كناية عن الكشف الذي تسهل عليه مهمته إذا راقب من علو. وكان هذا المصطلح شائع الاستعمال قديماً، حيث ظهر في عدد من الوثائق العربية القديمة لا سيما في النصوص الشعرية التي نظمت قبل الإسلام. ومن ذلك أن الشاعر الجاهلي الفارس «عروة بن الورد» أشار في إحدى قصائده إلى الربيئة، وإلى الدور المهم الذي كان يؤديه في الصحراء العربية عندما يقول في إحدى قصائده:
"إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة بعثنا ربيئاً في المرابي كالجدل
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه وهنّ مناخات ومرجلنا يغلي"³⁶

ويشير شاعر جاهلي آخر هو «أوس بن حجر» (530-620) إلى الظروف الصعبة التي كان على الربيئة تحملها والأخطار الكثيرة التي كان يتعرض لها كي ينهض بواجباته على نحو سليم حين يصف عاشقاً خاب أمله وبهت لونه فيقول عنه أنه يترقب ما حوله وكأنه ربيئة يتجسس:
"فأضحى بقارات الستار كأنه ربيئة جيش فهو ظمآن خائف
يقول له الرءاءون هذاك راكب يؤنّ شخصاً فوق علياء واقف"³⁷

لكن «امرئ القيس» يقول أن كل من يقوم بمهمات الربيئة لا بد أن يكون مثل الذئب الأجرد كثير الأذى، أي من الأفراد المعروفين بالشراسة والفظاظة:

بَعَثْنَا رَبيئاً قبل ذاك مُحَمَّلاً كذئب الغصنا يمشي الصَّراء وَيَتَّقِي

فَظَلَّ كَمِثْلِ الْخَشْفِ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَسَائِرُهُ مِثْلُ التُّرَابِ الْمُدَقَّقِ

ويذكر «الأصفهاني» في كتاب «الأغاني» إحدى رواياته لنهاية أشجع العرب «عنترة بن شداد» عندما قتله ربيثة من طيء في غزوة له مع قومه انهزمت فيها «عبس» وسقط «عنترة» عن فرسه ولم يستطع معاودة ركوبها لكبر سنه فلجأ إلى مغارة، رصده ربيثة وهو يدخلها، فنزل إليه وهاب أن يأسره فعمد إلى قتله رمياً.³⁸

وهناك نفر آخر من العيون هم «الفُيُوج» (مفردا فيج). تعني كلمة «فيج» «الشخص الذي يمشي سريعاً أو يجري من مكان إلى آخر ويحمل الأخبار من بلد لآخر». ولأن السرعة مهمة جداً في نقل المعلومات الاستخبارية، فقد استخدمت الكلمة لاحقاً عند العرب في وصف طائر الحمام الذي يقوم بنقل الرسائل، حيث قالوا عنها بأنها «برائد الأنباء المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، وفيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلَطَّفَات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية»³⁹ وقد استخدم اسم «فيوجيه» الذي يدل على «البريد، وناقلي الرسائل»⁴⁰ للإشارة إلى من يعمل من العيون في «نقل الرسائل السرية» سواء الشفوية منها أو المكتوبة، لذا أصبح هذا المصطلح يدل على نحو شبه حصري على تلك الفئة من «العيون» أو «الجواسيس».

وهناك مصطلح عربي آخر قريب في معناه من مصطلح الفيوج وهو «المهرول». ويستدل من معنى المصطلح أن مهمة المهرول هي نقل الرسائل السرية السريعة. ولا يخفى أن المتطلبات البدنية تقتضي أن يكون من ينخرط في هذا الصنف من العمل الاستخباري سريع الجري خفيف الوزن وذا لياقة بدنية عالية يمشي دائماً منفرداً ويتضح ذلك من وصف

الشاعر له في قوله:

"وبدل الفيح بالزرافة والأيام خون جم عجائبها"⁴¹

واستعمل العرب مصطلح «الشَّيْفَةِ» (الجمع شَيْفَان) المشتق من الفعل «شُفْتُ» الذي يدل على «رفع الشخص لرأسه كي يرى بوضوح»، أو أن يكون في المقدمة أو في موقع يرى فيه على نحو أفضل من الآخرين. فالارتباط بين «التشوف لمعرفة الأسرار» وبين «التجسس» ظاهرة هنا لا لبس فيها. ويقول الفرزدق مستخدماً هذه الكلمة في وصفه خيلاً نشيطة جداً إذا رأت شخصاً بعيداً انتبعت إلى ذلك فصهلت بصوت عال:

يَشْتَفَنَ لِلنَّظَرِ الْبَعِيدِ كَأَنَّمَا ارْنَأْنَهَا بِبَوَائِنِ الْأَشْطَانِ⁴²

وحيث أن الواجب الأول «للعين» و«الجاسوس» هو البحث والحصول على معلومات سرية، فإن مصطلح «بَغْيَةً» (الجمع بغايا) الذي يعني «الباحث»، أو من هو في مهمة خاصة، أو من يطالب بأن يعرف أو يملك شيئاً، كان يستعمل أحياناً ليدل على الذين يجمعون المعلومات سراً.⁴³ وباختصار شديد فإن مهمة «البغية» هي تحقيق الهدف أو الوصول إلى «المبتغى» وهو جمع المعلومات. وكثيراً ما يستخدم البغايا في المعارك حيث يتقدمون صفوف المقاتلين لكي يقوموا بمهمة الرصد والاستكشاف على نحو ما يقوم به الطلائع أو الرابا.⁴⁴ قال «طُفَيْل»⁴⁵ عن ذلك:

"فألوت بغاياهم بنا وتباشرت إلى عرض جيش غير أن لم يكتب"⁴⁶

وقال بهما «النابعة الذبياني» أيضاً:

"فأوردهن بطن الأثم شعثاً
على إثر الأدلة والبغايا
فباتوا ساكنين وبات يسري
يحصن المشي كالحد التوأم
وخفق الناجيات من الشام
يقربهم له ليل التمام"⁴⁷

أما «الْخَرِيتُ» وهو اسم لذلك الصنف من الأدلاء الماهرين الحاذقين بالدلالة، فيقال «دليلُ خَرِيتٍ بَرِيتٌ»، وهو الذي يهتدي إلى الطرق والمسالك غير المسلوكة من عامة الناس، لكونها خفية أو وعرة، وله معرفة بمضايقتها ومنافذها.⁴⁸ وقد ورد في الحديث عن هجرة رسول الله ﷺ أنه استأجر رجلاً دليلاً إلى المدينة، من بني الديل، وصف بأنه كان «هادياً خريتا». ⁴⁹ كما وردت كلمة «خريت» على ألسنة شعراء العرب ومنهم «رؤية بن العجاج»⁵⁰ حين قال:

"أرمي بأيدي العيس إذا هويت في بلدة يعيا بها الخريت"⁵¹

كما أطلق على «الدليل الهادي»⁵² «مُئْمٌ»⁵³ وأطلقت كلمة «نقرس» على الدليل الداهية، وقد قال «المتلمس» يخاطب «طرفة بن العبد»:

"مروان أن مطيتي معقولة ترجو الحباء وربها لم ييأس
آتيتني بصحيفة مختومة يخشى علي بها حباء النقرس
ألق الصحيفة يا فرزدق لا تكن نكراء مثل صحيفة المتلمس"⁵⁴

أما الأدلاء الذين كانوا يمارسون نشاطهم في الصحارى والقفار فقد أطلق عليهم نعت «الْحَمَكِ». ويشار هنا إلى أن هذه الكلمة لا تخلو من بعض الدلالات السلبية، لا سيما أنها كانت تستعمل من بين أمور أخرى للإشارة إلى ما هو رديء، أو ضئيل، أو عديم الفائدة. ومن الكلمات الأخرى التي استخدمها العرب في هذا السياق -أي ربط بعض أنواع التجسس بالوضاعة والتدني- كان العرب المسلمون يطلقون لفظة «المنافق» للإشارة بصورة حصرية إلى «الجاسوس» الذي يعمل تحت غطاء الإسلام حتى يقوضه من الداخل وذلك من خلال نشر الشائعات والأكاذيب والأراجيف وكل ما يسيء إلى الإسلام والمسلمين. وقد أورد القرآن الكريم كلمة المنافق في هذا السياق مرات عديدة.⁵⁵

٤٣: النجسس فلاي الوثائق والتدوينات العربية الأولى

لعل جهلنا بتفاصيل تاريخ الحضارات العربية التي سبقت بزوغ فجر الإسلام في القرن السادس للميلاد، وعدم توفر سجلات تاريخية لهذه الفترة الزمنية يجعل بحث ودراسة ما نحن بصدده بشكل تفصيلي أمراً يشوبه بعض الصعوبة. إن اهتمام الأوربيين حديثاً بدراسة تاريخ ما قبل الإسلام وإنشاء مراكز بحثية لاستكشاف الحضارات التي نشأت في الجزيرة العربية قديماً، ولا سيما تلك التي قامت في شمالها ووسطها وجنوبها، سيكشف لنا جزءاً من جوانب تاريخ هذه الحقبة الزمنية. وبالرغم من ذلك، فإن هناك بعض الإشارات المتناثرة في المصادر القديمة للمؤرخين والجغرافيين اليونانيين والرومان، والحوليات الآشورية، تؤكد أن هذه البقعة من الأرض سكنتها منذ القدم شعوب يربطهم مزيج من اللغة والسمات الثقافية المشتركة ويتحدرون من أصل واحد ويدعون عرب. وهذا المسمى استمر على مر العصور لسكان هذه الرقعة الجغرافية ومنذ القدم.⁵⁶

وقد بينت العديد من النقوش التي عثر عليها حديثاً في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية، أن هؤلاء العرب القدماء الذين عاشوا قروناً قبل الإسلام أسسوا حضارات ذات علم ومعرفة، وفيها تنوعت طرق حياتهم. فمنهم من سكن المدن واشتغل بالتجارة، ومنهم من استقر واشتغل بالزراعة، في حين كان هناك آخرون كثيرون التنقل من البدو الرحل. وقد استوطن بعض منهم شمال الجزيرة العربية على امتداد مناطق شاسعة وأجزاء متفرقة من الهلال الخصيب، وأسسوا دويلة ممالك ذات حكم ذاتي إبان حكم امبراطورية الرومان والبيزنطيين للشرق الأدنى، الذي امتد لأكثر من 600 عام (من

64 ق.م. إلى فتح المسلمين لها في 635-640 ب.م)، كانت الحرب سجلاً على الحدود بين الامبراطوريتين المتنافستين آنذاك، الفارسية/الإيرانية والرومية/البيزنطية، إبان حكم الساسانيين لبلاد فارس وإطلاق اسم إيران عليها في القرن الرابع للميلاد.⁵⁷

ومع ضعف موقف البيزنطيين في سوريا وشمال بلاد الرافدين خلال منتصف القرن الثاني للميلاد، تمكن المهاجرون الأوائل من الجزيرة العربية من إقامة دولتهم المستقلة (دولة المناذرة) في وادي نهر الفرات في العراق متخذين من مدينة الحيرة الواقعة قرب مدينتي «النجف والكوفة» الحاليتين عاصمة لهم.⁵⁸ ونجح عرب الجنوب أيضاً في تأسيس دولة أخرى في شمال الجزيرة هي دولة الغساسنة في سوريا متخذين من بصرى الشام (قرب درعا الحالية) عاصمة لهم. وكان «جفنة بن عمرو» أول ملك لهم في سلسلة طويلة من الملوك، حكموا الركن الشمالي الغربي من الجزيرة العربية.

ولم يكن «البيزنطيون» يرون دولة «الغساسنة» قوة منافسة، بل حليفاً لهم ضد «الفرس» الذين كانوا معهم في حالة حرب مستمرة. وكان «الفرس» من جانبهم يعدّون دولة «المناذرة» في العراق التي كانت ممتدة على طول حدودهم الغربية والشمالية الغربية بمثابة درع واق أو منطقة عازلة بينهم وبين أعدائهم «البيزنطيين». ولهذه الأسباب كان «الفرس» يقدمون الدعم «للمناذرة» ويضمنون عدم سقوطهم فريسة سهلة للغزاة الأجانب. أي أن كلا الطرفين المتناحرين أي «البيزنطيين» و«الفرس» كانا يدافعان عن الدولة العربية المحاذية له، لأن ذلك يحمي مصالحه ويخدم استراتيجيته العامة. ولم يكن «الفرس» أو «البيزنطيون» يعاملون الدولتين العربيتين على أنهما دولتان مستقلتان كاملتا السيادة بل «مشيختان مواليتان» شبه خاضعتين لهما، تكمن أهميتهما في حماية الصحراء المترامية الممتدة على



خريطة للجزيرة العربية وما حولها في القرن السادس للميلاد.⁵⁹

طول خاصرتي الدولتين المتنافستين، وفق ما يقوله العسكري المخضرم مؤسس الجيش الأردني «Sir John Glubb السير جون غلوب» في كتابه الموسوم «مختصر تاريخ الشعوب العربية» الذي ضمّنه خلاصة دراساته وبحوثه وتجاربه في المنطقة العربية.⁶⁰ فقد كان ملوك الغساسنة والمناذرة يتوددون إلى أباطرة الروم والفرس، ويسعون لكسب رضاهم للحفاظ على عروشهم. وهذا يعني أن دولتي الغساسنة والمناذرة لم تكونا سوى امتداد لنفوذ القوتين العظميين المتنافستين آنذاك.⁶¹

ولما كانت مملكتا الغساسنة والمناذرة تدوران في فلكي امبراطوريتي «الفرس» و«الروم» المتناطحيتين على الدوام، فقد ارتدت خلافات «الفرس» و«الروم» إلى ديار هاتين المملكتين، وأدت مع تقادم الزمن إلى تعمق الخلافات، وإلى تصلب المواقف المتعاكسة، وبالتالي إلى نشوب المواجهات المسلحة بينهما. فقد وجد العرب الزاحفون من الجنوب أنفسهم على الدوام منحصرين في قلب دائرة الصراع «الفارسي» «الروماني»، ومحشورين رغماً عنهم في الحرب الطويلة التي دارت رحاها بين المعسكرين المتنافسين. ويمكن القول عمومياً أن المعارك التي خاضها الغساسنة والمناذرة كانت أقرب ما يكون إلى ما يعرف اليوم بمسمى «الحرب بالوكالة»⁶². وهكذا وبسبب الأوضاع المتأزمة بين الأخوة الأعداء واندلاع الحرب بينهم لفترات طويلة كان لا بد لكل فريق أن يتسلح بالمعرفة الدقيقة لخبايا الخصم، ويقف على حجم أسلحته وعدد مقاتليه ونقاط ضعفه وقوته وطرق إمداداته وكل ما يتصل بتحركاته ونواياه. ولذلك فإن التجسس وعمليات الرصد والمراقبة المستمرة كانت قائمة على قدم وساق طوال فترات النزاع المستفحل بينهما.

وعلى الرغم من أن العلاقات العسكرية بين «الفرس» و«المناذرة» من

جهة وبين «الروم» وجيرانهم «الغساسنة» من جهة أخرى كانت وثيقة جداً، فليس هناك في الوثائق والمدونات التاريخية ما يشير إلى وجود تعاون أمني أو استخباري يذكر بين الامبراطوريتين الراعيتين وحليفتهما في الحيرة وبصرى الشام. بيد أن هناك الكثير من الإشارات والمخطوطات التاريخية التي توثق الأنشطة التجسسية التي كانت تدور في أراضي المناذرة والغساسنة.

ومن أقدم الإشارات إلى الأعمال التجسسية ما هو مثبت في كتاب «الأغاني» الذي جمعه وصنفه «أبو الفرج الأصفهاني» (284هـ/897م 14- 356 هـ / 967) الذي أشار في بعض صفحاته إلى واجبات «العيون» والمكلفين بالعمل السري قائلاً: إن أهم عمل يقوم به العين، أو العميل السري، هو توفير الحماية الشخصية للملوك وعلية القوم وأسرههم.⁶³ ويذكر «الأصفهاني» في هذا السياق حادثة مهمة تمكن فيها أحد عيون «المناذرة» من إنقاذ حياة «النعمان بن المنذر» (582-610)⁶⁴ الذي يعد أشهر ملوك دولة المناذرة. يقول «الأصفهاني» أن أحد العيون أبلغ سيده أن هناك من يتربص بملك المناذرة لقتله، وأشار هذا العين على «النعمان» أن يلتزم الحذر ويبعث برجاله للإمساك بالعميل الذي دخل أرض المناذرة خلصة. وبفضل هذه المعلومة الاستخبارية المهمة، أمر «النعمان» رجاله في الحال بالبحث عن الرجل وتعقبه. وبالفعل تم الإمساك به وهو يعد العدة لبلوغ مرامه. وقد قضى رجال النعمان عليه قبل أن يتمكن من تنفيذ مخططه.⁶⁵

ومما يذكر في هذا السياق ما يورده «الأصفهاني» حول الملك «الحارث بن مارية الغساني الجفني» الذي كان لديه نديم يدعى «زهير بن جناب الكلبي». وكان الملك يجالس «زهيراً» هذا ويستأنس برفقته، حتى وفد إلى بلاط الملك شخصان من «بني نهد» هما «حزن» و «سهل» ابنا «رازح»، وكان

لهما نصيب وافر من الأدب العربي، وأيام العرب وتاريخهم. فاستحسنهما الملك وابقاهما لديه يجالسانه، فغار منهما «زهير» لأخذهما موضعه عند الملك، فدبر لهما مكيمة للتخلص منهما، واتهمهما بأنهما من عيون «ذي القرنين» ويعني بذلك «المنذر الأكبر» جد «النعمان بن المنذر»، وأنهما قدما للتجسس على الملك وكانا طوال الوقت يكتبان «النعمان» ويبلغانه بما يحصلان عليه من معلومات. فلم يسمع الحارث منه في بادئ الأمر حتى أوغر بذلك صدره، فبعث لهما ناقية وركباها مردفين ثم قتلهم، وتبين للملك بعد ذلك بطلان كلام زهير، فعاقبه بطرده إلى بلاده، ثم قدم «رازح» أبو الغلامين إلى الملك، وكان ذا علم وحضور، فأكرمه ودفع له ديتهما. وعندما علم «زهير» بذلك دعى ابنا له وطلب منه الذهاب إلى الملك، ويّين له أن عليه ذم والده عند الملك للتقرب منه. وعندما وصل ابنه إلى بلاد الشام تطف حتى دخل إلى الملك، وكان فصيحاً فأعجب به، وعندما سأله عن اسمه قال «عامر بن زهير بن جناب»، فغضب منه الملك ونعت أباه بالغادر الكذوب، فرد عليه «عمير» موافقاً الملك على ما قال في أبيه، ثم كشف عن ظهره وبه آثار ضرب، وقال انظر ما فعل بي، فقنع به وقبله في ندمائه. وأثناء الحديث معه ذات يوم قال «عمير» للملك والله لقد نصحك والدي ولكن لم تأخذ بمشورته، وتركه أياماً ثم عاد إليه وقال أيها الملك ما رأيك بحية قطع ذيلها وبقي رأسها؟ قال ذلك أبوك وما فعله بالغلامين. قال لا والله إنه «رازح» الذي يعتزم الثأر لهما. قال وما دليلك على ذلك؟ قال اسقه خمراً ثم ابعث معه عيناً يأتيك بما يجول بخاطره. ففعل ذلك الملك ولما انتشى أخذته بنت له إلى مكانه، وبعث الملك عليه عيوناً ترصده. وعند دخوله إلى مكانه سئدته ابنته، فقال:

دعيني سنّادك إن حزناً	وسهلاً ليس بعدهما رقود
ألا تسليني عن شبلي ماذا	أصابهما إذا اهترش الأسود
فإني لو ثارت المرء حزناً	وسهلاً قد بدا لك ما أريد

وعادت العيون إلى الملك وأبلغوه بما قال النهدي «رازح»، فأمر بقتله وأعاد «زهيراً» إلى منادمتة.⁶⁶

وتشير الوثائق والمدونات العربية القديمة إلى أن القحطانيين في جنوب الجزيرة العربية سبقوا العرب جميعاً في استخدامهم للعمل الاستخباري وتطويره. وقد وردت في بعض النصوص المنقوشة في القرن الثاني قبل الميلاد إشارات واضحة إلى هذا النشاط الذي كان، رغم أساليبه وخططه البدائية، منظماً ودقيقاً في توصيف العمل وتحديد الوسائل والأهداف. وبينت إحدى الدراسات الحديثة التي تناولت النقوش العربية القديمة أن هناك نسبة كبيرة من الجيوش القحطانية كانت مكلفة بمهام محددة لها صلة وثيقة بالاستخبارات. ويوضح المستشرق البريطاني «Alfred Beeston»، ألفرد بيستن» الذي كرس معظم مؤلفاته لدراسة أحوال اليمن، وتاريخ جنوب الجزيرة العربية، أن عشرة بالمائة من المقاتلين كانوا مكلفين بهذه المهمات الاستخبارية، التي شملت الاستطلاع، والاستكشاف، والتعقب، والمناوشة. ويشير «بيستن» في كتابه الموسوم «الحروب في جنوب الجزيرة العربية القديمة» أن القحطانيين أضافوا إلى تنظيماتهم الاستخبارية بعض البدو، والمرتزقة، لتنفيذ مهام تجسسية، على الرغم من أن الزعامات القحطانية أو الذين كانوا يديرون مهام البدو والمرتزقة لم يكونوا يتقنون تماماً بالمعلومات التي تصلهم عن هذه المصادر إلا بعد تمحيص وتدقيق شديدين، ذلك أن هذا النفر من المخبرين كان موضع شك وريبة على الدوام.⁶⁷

وبخلاف أهل مكة والمدينة الذين كانوا يمارسون أعمال التجارة، ويكسبون قوت يومهم من الحرف اليدوية، والأعمال الحرة، والزراعة، ونحوها، فإن معظم سكان الجزيرة العربية كانوا بدوا رُحَلاً، يتنقلون من

مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والكلاً. وكانت الأعراف العشائرية العامة التي تحكم العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء البدو تقوم على مبدأ الولاء التام لقائد القبيلة أو العشيرة. وهكذا عاش هؤلاء البدو، الذين كانوا يمتهنون تربية الجمال والأغنام والماعز، حياة «شبه منعزلة عن بقية العالم.... وفي حالة من الاحتراب الدائم».⁶⁸ وقد أنتجت تلك الحياة البدوية القاسية والطبيعة الصحراوية التي لا ترحم ثقافة خاصة، تستجيب لمتطلبات البيئة وظروفها، وخلقت من البدوي إنساناً غليظاً شديد القسوة على وفق المقولة المعروفة عن «ابن خلدون» وذلك بسبب صراعه الدائم مع محيطه الخشن، وسعيه لتأمين لقمة العيش لنفسه.

وفي إطار التنافس على البقاء والسيطرة كانت القبائل الأقوى كثيراً ما تلجأ إلى الإغارة وشنّ الغزوات على سواها من القبائل الأخرى كي تظفر بما يسد احتياجاتها من الماء والطعام والكلاً. ولم تكن هذه الغزوات سوى لون من ألوان اللصوصية أو السطو المسلح على أملاك الغير بكل المقاييس المدنية والاخلاقية والدينية، لكن هذه الغزوات باتت منذ أقدم الأزمان أسلوباً متبعاً لتأمين متطلبات الحياة الصحراوية، بل أصبحت من المسلمات التي كانت تستدعيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية لتلك الحياة الصحراوية القاسية، بحيث باتت جزءاً عضوياً يكمن في صميم الدستور البدوي، ويرتبط بعصب الهيكل الاقتصادي للمجتمع البدوي الرعوي. وهكذا ترسخت نزعة مستحكمة يطلق عليها عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي مسمى نزعة «التغالب» في ثنايا عقول البدو وضمايرهم إلى الحد الذي كان الغزو لديهم يعد من أبرز خصال الرجولة والشجاعة ومدعاة للفخر والزهو. ولم يتورع البدو من الإغارة على جيرانهم، أو حتى على أبناء عموماتهم إن اقتضى الحال، فثقافة الصحراء التي نشأت في ظل الاحتراب الدائم، والتنافس الشديد على الموارد الطبيعية الشحيحة كانت تبيح هذا

المنحى، ولا تجد في ذلك أي حرج أو عائق أخلاقي أو اجتماعي.⁶⁹ وللحصول على المغنم فقد كان بعض أصحاب الغارات يمعنون في الغارة، فيبتعدون عن منازلهم. ويعدّون «بُعد الغارة» نوعاً من أنواع الشجاعة والفروسية، لما تكتنف المغير من أخطار ومهالك.⁷⁰

ومن أهم أسباب الغارات التي كانت القبائل القوية تشنها على القبائل الأضعف هو التنافس على موارد الماء، ومنابت الكلاً، والاستئثار بهما، وسلب العدو، ونهب ما يستطيع منه بقوة السلاح. وما إن تتغير الظروف والأحوال أو يشتد ساعد القبيلة الأضعف حتى تراها ساعية لأخذ الثأر، ورد الاعتبار لنفسها عن طريق المقابلة بالمثل، والإغارة على من سبق أن اعتدى عليها. وهكذا فقد كانت حياة البدو تدور في دوامة أبدية هي دوامة الانتقام والأخذ بالثأر.⁷¹ وإذا توخينا الدقة في الحديث فإنه لا يمكن اعتبار هذه المواجهات المسلحة رغم طول أمدّها بأنها حروب حقيقية، بل كانت أقرب إلى المداهمات أو الهجمات التي قد يتراوح عدد المساهمين في أغلبها بين العشرين والمئة.⁷²

وإلى جانب هذه الصدامات القبيلة، كانت الغارات تكثر أيضاً على قوافل التجارة والحجاج والمسافرين، حيث كان المتربصون ينقضّون عليهم في الصحاري القفار خارج المدن. وشاعت هذه الهجمات كثيراً حتى أن لفظة عربية جديدة هي «الصعلوك»، أخذت تُطلق على الذي يشترك في مثل هذه «الغارات» التي أسهم فيها العديد من الشعراء الكبار أيضاً من أمثال «عروة بن الورد»، و «الشنفرى» صاحب لامية العرب، و «عمرو بن بركة»، و «ثابت بن جابر القيسي» الذي اشتهر بمسمى «تأبط شراً». وقد قتل الأخير في إحدى الغزوات التي شارك فيها. على أن الغزوات التي انخرط فيها هذا الرهط من الشعراء، ولم تكن كلها لأغراض السلب أو النهب، أو

الأخذ بالثار، بل كانت في جانب منها لإعانة الفقراء والمعوزين. وكثيراً ما كان هؤلاء يتفاخرون في أشعارهم بمغامراتهم هذه التي شهدت استعمال «الكشافة والجواسيس».⁷³

وعلى الرغم من أن الهجمات المسلحة في الجزيرة العربية القديمة لم تكن حروباً شاملة، بل غارات مفاجئة، وكما نرى، وكرّ وفرّ، فإن الاستكشاف وجمع الاستخبارات كان جزءاً لا يتجزأ من هذه الاشتباكات والمواجهات. ومن هنا يكتسب العمل الاستخباري المحدد الذي ينهض به «الريثة» أو سواه أهمية بالغة في هذه العمليات القتالية. فقبل انطلاق أي هجوم، كانت القبيلة أو الزمرة المهاجمة تستدعي ربيّة أو أكثر لاستطلاع المنطقة والاستعلام عن أية أحداث غير معتادة أو تحركات غير معهودة وذلك للتثبت من أن العدو ليس لديه علم بالنوايا المبيتة ضده. وأخشى ما كان المهاجمون يخشونه هو أن تكتشفهم القبائل المعادية، وحينذاك يخسروا عنصر المباغته الذي يعد عاملاً حاسماً في عمليات الانقضاض. وكان «الكشافة» أو «الريثة» إذا ما وقع في الأسر يتعرض لعقاب أليم على يد من يقبضون عليه. لا غرابة إذاً أن نجد الشاعر «أوس بن حجر» يصف الريثة بأنه «يعيش في خوف دائم وعطش لا ينتهي. بل إنهم من شدة خوفهم من انبلاج النور، إذا ظهرت الشمس، تجدهم يتجهون صوباً آخر».⁷⁴

ويزخر التاريخ الأدبي لجزيرة العرب بذكر الوقائع والحروب العديدة التي اندلعت بين مختلف القبائل التي كانت تتفاخر بشجاعة أبنائها، وتتغنى بإنجازاتها القتالية في قصائد طويلة نُقلت من جيل إلى جيل. وكانت قصائد الفخر والحماسة هذه تلقى في مناسبات واحتفالات عامة تقام في العادة مع ولائم خاصة وفي أيام أسواقهم. وكان الشعراء والتجار والصناع حريصين على حضور هذه المناسبات الدورية لأنها توفر للحاضرين من كل قبيلة

فرصة سانحة للتفاخر، والتناشد، والتغني بأمجاد الحاضر والماضي، سواء أكانت هذه الأمجاد حقائق واقعة، أم ماثلة فقط في أذهان قائلها. ويعتبر سوق عكاظ⁷⁵ الأهم بين هذه الأسواق الموسمية من حيث عدد الحضور، وتنوع الفعاليات. ومما زاد في شهرة هذه السوق حدة السجلات الشعرية المستديمة بين الشعارين المتنافسين جرير والفرزدق. ولا تزال قصائد هذين الشعارين - وهما من فحول الشعراء العرب - تلقى رواجاً عظيماً بين قراء اليوم الذين تستطيب ذائقتهم الشعرية خيالهما الخصب، واستهانتهما بالصعاب، وروح التهكم والسخرية الجارحة التي طبعت معظم أشعارهما.⁷⁶ وعلى أية حال فقد وردت في القصائد - التي كانت تلقى في الأسواق سابقة الذكر - إشارات واضحة إلى وجود استخدام واسع النطاق «للعميل السري» و«الجاسوس» و«الريئة».

ومن بين الحروب التي خلدها هذه المباريات الأدبية الحماسية، «حرب داحس والغبراء» التي وقعت بين قبيلتي «عبس وذبيان» بسبب الاختلاف حول نتيجة سباق كان جرى بين مُهرين لهما. «فداحس والغبراء» انتهى بهما السباق دون أن تحرز أي من الفرسين قصب السبق فيه، إذا أنهما وصلا خط النهاية ولا يكاد يفصل بينهما شيء. وقد زعمت كل قبيلة من القبيلتين فوز فرسها. واحتدم الخلاف بين القبيلتين فلجأت كل منهما إلى السلاح لتسوية الأمر. وقد قتل في المواجهة الأولى «زعيم غطفان»، فأثار موته معارك ثأرية بين القبيلتين طالَت كثيراً من النفوس. ودامت المواجهات المسلحة سنوات طويلاً حتى باتت تعرف عند العرب «بأيام مضر».⁷⁷

ولضمان النصر على الخصم، كانت كل قبيلة تلجأ إلى استخدام «التجسس» وفنونه. فإلى جانب «العيون» المتخصصة، كان أفراد القبيلة يستعينون أحياناً بالمخبرين المؤقتين. ومن ذلك أن العرب في «أيام ربيعة»،

التي تعرف باسم «حرب البسوس» (494-534) التي وقعت بين قبيلتي «تغلب» و«بكر»، كانوا يجندون من يقوم بجمع الأخبار لهم. وعن ذلك يقول «الأصفهاني» في معجمه الضخم أن كل قبيلة كانت تجهد حتى تعثر وتكشف الجواسيس المندسين وسطها. ويذكر كذلك كيف أن عيوثاً من «بكر بن وائل» تمكنوا من اختراق صفوف «كعب بن ربيعة» أثناء «حرب فلج».⁷⁸ وكانت القبائل المتطاحنة في ذلك الحين تستخدم ما يمكن تسميته اليوم بنظام «إنذار مبكر». ومن البديهي أن يكون ذاك النظام بدائياً جداً بالمقاييس المعاصرة، لكنه كان فعالاً ومستوفياً لمتطلباتهم الأمنية آنذاك. فقد كانت القبائل تستعين بأساليب مختلفة للتواصل فيما بينها، ولإرسال إشارات التحذير أيام الحروب أو الأزمات والغارات. ومن الطرائق المألوفة للاتصال السريع في تلك الأيام أنهم لجأوا إلى إشعال سلاسل من النيران ليلاً كوسيلة للاتصال أثناء الأزمات والطوارئ، أما في النهار فكانوا يستخدمون الدخان وأصوات الطبول لبعث رسائل عاجلة، أو توجيه تحذيرات محددة، أو كإشارة لطلب النجدة، أو لإرشاد التائهين، وتحديد المواقع في الصحارى والبراري. ولأن الطبول كانت تطرق أسمع الجميع من الأصدقاء والأعداء، ولأن إشارات الدخان يراها كل ذي بصر، فإنه كان لابد من تشفير الإشارات المرسلة عبرهما، وعلى نحو لا يفهمه إلا المرسل والمرسل إليه حصراً. وحتى يتم ذلك، كان لابد من تحديد معنى خاص لكل إشارة مسبقاً يفك تشفيرها كل من المرسل والمتلقي للعمل بموجبها.

ومن الأمثلة المبكرة على استخدام هذا النوع من الاتصالات ما ذكره «ابن كثير» (1160-1241)، في وصفه لحرب خزار (سنة 450) حيث أرسل فيها زعيم «قبيلة معاد» «سلمة بن خالد» أحد العيون لاستطلاع تحركات واستعدادات خصومه من «قبيلة مدهج»، الذين كانوا يتقدمون نحو معاقله. وقد أمر ذلك «العين» بأن يشعل نيراناً في موقعين مختلفين عندما

يصل الأعداء إلى مكان يسمى «مدهج» لتحديد وقت وصولهم لذلك الموقع. وبهذه الطريقة تمكن «سلمة بن خالد» أن يحبط مخطط خصومه، ويفسد عنصر المباغته التي كانت غارة الخصوم تعتمد عليها. فحين وصل رجال مدهج المكان المستهدف وجدوا رجال «سلمة بن خالد» فيه، وفوجئوا بأن عدوهم كان مستعداً وجاهزاً لصد هجومهم الذي تكلل بالفشل الذريع.⁷⁹ ويشير «ابن كثير» أيضاً إلى أن الزعيمين «ضالع بن عبد غنام» و «سدوس شيبان» أرسلوا في «حرب بردان» عيوناً لهما ليتجسسوا على جيش خصمهما «زياد بن الحبولة»، بهدف التعرف على مدى جاهزية رجاله لخوض الحرب.⁸⁰

وتزخر أيام العرب بأمثلة وفيرة ومتنوعة من هذا الأسلوب في التجسس، ومن ذلك نذكر أن «عمير بن حباب السلمي» أغار في «يوم الغوير» على «كلب»، بعد أن أرسل عيناً له من «بني نمير» اسمه «كليب بن سلمة»، ليعرف مكان ابن بحدل، والتقى الجمعان، وقتل من «كلب» عدد ليس بقليل، وأفلت منهم «حميد بن بحدل». وفي «يوم دهمان» أغار «عمير بن عمير» على قوم «ابن بحدل»، فقتل الرجال، وساق الغنائم، وسبى النساء، وعندما علم «ابن بحدل» بذلك قرر أن يتعرض له، وأن يخرج من الجزيرة العربية هو ومن معه، فخرج في أثره حتى اقترب منه، ثم بعث عيناً له تتبع أثره، فعاد إليه مبلغاً بأن «عميراً» قد أغار على «دهمان»، وقتل فيهم، وغنمهم، ثم مركز عسكره، وخرج إلى قوم آخرين قد سمع بهم، فقرر «حميد» مداهمتهم عند مبيتهم. وهجم عليهم في مبيتهم فقتل منهم الكثير، وعندما عاد «عمير» إلى عسكره رأى قومه صرعى، فحمل عليه «ابن بحدل»، والتحما حتى قتل من الفريقين أعداد كثيرة.⁸¹

وكما تقدم من إيضاح الدور الفعال الذي لعبته «العيون والطلائع» في تحقيق الانتصارات خلال الأيام المشهودة في حروب ما يسمى بأيام العرب،

ومنها تلك المعارك التي نشبت مع جيوش الإمبراطورية الفارسية آنذاك،⁸² ولا سيما حرب «يوم ذي قار»، والذي سجل فيها العرب انتصاراً مؤزراً على جيش كسرى وألحقوا بهم شر هزيمة، وذلك قبل ظهور الإسلام وفتح المسلمين «بلاد فارس».

وقد سطر فيها العين «لقيط بن يعمر الإيادي»⁸³ مدى تفانيه ومخاطرته بحياته في سبيل حماية قبائل العرب. فبالرغم من اختلاف المصادر التاريخية في أسباب وزمن نشوب نزاع معركة ذي قار،⁸⁴ فإن ما يهمنا هو كيف تمكن ذلك الشاعر من اختراق ديوان كسرى والعمل فيه، دون أن يثير الشك والريبة، ويبدو أنه لم يتهياً له ذلك بمجرد صدفة أو حظ؛ بل كان نتيجة تخطيط دقيق وظف فيه مهاراته بإجاده القراءة والكتابة للفارسية، كغطاء عميق للتجسس. لقد مارس أعمال الكتابة والترجمة في ديوان كسرى حتى أصبح في مقدمة تراجمته، ومن المطلعين على أسراره،⁸⁵ مما مكّنه من التغلغل في أروقة الديوان ورصد ما يحاك ضد أبناء عشيرته، بعد أن كثرت المناوشات والغارات بينهم وبين فارس، ومن ذلك أن العرب "أغاروا على أموال لـ"أنوشروان" فغنموها، فجهز إليهم الجيوش، فهزّمهم العرب مرة بعد مرة"⁸⁶، رغم ما كانت تتمتع به «فارس» من عنفوان مجدها، وأوج قوتها، وسيطرتها على أرض العراق.

ويبدو أن الشاعر «لقيط الإيادي» استطاع أن يتعرف على دوائر صناعة القرار من خلال طبيعة عمله بالديوان الفارسي، فأصبح على علم بخطط جيش كسرى⁸⁷، واستعداداته للهجوم على القبائل العربية المتاخمة لبلاده، وخاصة قبيلة بني إياد⁸⁸، فكان يبعث لهم تقاريره في قصائد سرية مكتوبة توضح نوايا وتحركات الفرس عندهم. فقصيدته الدالية التي لم تتجاوز أربعة أبيات، والتي كان قد بعثها لقومه، لينذرهم عن خطورة الموقف مع

جيش فارس ومبيناً بها تعداد جيش كسرى الغازي، ودوافعه وأهدافه، لعلها تنافس في الإيجاز وشمول المعلومات، ما تتصف به أدق «تقارير الموقف الاستخباري»، حين يقول فيها:

"سلام في الصحيفة من لقيط

إلى من بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم

فلا يشغلُكم وسوق النّقاد

أتاكم منهم وستون ألفاً

يزجّون الكتائب كالجراد

على حنق أتينكم وهذا

أوان هلاككم كهلاك عاد"⁸⁹

لم تكن تلك القصيدة الدالية هي الوحيدة التي أوردتها المصادر التراثية القديمة لهذا الشاعر، بل للشاعر قصيدة عينية خاطب فيها عشيرته «بني إياد» عامة وساداتهم خاصة، محذرهم فيها من وشك وقوع هجوم فارسي يستأصلهم عن بكرة أبيهم. ولم يكتف «لقيط» -عين بني إياد وشاعرهم- بإنذار قبيلته وبيان تعداد العدو وعدته، بل أخذ يسدي لهم والنصائح مبيناً كيف تتم هزيمة العدو، فوظف درايته بأمور القيادة والزعامة، -كونه من ساداتهم- للدعوة بالتسلح الجيد بالجياد والسيوف والنبال والنشب، وأوصى بالتأهب مع إذكاء العيون؛ لرصد قدوم العدو وتحركاته، فلربما وقعوا على مكن خلل يُمكنهم من إلحاق الهزيمة بالفرس، ومن أبياته في ذلك:

بل أيُّها الراكبُ المزجّي على عَجَلٍ

نحو الجزيرة مُرتاداً ومُنْتَجِعاً

أبلغ إياداً، وخليلاً في سُرَاتِهِمُو

إنني أرى الرأْيَ إن لَمْ أعصَ قد نصَعَا

أَلَا تَخَافُونَ قَوْمًا لَا أَبَا لَكُمْ
 أَمْسُوا إِلَيْكُمْ كَأَمْثَالِ الدِّبَا سُرْعَا
 أَبْنَاءَ قَوْمٍ تَأْوُوكُمْ عَلَى حَنْقٍ
 لَا يَشْعُرُونَ أَضَرَّ اللَّهُ أَمْ نَفَعَا
 فَهُمْ سِرَاعٌ إِلَيْكُمْ، بَيْنَ مَلْتَقِطٍ
 شَوْكًا وَآخِرَ يَجْنِي الصَّابَ وَالسَّلْعَا
 فِي كُلِّ يَوْمٍ يَسْتَنُّونَ الْحَرَابَ لَكُمْ
 لَا يَهْجَعُونَ، إِذَا مَا غَافِلٌ هَجَعَا
 لَا الْحَرْثُ يَشْغَلُهُمْ بَلْ لَا يَرُونَ لَهُمْ
 مِنْ دُونِ بِيضَتِكُمْ رِيًّا وَلَا شِبَعَا
 مَالِي أَرَاكُمْ نِيَامًا فِي بُلْهَنِيَّةٍ
 وَقَدْ تَرُونَ شِهَابَ الْحَرْبِ قَدْ سَطَعَا
 صَوْنُوا جِيَادَكُمْ وَاجْلُوا سِيُوفَكُمْ
 وَجَدُّوا لِلْقَسِيِّ النَّبْلَ وَالشَّرْعَا
 أَذَكُوا الْعُيُونَ وَرَاءَ السَّرْحِ وَاخْتَرِسُوا
 حَتَّى تُرَى الْخَيْلُ مِنْ تَعْدَائِهَا رُجْعَا
 فَإِنْ غَلِبْتُمْ عَلَى حِينٍ بِدَارِكُمْ
 فَقَدْ لَقِيتُمْ بِأَمْرِ حَازِمٍ فَزَعَا
 لَا تُلْهِكُمْ إِبِلٌ لَيْسَتْ لَكُمْ إِبِلٌ
 إِنَّ الْعَدُوَّ بِعَظْمٍ مِنْكُمْ قَرَعَا
 هِيَهَاتَ لَا مَالَ مِنْ زَرْعٍ وَلَا إِبِلٍ
 يُرْجَى لَغَابِرِكُمْ إِنْ أَنْفَكُمْ جُدْعَا
 يَا قَوْمُ إِنَّ لَكُمْ مِنْ عِزٍّ أَوْلَكُمْ
 إِرْثًا، قَدْ أَشْفَقْتُ أَنْ يُودِيَ فَيَنْقُطَعَا

وما يَرُدُّ عليكم عِزُّ أولَكم
أن ضاعَ آخِرُهُ، أو ذلَّ فاتحُنا
قوموا قياماً على أمشاطِ أَرْجُلِكُمْ
ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ مَنْ فَرِعا
فقلِّدُوا أَمْرَكُمْ لله درِّكمُ
رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضْطَلِعا
مستنجداً يتَّحدَّى الناسَ كلُّهُمُ
لوقارِعِ الناسِ عن أحسابِهِمْ قَرِعا
هذا كتابي إليكم والنذيرُ لَكُمْ
لمن رأى رأْيَهُ منكم وَمَنْ سَمِعَا⁹⁰

وعلى الرغم من أن هذا الشاعر الجاهلي الفحل كان مُقِلًّا -حسب وصف
النقاد له- لقلة ما روي من أشعاره في المصادر القديمة، إلا أنه قد يكون
الأمر خلاف ذلك، فلربما كانت قصائده التي لم يتناقلها الرواة ذات محتوى
خطر، قد يفصح عن حقيقة هوية قائلها، فينكشف أمره للعدو الفارسي. لهذا
بقيت أشعاره متداولة بين سادات عشيرته في طي من السرية والكتمان، مما
حال دون وصول الرواة لها للاطلاع عليها ونقلها، ماعدا هاتين القصيدتين
اللتين ما إن ذاع صيتهما حتى لقي لقيط منيته.⁹¹

وعلى الرغم من أن معظم العمليات الاستخبارية التي كانت تنفذ خلال
العصور الأولى لم تسجل أو توثق على نحو كامل وتفصيلي، فقد وردت
في ما خلفه لنا المؤرخون والشعراء والخطباء من مخطوطات ومحفوظات
وآثار أدبية إشارات كثيرة إلى النشاطات السرية التي كانت معهودة في
حروب ذلك الزمن ومعاركه. فأيام العرب كانت جزءاً لا يتجزأ من ثقافتهم
العامة التي يستمدون منها عاداتهم وتقاليدهم الحربية ومعانيهم، أو يشيدون

ويتغنون ببعض ما جرى فيها من أحداث. على أن من يتمتع في قراءة النصوص التاريخية التي أوردوها سيكتشف أن هذه الإشارات كثيراً ما تكون ضبابية، ومغلقة بإطار من العموميات التي تفتقر إلى دقة الإحالة والإسناد. ولربما كان ذلك في بعض الأحيان أمراً مقصوداً الغرض منه إخفاء مصدر المعلومة. فالكشف عن المصدر قد يسبب بعض الحرج أو يستجلب عواقب ليست في الحسبان.

وهكذا فإن العديد من الروايات التاريخية تستهل بعبارات تبدو مكررة ومألوفة أو حتى مجتررة. فنقرأ مثل: "وصل إلى علم فلان أو فلان أن..."، أو "أن عينا قال لفلان أو فلان أن..."، أو "فأرسل زعيم إحدى القبائل أو قائدها العسكري مثلاً ربيئة أو طليعة إلى..." أو "استعملوا عينا حتى يعرفوا عن...". وتزخر المدونات التراثية التي أنحدرت إلينا من بطون تاريخنا العربي، لاسيما تلك التي تتناول أيام العرب، بمثل هذه العبارات ذات المدلولات العامة غير المحددة.

وإذا ما عدنا إلى التاريخ البعيد لنشأة العمل الاستخباري العربي، فإنه لا بد من الإقرار أن ندرة الروايات المفصلة عن الأنشطة السرية رغم كثرتها تجعل من الصعب أن يكون الحديث وافيًا، أو دقيقاً عن الغطاء الذي كان العرب الأوائل يستخدمونه، أو عن أساليب تجنيد العملاء السريين، أو عن غير ذلك من المهارات والفنون الاستخبارية. على أن التجسس والتعقب والتجميع السري للمعلومات وما إلى ذلك لم تكن الوسائل الوحيدة التي لجأ إليها العرب الأوائل عندما كانوا يحاولون فك غموض المجهول، أو استشراف المستقبل، أو الوقوف على نوايا خصومهم ومخططاتهم. فخلال الأزمنة التي سبقت فجر الإسلام كانت المجتمعات البدوية، على اختلاف أديانها وعقائدها، تمارس التنجيم، والعرافة، والكهانة، والسحر، وما إلى ذلك

من أوهام. وهكذا فإن كثيراً من حروب العصور الغابرة لم تكن لتقع دون مباركة المتطيرين والمنجمين والكهنة لها.

وكان العرب القدامى على وفق ما توردته الروايات التاريخية يكتنون احتراماً كبيراً لرؤسائهم، وزعماء قبائلهم، وعشائريهم، لا سيما إن كان هؤلاء من الأقوياء الأصحاء ذوي الخبرة والدهاء، وأصحاب العلم القادرين على تجنيب أتباعهم ومريديهم كوارث الحروب ومآسيها. على أن تعزيز الموقع القيادي والاعتباري لأي زعيم كان لا بد أن يستند إلى عدة مقومات وعناصر لا غنى عنها، أبرزها الشجاعة والحزم والحكمة والرأي السديد. يقول أبو الطيب:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

ولكي يكون للقادة والزعماء رأي متنور، وبصيرة ثابتة تمكنهم من معرفة خبايا الآخرين، ونواياهم، كان لازماً عليهم -من بين أمور أخرى- الاستعانة بالمخبرين والعملاء السريين كي يتحصنوا بالمعلومات التي تردهم، ويتمكنوا من ضبط جاهزيتهم لكل طارئ غير منظور، ويكونوا مستعدين للتعاطي مع أية مستجدات غير مرغوبة، لا سيما على الصعيد العسكري. فالنصر لا يتحقق بالاعتماد على القوة وحدها، أو على النبوءات، وتخاريف الكهنة، والمنجمين. فحروب القبائل -سواء أكانت من أجل السطو، أو الانتقام، أو السيطرة- لا يمكن كسبها دون أن يتوفر عنصر المفاجأة. ولا يمكن تأمين عنصر المفاجأة دون متابعة استخبارية دقيقة للأهداف المراد مهاجمتها. وهكذا كان لكل قبيلة، على امتداد الجزيرة، «شبكة الاستخبارات الخاصة». ومن أجل أحكام الرقابة والمتابعة والتثبت مما يجري خارج القبيلة، أو حتى داخلها، فقد يكون للقبيلة الكبيرة أكثر من عين واحد يؤدون -على نحو متزامن- المهام الاستخباراتية نفسها، دون أن يفتن أحدهم إلى وجود سواه.

سبقت الإشارة إلى أن السجلات الأولى لحروب البدو في أواسط الجزيرة تحوي إشارات عديدة إلى العاملين في الحقل الاستخباري من أمثال ما أورده «أبو فرج الأصفهاني» في مسميات متعددة لهؤلاء «كالعين»⁹² و«الريئة»⁹³ و«الطليعة»⁹⁴ وغير ذلك. على أن أقدم ما وصل إلينا من مدونات ومخطوطات تاريخية يشير إلى أن معظم الذين كانوا ينهضون بالمهام الاستخبارية كانوا يؤدون مهمات تكتيكية وإن كانت بدائية في طبيعتها، وغير متطورة بالمقاييس المعاصرة. فأهم هدف كان القدمات يسعون إليه هو الاستطلاع والاستكشاف. وهنا تبرز أهمية الطلائع الذين كانوا يؤدون دوراً مهماً مشابهاً لذلك الدور الذي يؤديه من كانوا يعرفون بالإنجليزية بمسمى «Secret Scouts» أو «Heralds» أي «الكشاف السريون» أو «المتقدمون». وأبرز ما يقوم به الطليعة هو اختراق صفوف العدو لجمع ما يستطيع من معلومات تكتيكية تتعلق بالأهداف، والمواضع، والتحصينات، وطرق الإمدادات، وحالة الاستعداد لديهم، وطبيعة الأرض، وحجم التموين، ومصادر الماء، وعدد ما يمتلكونه من الجمال والخيول والأنعام عموماً، أي السعي إلى استكشاف نقاط القوة والضعف لديهم.

وكانت «الطليعة» تتمتع بكثير من الاحترام لأنه ينتمي إلى مجموعة من صفوة المقاتلين، أو ما يطلق عليهم بالنخبة الذين يتمتعون بالكثير من الامتيازات المهنية، أهمها أنهم كانوا ينفذون مهماتهم على نحو شبه مستقل عن بقية المقاتلين، ويرتبطون مباشرة بقائد الجيش. وكانت أفضل خصالهم سرعة الحركة، وثقابة البصر، ولم يكن مطلوباً منهم أن يتقنوا مهارات الفروسية والمبارزة. أما واجبات «الريئة» فيمكن تلخيصها بمراقبة تحركات العدو، والإخبار عن أية تطورات ميدانية إلى قادة الجيش. وكانت مراقبة العدو تتم عادة من مكان مرتفع، كالروابي والتلال، وفي أماكن يسهل التخفي فيها، ويمكن في الوقت نفسه مراقبة مواضع العدو عن بعد، دون أن

يتعرض إلى الانكشاف. ويقوم «الربيئة» بإرسال تقاريره إلى القادة من خلال واحدة من الوسائل المشار إليها سابقاً، كالطبول، أو النيران، أو الدخان، أو أية إشارة متفق عليها.⁹⁵

ومن أنواع «الربيئة» ما يطلق عليه «الندير العُريان»⁹⁶، وهو لقب قد يكون له وقع غريب على الأسماع، لكنه في الواقع مشتق مما كان يفعله هذا «الربيئة» عندما يجد نفسه أمام خطر داهم، ولا وقت لديه لإرسال تحذير عن طريق إشعال النيران أو الدخان إلى قاداته. وفي هذه الحالة كان هذا النذير يضطر إلى خلع ثيابه، وامتطاء فرسه، أو الإسراع وهو عريان إلى موضع مرتفع للتلويح بثيابه المخلوعة للمكلفين بمتابعة إشاراتِهِ. وكانت هذه إحدى الوسائل المبتكرة للتحذير من الأخطار الوشيكة⁹⁷ وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: "إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثّل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العُريان".⁹⁸

أما المعلومات المفصلة والتي لا يمكن الحصول عليها إلا بالتخطيط الدقيق، والاستعداد المضني، واختراق العدو والتغلغل خلف خطوطه، لمعرفة نوعية أسلحته، وفعاليتها وكمية عتاده الحربي، كعدد السيوف والدروع ونوعياتها، وحالة المقاتلين النفسية، ومدى ولائهم لقاداتهم، فكانت مثل هذه التفاصيل العسكرية يجمعها «العين»⁹⁹، أو «العميل السري» الذي كانت مهمته بالتالي تختلف عن مهمة «الربيئة». فالأخير كانت مهمته تقتصر على مراقبة ما يجري على الساحة ضمن إطار زمني محدد هو في الغالب الأعم زمن الحرب. أما مهمة «العين» فتتعدى نشاطاته زمن الحرب إلى ما هو أبعد من ذلك لتشمل استكشاف إمكانات العدو وتجهيزاته واستعداداته لخوض القتال، وبالتالي فلمهمته الاستخبارية صلة عضوية وثيقة بدرء المخاطر والحفاظ على أمن القبيلة.¹⁰⁰

وبغية تجنيد العاملين في الحقل الاستخباري في المجتمعات القبلية للجزيرة العربية قديماً، والتي كانت تتميز بعراها الوثيقة، كان الغرباء يثيرون الشكوك. من هنا كان الحصول على معلومات مفصلة عن أولئك الذين يفدون إلى مضارب القبيلة لأي غرض كان من التدابير الاستخبارية المألوفة. وكثيراً ما كان شيوخ القبائل يلجأون إلى استغلال علاقات القرى التي تجمع بين شخص أو أكثر مع أحد أفراد القبيلة المستهدفة. وتعد العلاقة العائلية من أفضل وسائل التغطية العميقة لأي عين يكلف باختراق تلك القبيلة. ذلك أن الأقرباء كان يُسمح لهم ما لا يُسمح لغيرهم من الحريات. أما المسافرون والضيوف والحجاج والتجار وعابرو السبيل، فلم يكونوا أحراراً في تنقلاتهم، أو اتصالاتهم، لذلك لم يكن جمع المعلومات من الأمور المتاحة، أو اليسيرة بالنسبة لهم.

ولضمان معرفة أهل القبيلة بالغرباء الذين يقدمون إليهم للزيارة أو التجارة أو العمل أو لأي غرض آخر فقد كانوا يוכלون مهمة مراقبة الغرباء لا سيما تحت جنح الظلام إلى فئة من العسس أو حراس الليل ويسمون «السهار»¹⁰¹ وهي صيغة المبالغة لاسم «ساهر» ومشتقة من الفعل «سهر»، والتسمية كما هو واضح تشير إلى من «يسهر» ويكون «يقظاً» و «متأهباً» خلال ساعات الليل. فكان هذا الساهر المتيقظ يتربص في الليل، وعادة ما يزاول مهمته السرية في الأماكن العامة والأسواق أو عند تقاطع الطرق أو أي من المواقع التي قد يرتادها الغرباء أو المشبهون.

وهناك فئة خاصة من العيون كانت مهمتها لا تختلف كثيراً عن المهمات التي تنهض بها اليوم الأجهزة المسؤولة عن الأمن الاقتصادي أو الغذائي. وتنحصر مهمة هؤلاء «العيون» بالبحث الدؤوب عن الكلاً والماء سواء داخل أراضي القبيلة أم على تخومها. وكان هؤلاء يعرفون بـ «الرواد»¹⁰²

الذين كانوا ينشطون في فترات القحط والجفاف.¹⁰³ ولا يخفى أن المعلومات الاستخبارية المتصلة بتوفر الماء ومنابت العشب المناسب للأغنام والمواشي كانت تنطوي على أهمية قصوى بالنسبة لسكان الجزيرة القاحلة. فشح المياه في الصحارى المترامية، والرغبة في السيطرة على الآبار كانا سبباً لوقوع الكثير من النزاعات والحروب عبر التاريخ. لذلك كان البحث الدائم عن مصادر الماء واستكشاف أراض جديدة للعشب من الضرورات التي يحتمها حب البقاء وديمومة الحياة التي تقتضي أن يظل البدو متنقلين على الدوام بحثاً عن أهم أسباب الحياة وهو الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي.

والى جانب ما تقدم فقد كان العيون الأوائل مكلفين أيضاً بمهمة خطيرة أخرى هي حماية القوافل وخطوط التجارة البرية، لا سيما طرق البخور واللبن وغيرها. فالحدود الجنوبية للجزيرة¹⁰⁴ والطرق الرئيسية الموصلة بين مستقرات القبائل، وكذلك الطرق الجانبية الممتدة بين مناطق القبائل والمراكز الحضرية، كانت جميعاً تحت مراقبة ثابتة من قبل هؤلاء الرواد من الاستخباريين الأوائل.¹⁰⁵ وكان استخدام العيون لحماية الطرق التجارية يعد في بعض الأحيان بمثابة التزام تعاقدى أو استجابة لمتطلبات العهود والمواثيق التي كانت تبرم بين «قريش» والعديد من القبائل التي كانت قوافلها الذاهبة إلى «مكة» أو المتجهة شمالاً تمر بيثرب التي سميت فيما بعد بالمدينة.

ولضمان مرور القوافل والمسافرين بسلام وأمان لا في المناطق القريبة من يثرب فحسب بل في جميع الأراضى والمسالك التي كانت قريش تهيمن عليها، كان القريشيون يتفنونون في استخدام الأساليب الاستخبارية، ويكثرون من نشر الكشافة والمخبرين والعسس في مناطق مختلفة من أرض الجزيرة،

لا سيما تلك التي تشهد أنشطة تجارية، أو تلك التي تتمتع بمواقع مهمة كمفترقات الطرق، أو لقربها من مصادر الماء. وكان الهدف من ذلك هو التثبت من امتثال القبائل الأخرى لبنود الاتفاقات المعقودة معها، ومراقبة الذين قد ينقضون ما ورد فيها، أو يتامرون على قريش، أو يحثون القبائل الأخرى على نقض العهود معها.

وكان الجواسيس الأوائل في الجزيرة يتلقون تدريبات قاسية جداً وفق المعايير المعاصرة. وتهدف هذه التدريبات إلى تعويد المرشحين للعمل الاستخباري على احتمال المصاعب البدنية والنفسية غير المتوقعة، وإلى اكتساب العديد من الفنون القتالية، والمهارات الحياتية في شتى المجالات. وتتخلص محصلة التدريبات في أنها كانت تهيئ رجال الاستخبارات للانغماس على نحو يسير وسريع في المجتمع الذي يستهدفون اختراقه. وكان التمويه والخداع والتنكر والتزيي بأزياء مختلفة يؤدي دوراً كبيراً في هذا الإطار. ومن فرط حماسة بعض العاملين في الحقل الاستخباري أنهم كانوا يتطوعون أحياناً للتنكر حتى لو كان ذلك يجر الكثير من الأذى والألم عليهم.

يورد الطبري في معرض حديثه عن بعض العملاء السريين، أنهم كانوا يتفانون في خدمة قبايلهم ويخضعون أنفسهم لعمليات جراحية بدائية مؤلمة لتغيير معالم وجوههم بهدف إخفاء هوياتهم، وخداع أعدائهم، ولكي يتمكنوا من أداء مهماتهم على نحو أسهل. ويشير الطبري إلى أن بعض تلك العمليات الجراحية كانت تجرى على الوجه، كأن يصار إلى تغيير شكل الأنف، أو حجم الإذن،¹⁰⁶ أو غير ذلك من العمليات التي كانت تنطوي على مخاطر بدنية ونفسية كبرى، ودون أن تكون المسكّنات أو التخدير العام أو الموضعي معروفاً آنذاك. ويتضمن تدريب العملاء الجدد على تعليمهم سبل الاندماج

والتماهي مع المجتمعات التي يعملون وسطها، مع كل ما يتطلبه هذا الأمر من الاحتياطات الواجب اتخاذها لتجنب الانكشاف، كاعتماد السرية التامة في العمل، وإتقان مهارات التراسل، وسبل التواصل مع قواعدهم، أو مع الآخرين من خلال تشفير الإشارات والرسائل المتبادلة، وفق ما تسمح به ظروف العمل كاستخدام النار ليلاً، والدخان نهاراً، أو قرع الطبول أو غير ذلك من الوسائل.

وكان «الأجراء» من المصادر المهمة والمستديمة للمعلومات، إلى جانب العبيد والمحظيات والجواري¹⁰⁷ اللاتي كن يُجنّدن لجمع المعلومات العامة، وتوفير التفاصيل القيمة الدقيقة عن شركاء أسيادهن المقربين، وعن خططهم وتحركاتهم واتصالاتهم.¹⁰⁸ ومن أجل التثبت التام واستزادة في الحيلة والحذر، كان العرب الأوائل يرسلون عادة جاسوسين أو أكثر في مهمة واحدة.¹⁰⁹ وكانوا يلجؤون أيضاً إلى استخدام الجواسيس للإيقاع بالخصم، أو من أجل بدء حملة تضليل إعلامية لدحض شائعة أو فكرة معينة، أو لإحباط مجهودات العدو. وكانت السموم في بعض الأحيان تُستعمل لتصفية الأعداء، أو الذين يمثلون خطراً على النظام العام أو المجتمع.¹¹⁰ وتشير السجلات التاريخية القديمة إلى أن العرب كانوا يلجأون إلى بعض أساليب المراوغة والمخادعة للتعامل مع خصومهم، وتجميع المعلومات عنهم، وقد أصبحت هذه الأساليب أكثر تنوعاً وتعقيداً مع تقادم الزمن.

الفصل الثاني

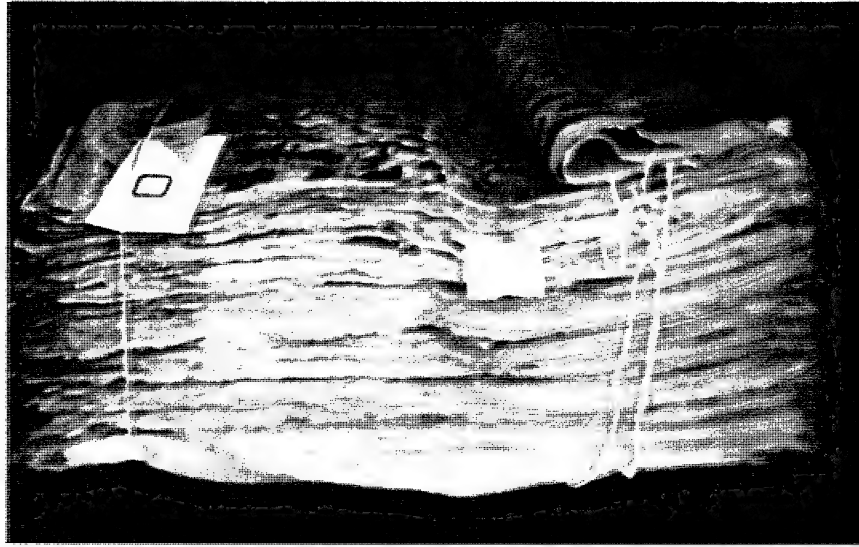
القرآن الكريم
والاستخبارات

2.1: تقديم

ليس بمقدور أي إنسان أن يلم بخصائص القرآن الكريم ومزاياه، فهو كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾¹ وقد تضمنت آياته ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾² وهو نداء الله الأخير إلى البشرية الذي تكفل الخالق بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾³ والقرآن الكريم هو النص الوحيد ذو المصداقية والقداسة من بين الكتب السماوية، فلا يختلف اثنان من المسلمين على سلامة نصوصه من أي زيادة أو تحريف. فقد حُفظ القرآن في الصدور ونُقل لفظاً ودوناً على الرقاع والأكتاف والعُسب في أول الأمر، ثم بعد وفاة الرسول ﷺ تم تجميعه وكتابته على الصفحات في عهد الخليفة الأول، أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في سنة 646م.⁴ والذي أمر بجمعه في مصحف واحد، بعدما تردد في بادئ الأمر خشية أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

لكن معركة الإمامة التي استشهد فيها كثير من حفظة كتاب الله وقرائه، دعت الخليفة الراشد «أبا بكر الصديق» رضي الله عنه لذلك، واستجابة لمشورة عرضها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه للمضي في انجاز الفكرة. وبخلاف التوراة والإنجيل لا توجد للقرآن الكريم أي نسخة ثانية أو ثالثة. فالنسخة التي بين أيدينا اليوم، هي مطابقة للنسخة التي دُونت في عهد الخليفة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه سنة 646 م.⁵ الذي أمر بجمع النسخ الأخرى من القرآن كافة وإتلافها جميعاً، ليقوم بعد ذلك بتوزيع النسخة الموحدة إلى الأمصار كي يضع حداً لاختلاف الناس في قراءاته.⁶

وإلى جانب التأكيد على وحدانية الله عز وعلا، فإن كتاب الله - وهو المصدر الأساس للدين الإسلامي- يحوي أيضًا جوهر التعاليم التي تنظم علاقة الإنسان بالخالق، ويحوي أيضًا أصول الهداية البشرية، وفروعها التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة كافة، والتي يتوجب على المسلمين الالتزام بها أفراداً وجماعات. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁷.



صورة لإحدى نسخ المصاحف التي نسخت في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ثم أمر بإرسالها إلى الأمصار الإسلامية.⁸

وبغية إرشاد المؤمنين إلى سبل النجاة فقد أورد القرآن الكريم أمثلة كثيرة مستقاة من قصص الأنبياء والشعوب السابقة على الإسلام فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁹ (١١١). كما أشار القرآن الكريم في بعض آياته أيضاً إلى عدد من القصص الرمزية المتعلقة بعالم الحيوان. ومن أمثال ذلك «ذئب يوسف»، و«بقرة بني إسرائيل»، و«هدهد سليمان» وغيرها. والغرض من استذكار تاريخ الأمم البائدة وقصص الإنس والجن والحيوان هو تنبيه الفرد، وحثه على الاتعاظ والاستفادة من دروس التاريخ لكي ينعم بحياة هانئة وديعة في

ظل مجتمع عادل، يتخذ من نور القرآن سبيلاً للهداية والنجاة، ومن سنة الرسول ﷺ نموذجاً أمثل للسلوك البشري قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ^{١٠} وقد أورد القرآن كثيراً من العلوم التي تحتاجها البشرية وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥٥) ^{١١} ويقول الإمام «ابن القيم» -رحمه الله- عن الأمثال الواردة في القرآن الكريم بأن "أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر" ^{١٢}.

٢.٢: وعناصر المفهوم الاستخباراتي الحديث

عرض القرآن الكريم ولو على نحو غير مستفيض موضوع استحصال المعلومات السرية واستعمالها. ففي حقل الاستخبارات -كما في جميع أوجه النشاط البشري الأخرى- يمثل القرآن مصدراً مهماً من مصادر التشريع الإسلامي الذي وضع الأطر العامة لهذا العمل الحساس، وحدد أيضاً ضوابط ممارسته كي لا يخرج القائمون عليه عن الهدف المبتغى، ولكي لا تغبن حقوق البشر فيه. وإذا دققنا النظر في آيات القرآن الكريم نستطيع أن نتبين وعلى نحو جلي أبرز وأهم العناصر الرئيسة للعمل السري ومقوماته وفق ما توصل إليه العلم الحديث، وخبراء الاستخبارات المعاصرون من أمثال «روي غودسون»، و«أنجلو كودفيلا»، و«جون لوكهارت» وغيرهم من الذين وضعوا الأسس النظرية لما أسموه علم الاستخبارات، والتي ينبغي أن تتوافر على جملة عناصر أساسية هي: جمع المعلومات السرية، والاستخبارات المضادة، والعمليات السرية، والتحليل والتوزيع للنتائج على من بأيديهم الحل والعقد. بل إن هناك في الكتاب الكريم من الآيات التي تحوي على

بعض القضايا الحيوية التي لم يلتفت إليها العلماء والباحثون، أو يولوها الاهتمام الذي تستحقه حتى الآن.

وإذا تناولنا عمليات الجمع السري للمعلومات، وأساليبها التي تعد أبرز عناصر العمل الاستخباري، بل أهمها، - كما أسلفنا - فإن القرآن يحوي عدداً من الآيات التي تشير على نحو مباشر وغير مباشر إلى هذا الأمر وذلك من خلال سرد أحداث الماضي، وشرحها، واستخلاص العبر منها. وقد تضمنت قصص الأنبياء والرسل التي أوردها القرآن الكريم العديد من الإشارات إلى العمل الاستخباري المتقن. وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة في البدء إلى ما ورد في سورة القصص التي تسلط الضوء على أمور كثيرة ذات مساس مباشر بالدراسة الحالية. فقد تناول القرآن الكريم «قصة فرعون» الذي اضطهد «بنو إسرائيل» وقرر قتل جميع ولدانهم الذكور. يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُفَكِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُزَيِّرَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِی وَلَکَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتَشْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ

الْمَرَا ضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ
وَهُمْ لَهُ نَصِ حُوتٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدَتْهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾¹³

إذا تأملنا في الآيات السابقة الذكر سيتبين لنا جلياً أن «أم موسى»
-وتبعاً لما ورد في الآية الكريمة- طلبت من ابنتها «أخت موسى» أن تتابع
ما يجري لأخيها الصغير، وترجع إليها بخبره، ذلك أن الأم المذعورة كانت
قد وضعت «موسى» في صندوق، ثم ألقت به في النيل -بعد أن خشيت
عليه من فرعون وجنده- استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى-. ويعدّ اختيار
الأم «لأخت موسى» لتنفيذ تلك المهمة -أي مهمة الرصد والمتابعة- اختياراً
حكيمًا، بل مثاليًا، وينم عن تبصّر ونظر ثاقب. فالمرأة التي كلفت بجمع
المعلومات تعد من المصادر عالية «الوثوق والمصداقية» لأنها ترتبط
بوشائج القربى، ورابطة الدم، بالهدف نفسه -أي موسى عليه السلام-. وهكذا
يأتي اختيارها لهذه المهمة انطلاقاً من حقيقتين مهمتين جداً في العمل
الاستخباري: أولاهما التفاني والإخلاص والمواظبة على تنفيذ الواجب.
وهذا ما توسمته «أم موسى» بابنتها وهي تتابع أخبار أخيها الرضيع المغلوب
على أمره. أما الحقيقة الأخرى فهي الثقة المطلقة بمن كلفتها بمهمة
المتابعة، كون المكلفة بهذه المهمة قريبة من الدرجة الأولى، وهذا يعني
أن المعلومات التي ستجمعها ستكون أكثر مصداقية من أي مصدر آخر،
ويمكن اعتمادها باطمئنان تام، دون الحاجة إلى التدقيق الصارم للتثبت من
صحة ما ترفده من معلومات سرية.

والى جانب كل ما تقدم فإن هذه الفتاة المكلفة «أخت موسى»، كان
لها علاقة عمل بالمكان الذي أقام به «الهدف» «موسى»، أي أنها تستطيع
من خلال عملها بالقصر الفرعوني أن تجمع المعلومات، بحيث تقتنص

أسراراً ملكية، وتتحصل على معلومات لا يستطيع آخرون الحصول عليها، لأنها تتمتع بالقدرة على الوصول إلى منابع المعلومات المؤكدة. وفي هذه القصة القرآنية الجليلة كانت أوامر «أم موسى» واضحة وجلية، فقد أبلغتها أن عليها تتبعه خفية، وأن تراقبه بحذر، لكي لا يكتشف «فرعون» وزبانيته حقيقة هويتها. وقد نفذت «أخت موسى» المهمة الموكلة لها بكل إتقان، فقد أفلحت على صعيدين اثنين أولهما مراقبة الهدف «موسى» عن كثب، وثانيهما -الذي قد يكون أكثر أهمية- تمكّنها من الوصول إلى صاحبة القرار في مجتمع القصر، وإقناعها الملكة -بذكاء لافت- بفكرة إرسال «ولدها المتبنى» إلى مرضعة بعينها هي «أم موسى». وهكذا نتبين من هذا المثل القرآني بوضوح كيف تم تكليف «أخت موسى» «بجمع المعلومات» عن أخيها سراً، وكيف تتبعته حتى تمكنت أخيراً من النفاذ إلى عصب القصر الفرعوني، ومركز قراره، وحصلت على معلومات موثوقة مباشرة عما آل إليه مصير الرضيع، وكيف استثمرت تلك المعلومات الحساسة لصالح المهمة التي بُعثت من أجلها.

أما «سورة يوسف» فإنها هي الأخرى السورة التي تحتوي على إشارات لأحد أهم مقومات العمل الاستخباري، ألا وهو (الجمع السري للمعلومات) والذي ينبغي للمنخرطين فيه التزام أقصى درجات الحيطة والحذر، والأخذ بأسباب الكتمان والسرية، إذ يقول: «أبو يوسف»، «النبي يعقوب» -عليه السلام- لأبنائه عندما استأذنه للذهاب إلى مصر: .. ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧). ثم يتابع الأب المفجوع بفقدان ولده فيوصي أبناءه: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧).¹⁴

يتضح من الآيات الكريمة أن «أبا يوسف» - عليه السلام - يتمتع بحس أمني رفيع، لذلك أمر أولاده بالالتزام بالحدز الشديد، والسرية التامة، وهم يقومون بعملية «تحسس» موسعة، من خلال البحث عن هدف واحد، ولكن متفرقين، لا مجتمعين، وعلى أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة، لا من باب واحد، خوفاً عليهم ليس فقط من أن تصيبهم العين، كونهم أحد عشر شاباً من أب واحد، ولهم بسطة في الجسم والوسامة، بل وقد يكون أيضاً - ووفقاً لما ذكره بعض المفسرين - بسبب أنه كان حذراً عليهم من أن يُشك بأنهم «جواسيس».¹⁵ وهكذا فبانتشار الكشافة «إخوة يوسف» عند وصولهم لأرض مصر، ودخولهم لها من طرق وأبواب مختلفة، تمكنوا من تغطية أكبر مساحة من أرض مصر، بحثاً في أنحائها لرصد أية معلومة قد تقودهم إلى مكان أخيه ومصيره، وبتطبيق خطة الجمع على هذا النحو فإنهم أصبحوا في وضع أفضل مما لو فعلوا ذلك معاً ومن باب واحد¹⁶، حيث أنهم بهذا التفرق وسلك الطرق المختلفة المؤدية إلى الأبواب الأربعة المخصصة لدخول مصر سيغطون مساحة أكبر «للبحث والتحسس» عن «يوسف»، وفي ذات الوقت تزداد وتنوع مصادر معلوماتهم. ولربما تمكنوا من خلال هذه الطريقة من العثور عليه عند أحد أبوابها بعد ما التقطه بعض السيارة. ويرى الإمام «ابن كثير» وغيره من المفسرين أن معنى الآية الكريمة يميل أكثر ما يميل إلى أن «يعقوب» - عليه السلام - كان يقصد الحدز على أولاده من أن تصيبهم العين. وهو ما يراه أيضاً الشيخ «عبدالرحمن السعدي» صراحة، في تفسيره للآية الكريمة آفة الذكر.

ويشدد القرآن الكريم في مواضع أخرى على التزام الحيطة والحدز لا أثناء عمليات جمع المعلومات وتنفيذ الأوامر فحسب بل على الدوام. فقد أمر الله المؤمنين بأن يكونوا يقظين وفي حالة استعداد تام حيث يقول تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.¹⁷ ولا يمكن

لحالة الاستعداد هذه أن تسود دون الإلزام المستمر بما لدى العدو أو أي طرف آخر كان، سواء في الداخل أو الخارج ممن قد يسيء إلى الأمة الإسلامية، أو يُقوّض أمن الدولة وسلامتها. ويفسر القرطبي هذه الآية الكريمة قائلاً: "أمر أهل الطاعة بإحياء دينه وإعلاء دعوته، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم".¹⁸ ويوضح مفسر آخر أن أخذ الحذر لا يأتي إلا من خلال الاحتراز من العدو والتيقظ له.¹⁹ ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التعرف على أحوال العدو تفصيلاً للوقوف على قوته ونواياه ومخططاته وكشف أساليب عمله ودحر مكره.²⁰

وردت في القرآن الكريم الكثير من الإشارات الرمزية التي تنطوي على أهمية بالغة للاتعاظ بها واستلهاهم العبر من تاريخ ممن سبقنا من الأمم. وقد أورد القرآن الكريم أمثالا عدة فيها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٥﴾. ومن هذه الإشارات ذات البعد الإرشادي التنويري ما استُقي من عالم الحيوان كما سنرى في «سورة النمل» مثلاً. ففي هذه السورة يقوم سيدنا الملك «سليمان» بمجادلة طائر «الهدهد»، الذي سبق أن افتقد وجوده بين طيره. ويبين القرآن الكريم في هذه السورة أن الله -عز وجل- مكّن الملك «سليمان» من فهم لغة الطير والتخاطب معها، كما مكّنه أيضاً من السيطرة على جميع أنواع الحيوانات. وتبدأ هذه القصة عندما يلاحظ سيدنا «سليمان» أثناء تفقده لمملكته المؤلفة من الإنس والجن والطير، أن أحد طيوره -الهدهد- غائب وليس في مكانه المعتاد: قال تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.²¹

على أن الأزمة الطارئة التي خلفها غياب «الهدهد» والتي دفعت النبي «سليمان» -عليه السلام- إلى التهديد بإنزال العقاب الشديد به تم احتواؤها حين حضر «الهدهد»، وشرح أسباب غيابه الذي كان لضرورة أمنية. قال «الهدهد» أنه كان يجوب أراضى الملك «سليمان»، وأنه تمكن من رصد معلومات مهمة. ومن اللافت أن «الهدهد» بدأ حديثه مخاطباً النبي «سليمان» -عليه السلام- بنبرة الواثق من نفسه، مؤكداً أنه سيكشف عن معلومات كانت خافية على الجميع، حتى على الملك «سليمان» -عليه السلام- نفسه. ويتابع «الهدهد» سرد تقريره الشفوي موضحاً أن مصدر المعلومات التي أتى بها لم يكن مصدراً ثانوياً، بل أولاً مباشراً، حيث أضاف أن التفاصيل التي سيدلي بها لم تُنقل إليه عن طرف آخر، بل شاهدها هو نفسه بأم عينه، ثم يحدد «الهدهد» بعد ذلك موقع حدوث الفعل، ويقول إنه مملكة سبأ في جنوب شبه الجزيرة العربية. وفي إشارته إلى المعلومات التي حصل عليها، يستعمل هذا الطير الداهية كلمة «نبأ» بدلاً من كلمة «خبر»، حيث أن الدلالات المعنوية التي تستثيرها كلمة «نبأ» في الأذهان ترتبط عموماً بمعلومات عن أشياء تخص المستقبل لا أشياء من الماضي. وفي تقييمه لمصداقية المعلومات ودرجة الوثوق بها يؤكد «الهدهد» أن ما ورد في تقريره هو اليقين بعينه، وذلك أعلى درجات المصداقية التي لا تستند إلى الروايات والتقارير بل إلى الاستطلاع الشخصي المباشر، والمعاينة الذاتية. وبالفعل كان لهذا الخبر وقع المفاجأة على سيدنا «سليمان».²²

يتابع «الهدهد» تقريره عن هذه المملكة فيقول: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾²³. وفي إشارته إلى نظام الحكم في سبأ، يوضح «الهدهد» بأن «بلقيس» على رأس هذه المملكة الغنية، وأن قبضتها على البلاد قوية. ولم يخف «الهدهد» استهجانه الشديد لأمر لم يعجبه أبداً. فقد وجد رعايا المملكة لا يؤمنون بالله، بعد أن أظلمهم

الشیطان وزین لهم عبادة الشمس:

﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾²⁴.

إذا تمعنا جيداً في قصة سيدنا «سليمان» - عليه السلام - نجد أنها أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم تسرد - من بين أمور أخرى - وبأسلوب تعليمي دروساً في كيفية إعداد التقرير الاستخباري. كما توضح لنا أهم العناصر الأساسية المكونة لهذا التقرير. فهناك أولاً تحديد لمصدر المعلومة، والمصدر هنا حسب ما يرد في السورة هو طائر «الهدد» نفسه، وأن وجهة التقرير كانت مرفوعة للملك «سليمان» مباشرة، وأن التقرير كان يتناول قضية محددة على وجه الخصوص ألا وهي التطورات في مملكة سبأ. أما درجة المصداقية والوثوق في التقرير فكانت من باب «اليقين» وهي الأعلى مرتبة، حيث أن التقرير بأكمله قائم على رصد أولي من معدّ التقرير ذاته، لا نقلاً عن مصادر ثانوية، أو تكراراً لمعلومات شائعة، أو أقوالاً للناس، أو أي شكل من الأدلة المستقاة من روايات منقولة. ثم يشرح ما يحتويه التقرير بإيجاز غير مخل من خلال إخبار النبي «سليمان» - عليه السلام - بوجود مملكة تدير دفة الحكم فيه امرأة ذات نفوذ، هي الملكة «بلقيس» التي تشارك أتباعها عبادة الشمس. وكان هذا الاكتشاف مصدر إزعاج كبير للملك «سليمان» - عليه السلام - لأن لا طاعة في الكون إلا لله، وما طرق سمعه الآن يتعارض تماماً مع المهمة السامية التي كان ينهض بها كنبي. وإلى جانب هذا الأمر الخطير احتوى تقرير «الهدد» معلومات أخرى عن جيش الملكة «بلقيس»، وحالة البلاد الاقتصادية والأمنية. واختتم تقريره بتحليل لأسباب عبادتهم للشمس، وهو ما يتنافى

مع ما يدعو إليه «سليمان» -عليه السلام-.
ولم يصدق نبي الله «سليمان» -عليه السلام- أو يكذب قصة «الهدد»،
بل تريت في حكمه على أقوال الطير، حتى يتسنى له التثبت من مصداقية
المعلومات التي جاء بها:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧) أَذْهَبَ بِكَيِّ
هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كَذِبٍ كَرِيمٍ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ²⁵.

وتدل الآيات الكريمة أنفة الذكر على أن المعلومات المجمعة ليست
العنصر الوحيد الذي يتم على أساسه اتخاذ القرار، فمعالجة المعلومات
من خلال إخضاعها للملائمة والتأكد من مصداقيتها ضرورة لا غنى عنها
لأي محلل معلومات، أو متخذ قرار، وذلك من خلال تأكيدها، والتثبت من
دقتها عن طريق الاستئناس والاسترشاد بمصادر أو طرائق أخرى قد تنفي
أو تؤكد صحة ما حدث. وهكذا فعندما ينتهي طائر «الهدد» من سرد
تقريره يقول له «سليمان» -عليه السلام-: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ﴾ مشيراً إلى أنه سيتثبت من المعلومات التي جاء بها من خلال
إجراء آخر سيعمد إلى اتخاذها.

وتتضح في السورة أيضاً المراحل المختلفة التي تمر من خلالها
المعلومات التي جاء بها طائر «الهدد»، أي مراحل ما يسمى بـ«دورة
الاستخبارات، Intelligence Cycle». والتي عادة ما تبدأ «بتجميع المعلومات»
الأولية بكافة الطرق والوسائل قبل تحويلها إلى المرحلة التالية «المعالجة
والتجهيز» والتي تنطوي على تحويل الكم الهائل من المعلومات الأولية
إلى شكل قابل للاستعمال من قبل المحللين. وفي المرحلة الثالثة

«التحليل والإنتاج» يتم تحويل تلك المعلومات إلى «استخبارات» وذلك من خلال دمج المعلومات وتحليلها وتقييم موثوقيتها ثم إدراجها بشكل منطقي وفي سياقها الصحيح. تنتهي هذه الدورة بمرحلة «التوزيع» للمنتج النهائي على المستفيدين وصناع القرار.

وفي هذه القصة تبدأ «دورة المعلومة الاستخبارية» بأن أخذ «سليمان» - عليه السلام - تقريراً معلوماتياً من «الهدهد» حول أسباب غيابه المفاجئ. ثم أخضع معلوماته لعملية التثبت حينما بيّن «سليمان» - عليه السلام - عزمه على القيام بالتأكد من النبأ لمعرفة درجة مصداقيته.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مسألة تأكيد المعلومات من مصادر مختلفة، تنطوي على أهمية قصوى في «التراث الاستخباري الإسلامي» حتى كادت أن تكون مرحلة قائمة بذاتها، وليست جزءاً من مرحلة تجميع المعلومات أو تحليلها، كما هو الحال في مراحل «دورة الاستخبارات الحديثة» وذلك لما ينطوي عليها من أهمية.

وكما هو واضح في عدد من الآيات ومنها ما ورد في سورة الحجرات، حيث يأمر الله المؤمنون بالتبين من حقيقة ما يسمعون، حتى لا يندموا على عواقب التسرع. فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِحَظَّةٍ فَتُصْـٰبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾²⁶. وتشير معظم التفاسير إلى أن هذه الآية ترتبط بحادثة معينة جاء فيها أن الرسول ﷺ أرسل أحد أصحابه وهو «الوليد بن عقبة بن أبي معيط»²⁷ في مهمة إلى «بني المصطلق»²⁸ لأخذ الزكاة منهم. وكان «الوليد بن عقبة» متوجساً من استقبالهم له، حيث كانوا يحملون السيوف عند لقائه، وكان بينه وبين تلك القبيلة عداوة قديمة في الجاهلية. وعندما اقترب من أراضيهم ورأى أن

أعداءه السابقين يخرجون إليه في عشراتهم يريدون استقباله، خاف ورجع إلى رسول الله ﷺ، زاعماً أن «بني المصطلق» قد ارتدوا عن الإسلام ورفضوا دفع الزكاة. وبينما المسلمون يستعدون لمعاقبتهم، جاء وفد من «بني المصطلق» إلى رسول الله ﷺ ليشرحوا له ما حدث. فأرسل رسول الله ﷺ «خالد بن الوليد» -رضي الله عنه- إليهم على رأس مجموعة من العسكر بصفة سرية، ليرصدوا ويعاينوا بأنفسهم الأمور على أرض الواقع بدقة. وهناك وجدوا «بني المصطلق» يؤدون الصلاة ويبدون الطاعة، فرجع «خالد» -رضي الله عنه-، ونقل إلى رسول الله ﷺ أنه لم يرم من القوم إلا الطاعة والخير. وهكذا فلولا التثبت من حقائق الأمور على نحو لا يقبل الشك، ولا يحتمل اللبس، لكانت النتائج وخيمة كارثية على الأمة. وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما أرسل «خالداً» كي يقف على حقيقة ما أورده «الوليد بن عقبة»، الذي كادت ظنونه أن تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه.²⁹

ثمة حادثة أخرى يتأكد فيها حرص الإسلام على التثبت من الحقيقة في كل المواقف، وهو ما يرويه المفسرون حول سبب نزول قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾³⁰

قال «ابن كثير» في سبب نزول هذه الآية الكريمة: روى «الإمام أحمد» أنه مر رجل من «بني سليم» بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية.³¹

هناك أكثر من سبب نزول ذكره المفسرون لهذه الآية، ولكن من المناسب في هذا السياق أن نذكر أن كل الأقوال تدور حول معنى واحد هو التثبت من الخبر وعدم اعتماد أي عمل يقوم على ذلك الخبر، قبل التأكد منه.

ويعلق القرآن الكريم أهمية كبرى على تحليل المعلومات، وتوزيعها على من هم أهل لاستثمارها، وإنزالها منزلتها الصحيحة من الأهمية، واتخاذ القرار الصائب على ضوئها. ويتضح ذلك في إحدى الآيات التي يأمر الله - عز وجل - المسلمين فيها بأن يرفعوا الأخبار الخطيرة التي تتعلق بسلامة الأمة أو مصيرها إلى أهل العلم والدراية في المجتمع، وألا يتناولوها بالإذاعة والعلن لأن ذلك قد يضر بأمن المسلمين، ويقوض الصالح العام. وعليه فمن الواجب رفع المعلومات الأمنية إلى الذين هم مسئولون عن أمن الدولة، والذين هم - حسب ما يؤكد لنا القرآن الكريم - الأكثر كفاءة لفهم تبعات تلك المعلومات، والتعامل معها. قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
الرَّسُولِ وَالْيَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٣٢﴾

ففي هذا النص القرآني، استعمل فعل (يستنبط) الذي تنصرف مدلولاته إلى معنى الاستخراج أو الاستنتاج، ويستعمل هذا الفعل في العادة للتعبير عن المستتر من الأمر. أو الذي لا تسهل رؤيته. ويكثر استعماله على نحو خاص للإشارة إلى التنقيب عن الماء أو استخراجه من باطن الأرض. وهذا المدلول مناسب جداً لوصف العمل الذي يقوم به محللو المعلومات وإنتاج ما يسمى بـ (الاستخبارات). لا نقصد هنا أن هذه الآية تحث على استعمال «الأساليب الاستخبارية» عند التعامل مع الإخبار،

ولكن من الواضح أن الدقة في التعامل مع معلومات التقارير صفة تدعو إليها هذه الآية، والعمل الاستخباري يكون في أرقى مستوياته إذا كان دقيقاً في طرح المعلومات، ثم في تحليلها. وحسب ما ورد في الآية الكريمة فإن الله تعالى يحث المسلمين على نقل هذه التقارير (الأمنية) إلى الرسول ﷺ، سواء أكانت التقارير صادقة أم مشكوكاً فيها، أو إلى الذين هم قادرون على معالجتها من خلال التدقيق والتحصيص، كالملاءمة، والمقارنة، وما إلى ذلك في مرحلة التحليل. مما يمكن المختصين بعد ذلك من إخضاعها إلى طرق التحليل، ويستنبطوا منها ما بين السطور، ثم يوصون بما يحتاجه صاحب القرار اتخاذه أو أي مستفيد من المعلومات بشكل عام. هذا التفسير «الأمني» للآية الكريمة حام حوله أكثر من مفسر عند تناول أسباب نزولها. نذكر منها قول القرطبي:

"أنهم إذا سمعوا شيئاً من الأمور فيه أمن، نحو ظفر المسلمين، وقتل عدوهم، أو الخوف. وهو ضد هذا إذا أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه، وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته. قيل: كان هذا من ضعف المسلمين. وعن الحسن، لأنهم كانوا يفشون أمر النبي ﷺ ويظنون أنهم لا شيء عليهم في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لم يحدثوا به، ولم يفشوه حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يحدث به ويفشيه، أو يقول فيه أولوا الأمر وهم أهل العلم والفقه أو الولاة مثلاً. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لعلموا ما ينبغي أن يفشى منه وما ينبغي أن يكتُم".³³

ولمرحلة التحليل عودة مرة أخرى إلى قصة سيدنا «سليمان» -عليه السلام- و«الهدد»، فقد وجد سيدنا «سليمان» نفسه أمام معلومات حقيقية

بعد تأكيدها وتحليلها . هنا كان لا بد له من اتخاذ قرار بشأنها، وكان عليه الاختيار بين أمرين: إما أن يشن حرباً على مملكة «بلقيس» حتى يُخضعها له، أو أن يلجأ إلى الأساليب السلمية والدبلوماسية لتحقيق أهدافه. فقرر -عليه السلام- أن يتبنى الخيار الثاني، فبعث «الهدهد» إلى الملكة يطلب منها أن تؤمن بالله، وأن تعترف به نبياً من الله، فكان له ما أراد.

ويشير القرآن الكريم مرات عديدة إلى ما يمكن تسميته بمصطلحاتنا الحديثة بـ «الاستخبارات المضادة». ونعني بذلك تحديداً النشاط الذي يهدف إلى حفظ الأمن، ومكافحة الجاسوسية. أي تعقب «الجواسيس»، أو ما عرف بـ «المنافقين» الذين يروجون الأراجيف والذين يبدون الخير، ويضمرون الشر بالعباد وبالبلاد. فاصطلاح «المنافقين» الوارد في القرآن، قد يعني «المتظاهر» و«المتستر» و«المخادع» و«الغشاش» و«المتحايل» و«الدسيس». بل أن هناك سورة كريمة بعينها عن «المنافقين»، مخصصة لمناقشة خطر هؤلاء «المنتسبين» الذين اندسوا بين المسلمين لنشر الفوضى، وافتراء الأكاذيب. وقد أشار الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة إلى هذا النفر من الناس الذين يسعون إلى تقويض الإسلام من الداخل. ومصطلح «المنافق» شائع الاستعمال في أيامنا هذه كشيوعه في تلك الأيام. حتى أن أول ما تنصرف إليه مدلولاته المباشرة في بعض الدول الإسلامية إلى «الجاسوس» تحديداً.

وقد يكون من المفيد أن نستذكر أن المنافقين كانوا -أيام المدينة- قد تآمروا مع المشركين، فسهلوا لهم اختراق مجتمع المدينة حتى يبدروا بينهم بذور العصيان والانقسام. لذلك كان المنافقون «عملاء» يوالون المعسكر المضاد للرسول ﷺ، وقد تظاهر هؤلاء «المنافقون» بالإسلام، فأصبحوا في وضع يمكنهم من الحصول على معلومات لا تتوفر لغير

المسلمين. من هنا أكد الإسلام على أنهم خونة لا يمكن التسامح معهم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾³⁴.

وهكذا فإن عمليات مكافحة التجسس التي توليها أجهزة الاستخبارات الحديثة أهمية كبرى، والتي تعتبر جزءاً رئيساً من واجبات هذه الأجهزة، لها في جيوب التاريخ سوابق إسلامية أكيدة مما أشار إليها القرآن الكريم ورسوله الأمين ﷺ. وتدخل المسألة حيز الخطورة الحقيقية، إذا كان الأمر يتعلق بموالاتة أعداء الأمة. حيث يأمر الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين بعدم موالاتة أعدائه وأعدائهم سواء كان ذلك جهاراً أو سراً. فالموالاتة لهم من خلال التعاون في تمرير معلومات أو نحوه والوقوع في شباك التجنيد و«التجسس» التي يعدها هؤلاء «المنافقون»، يمثل خطراً كامناً مستطيراً يترصد بأمن البلاد وسلامتها. وقد توعده القرآن العقاب الشديد لمن ضل عن السبيل، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾³⁵.

ويكاد يجمع المفسرون على أن الآيات المذكورة آنفاً تعود إلى حادثة معينة حصلت فيها خيانة لرسول الله ﷺ على يد أحد أصحابه المقربين أثناء الاستعدادات النهائية لفتح مكة. فواحد من القلة الذين كانوا على الأرجح على علم بخطة فتح مكة هو الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة»، الذي ما إن علم بها حتى طلب من امرأة تدعى «ساره»³⁶ أن تحمل له «رسالة

سرية»³⁷ إلى أهل مكة يحذرهم فيها من هجوم المسلمين الوشيك، مستبعداً أقاويل تُروّج عن اعتزام رسول الله ﷺ الهجوم على خيبر. وعندما اكتشف الرسول ﷺ خيانة حاطب، أمر مجموعة من فرسانه على رأسهم ابن عمه «علي بن أبي طالب» -رضي الله عنه- أن تلحق بالمرأة. وتمكن الفرسان من القبض على حاملة الرسالة واسترجاعها.

وحسب المؤرخ «الواقدي»، فإن الرسول ﷺ تولى هذا الخرق الأمني الخطير بنفسه، وواجه حاطباً بقوله:

"ما هذا يا حَاطِب؟ فقال: لا تَعَجَل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتدّدت، ولا بدّلت، ولكنني كنت امرئاً ملصقاً في «قريش» لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي".³⁸

وإزاء ذلك ثارت ثائرة «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه-، وهو أبرز الصحابة الذين شاركوا في العمل الأمني مع رسول الله ﷺ. فقد كان عمر مصرّاً على قطع عنق حاطب لأنه خان ونافق من خلال موالاته للكفار³⁹، لكن الرسول الكريم ﷺ عامله بسعة صدر وسماحة أثيرة وقبل عذره. وتجدر الإشارة إلى أن «حاطب بن أبي بلتعة» كان ممن شارك في غزوة بدر، وكان من الفرسان الذين أبلوا بلاء حسناً في تلك الموقعة التاريخية. ومكافأة لهم على شجاعتهم وتضحيتهم، جاء القرآن الكريم مؤكداً أن الله مَنَّ على جميع من شهد بدرًا بالتوبة. وقد رد رسول الله ﷺ على عمر قائلاً: «وما يُدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم»⁴⁰ ثم عفى عنه رسول الله ﷺ.

أما سورة الأنفال فتذكر حادثة مهمة وقعت في الأيام الأولى للإسلام في المدينة المنورة، بينما كان الرسول ﷺ وأصحابه يحاولون بناء الدولة الإسلامية هناك. حينها قام اليهود بتأليب قريش والقبائل المجاورة على رسول الله ﷺ وجمعوا له الأحزاب للهجوم على المسلمين بالمدينة، رغم أن يهود بني قريظة في المدينة كانوا قد هادنوا رسول الله ﷺ وأبرموا معه عهداً بأن لا يعينوا أحداً عليه.⁴¹ وعندما حاصر الأحزاب المسلمين في المدينة علم رسول الله ﷺ بأن بني قريظة نقضوا العهد الذي بينه وبينهم وظاهروا الأحزاب عليه. وعندما انتهى الحصار، وانهزمت الأحزاب لعدم قدرتهم على تخطي الخندق، وولوا على أعقابهم خائبين، أتى أمر الله لرسوله ﷺ بأن يعمد إلى بني قريظة ويحاسبهم على نقضهم للعهد، فحاصرهم في حصونهم وطلب منهم أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وبعث الرسول الأكرم لهم أبو لبابة بن عبد المنذر⁴² الذي كانت له قبل إسلامه علاقات طيبة معهم. فقد كان موالياً لهم لأن «عياله وماله وولده كانت في بني قريظة».⁴³ وأثناء مداولات الطرفين على الاتفاق، حارت بنو قريظة فيما يريدون فعله. وهنا قالوا «لأبي لبابة» أنهم قد يقبلون بما سيحكم عليهم به «سعد بن معاذ»، سيد الأوس وأحد أكثر الصحابة قرباً من رسول الله ﷺ، والذي كان له حلف مع «بني قريظة» قبل الإسلام. وهنا مرر لهم «أبو لبابة» معلومة في غاية الخطورة مفشياً حكم «سعد بن معاذ»، من خلال الإشارة بيده إلى حلقه بأن أعناقهم مصيرها للذبح، وكأنه يريد منهم ألا يفعلوا. ويذكر «الألوسي» في تفسيره هنا أن «أبا لبابة» أحس على الفور بشيء من الذنب، حيث قال: «والله ما زالت قدمي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله». وحسب تفسير الألوسي فإن الآية القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) إنما تعنيه هو.⁴⁴ وذكر مفسرون آخرون مثل ذلك، ومنهم «ابن كثير» في إحدى رواياته، حيث يقول:

"قال «عبد الله بن أبي قتادة» و «الزهري»: أنزلت في «أبي لبابة بن عبد المنذر»، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك -وأشار بيده إلى حلقه -أي: أنه الذبح، ثم فطن «أبو لبابة»، ورأى أنه قد خان الله ورسوله ﷺ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كاد يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله ﷺ. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، أني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: يجزيك الثلث أن تصدق به.⁴⁵

ويأمر القرآن الكريم المؤمنين في مواضع عدة، أن يحذروا اختراق الأعداء أو ما يمكن أن يوصفوا بـ «العملاء» بمصطلحاتنا الحديثة لصفوفهم. فسورة التوبة تسترعي الانتباه إلى الضرر الذي قد يلحقه عملاء العدو بالمؤمنين. ففي غزوة تبوك -على سبيل المثال- تخلف بعض من كانوا في صفوف المسلمين نفاقاً وخداعاً، لأن هدفهم لم يكن سوى محاولة تقويض الإسلام من الداخل، وبذر الفرقة والانقسام بينهم. ورغم أن المسلم الفطن لا ينخدع بمثل هؤلاء، إلا أن بعض النفوس الضعيفة قد تصغي إليهم وتتأثر بذلك. قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْلَكُمْ يَئُغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٤٧) ويؤكد «ابن كثير» في تفسيره لهذه الآية وخاصة ما يقصد بقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ بأنها تعني العيون التي تسمع الأخبار وتقوم بتمريرها لهم.⁴⁶

وفي سياق ما يمكن أن نطلق عليه «الاستخبارات المضادة» أيضاً، يُفصح القرآن الكريم عن موقف مشابه شديد صريح ضد مثيري الشغب، وناشري الشائعات، والأكاذيب، والتحذيرات المفتعلة كما حدث تحديداً في غزوة الخندق. ففي هذه الغزوة يخص الله بالذكر العملاء الذين يزرعهم العدو كي يشن حرباً نفسية تستهدف استنزاف معنويات المسلمين، وإنزال الرعب في قلوبهم. فقد كان هؤلاء يستهدفون من وراء ذلك أن يصيبوا المسلمين بخيبة أمل في وقت حرج جداً من تاريخ الإسلام، حين كانت دولتهم لا تزال فتية في طور البنيان، وبحاجة إلى مزيد من الرعاية، بينما كان هؤلاء العملاء يقومون بتأليب الأحزاب للإيقاع بالدولة الناشئة، وتدمير ما كان الرسول ﷺ والمؤمنون بصدد بنيانه. ففي سورة الأحزاب يقول الله -عز وجل- عن هؤلاء:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾⁴⁷

وينص القرآن على أن هؤلاء العملاء عموماً -ويصفهم في مواقع مختلفة «بالمنافيقين» و«الذين في قلوبهم مرض»- سيلاقون جزاءهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٤﴾⁴⁸ كذلك يذكر القرآن أنهم سيعذبون حتى في حياتهم إذا لم يكفوا عن نشر الشائعات والأباطيل التي تستهدف تثبيط عزائم المسلمين من خلال نشرهم الأخبار الكاذبة عن مقتل فرسان السرايا أو هزيمتهم. ويلاحظ أن ما يجمع بين هؤلاء المنافيقين أو العملاء جميعاً، هو الحرص على الإرجاف والتلفيق من خلال نشر الأخبار المكذوبة، والمغلوطة، أو ما يمكن أن يصنف في المصطلحات الحديثة بـ «التضليل الاستخباري، Disinformation»، حيث يحذر القرآن هذا النفر بالقول:

﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ شَرًّا لَا يَحَاطَرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾⁴⁹.

ويؤكد الطبري في تفسيره للآية الكريمة أن المقصود بالمرجفين هو من يردد الكذب والباطل في المدينة كقولهم «أتاكم عدد وعدة».⁵⁰

إن نشر الشائعات والخوض في كلام غير مسؤول عن الأسرار العسكرية، لا سيما أيام الحرب، من الأمور الخطيرة التي تتناقض وما أوصانا به الله تعالى وما نهى القرآن الكريم عنه مراراً. فكما كان البريطانيون، أيام الحرب العالمية الثانية، يُنصَحون بأن «يلتزموا الصمت» ويحذرون من خلال وسائل الإعلام والملصقات التي كانت ترفع في الأماكن العامة من أن «الثرثرة العبثية تزهق الأرواح»⁵¹ فإن المسلمين كانوا يُذكَّرون بأن ينصب جهدهم على العمل الصالح البناء والتعاون التام مع الذين هم مكلفون بحماية أمن العباد والبلاد كما أشير إلى ذلك في أكثر من موضع في الكتاب المجيد.⁵²

ويذكر القرآن الكريم المؤمنين بأن عليهم التزام جانب الحذر، لا سيما في أوقات الحرب، ذلك أن بعض المنافقين كما يشير بذلك معظم المفسرين الكبار من أمثال محمد بن جرير الطبري والفخر الرازي، أعلنوا إسلامهم زوراً وبهتاناً لأغراض مبيتة ولأسباب غير حميدة. فقد كانت هذه الفئة الضالة تُكنّ كراهية وحقداً دفيناً للرسول ﷺ وكان ديدنها في ذلك التعاون مع أعداء الرسالة لتقويض الدولة الإسلامية، وإضعاف الدين الجديد من خلال استهداف رأسها. فكان هؤلاء كثيراً ما ينشرون الشائعات المغرضة، والأراجيف الباطلة للتأثير على بعض من لم يترسخ إيمانهم بعد، بل كانوا أيضاً يتخابرون مع القوى المناوئة للمسلمين، ويعملون - كما يشير

المؤرخون- عيوناً لقوات الأعداء كما حدث في غزوات «أحد» و «الخدق» و «تبوك» وفي غيرها من المعارك والمواجهات.⁵³

وإذا كان منظر الاستخبارات المحدثون وخبرائهم يؤكدون أن الاستخبارات -أولاً وقبل كل شيء- هي المعرفة،⁵⁴ وأن المعرفة هي القوة والمنعة بعينها، فإن استجماع المعرفة والتمعن بها هو في واقع الحال تعزيز للمواقع وتحصين لها. أي أن المعرفة والقوة وجهان لعملة واحدة، وأن المعرفة باتت أمضى سلاح لا في دنيا الاستخبارات وحسب بل في مناحي الحياة كافة. فقد سبق القرآن الكريم ما جاء به الخبراء والمنظرون بقرون عديدة، حين أمر جميع المؤمنين بأن يكونوا مسلحين بالمعرفة، واليقظة، وأن يكونوا حذرين ومستعدين لأي طارئ من أجل الحفاظ على بيضة الإسلام وإحباط مؤامرات العدو ويوضح ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾⁵⁵

يتفق عدد من المفسرين على أنه وبالرغم من أن الآية لا تذكر نوعاً محدداً من القوة التي يتحتم على المؤمنين أن يتقنوها، فالمقصود هنا أن يسهموا بكل ما من شأنه أن يزيد قوة المسلمين في أي مجال من مجالات المجهود البشري. وفي هذا السياق يُعتبر العمل الاستخباري أحد روافد القوة التي يأمر القرآن المسلمين أن يتقنوها. وحسب «الفخر الرازي» و «محمد الفهري»، فإن كلمة «عدو» في قوله تعالى: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ عائدة على «مؤامرات المنافقين وأهل الشر والذين لا يسهل التعرف عليهم»، ويمكننا أن نسقط هذا الأمر على أفراد مثل «الجواسيس» و «العملاء المتخفين» في أيامنا هذه.⁵⁶

الفصل الثالث

السنة النبوية الشريفة والنشاط الاستخباري

٣١ السنة النبوية الشريفة وعناصر الاستخبارات

أوضحنا في الفصول السابقة أن الأنشطة الاستخباراتية المختلفة مورست في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بزمان طويل، ولو أن ذلك كان على نحو بدائي أو غير منهجي. فقد كان من عادة العرب القدامى أن يستعينوا بمن كانوا يطلقون عليهم «العيون» ليجمعوا لهم ما يمكنهم من معلومات استخبارية من أجل الدفاع عن الأرض والعرض، أو الاستعداد لشن غارة انتقامية أو حملة تأديبية لاستعادة حق، أو إغاثة ملهوف، أو غير ذلك من أسباب الاحتراب. وقد ناقشنا في الصفحات السابقة أيضًا النشاطات السرية أثناء المعارك، أو قبل العمليات الحربية، وسلطنا الضوء على أهمية العمل الاستخباري للقبائل وقادتها. ومما لا شك فيه، أن تلك الأساليب البدائية لم تكن متطورة إذا ما قورنت بالنشاط الاستخباري الحديث، لكنها -رغم ذلك- كانت تفي بمتطلباتهم، وتلائم ظروفهم، وتسد حاجاتهم في تلك الأيام. وتشير المصادر التاريخية من أعمال أدبية أو نقوش أثرية أو ما تناقلته الألسن عبر الأجيال إلى أن بعض هذه النشاطات قد نضج وتطور مع مرور الوقت بينما اختفى البعض الآخر تدريجيًا.

ورغم كل ذلك يمكن القول أن الإرث الاستخباري الذي ورثه المسلمون الأوائل كان وافرًا، إلى الحد الذي يَسَّرَ لهم اشتقاق العديد من القواعد والتشريعات التي كانت تنظم هذه النشاطات، والتي ظلت على مر الأجيال مكتومة من جهة، ومحفوفة بالكثير من المخاطر من جهة أخرى. فقد رأينا أن التجسس مورس قبل الإسلام لأسباب عدة، منها الحصول على مكاسب

مادية، أو تحقيق مصالح خاصة لشخص ذي نفوذ، أو لقبيلة من القبائل. ومن أهداف التجسس العمل على توطيد الزعامة، وتحقيق الشهرة، وإحكام القبضة، أو تصفية بعض المنافسين والخصوم المحتملين. وكثيراً ما كانت القبائل المتنافسة - لا سيما عند استشعار الخطر أو في أوقات الأزمات كنقص الماء أو ندرة الكلاً - تشن غارات كبيرة تستهدف منها تحقيق مكاسب استراتيجية مهمة على الأرض كالوصول على مراعى جديدة، أو السيطرة على موارد المياه التي تمثل عصب الحياة في الأراضي الرملية كما في سواها.

ومع توالي الأجيال أصبحت القواعد والتشريعات القرآنية التي تحكم التجسس والاستخبارات تؤلف إطاراً عقائدياً، يستطيع الأفراد والجماعات والدول الإسلامية في كل زمان ومكان الركون إليه، والاشتقاق منه، واستلهامه، والاسترشاد به بكل يسر. فالقرآن الكريم هو دون أدنى شك أهم مصدر للتشريع. وينصرف هذا الحكم إلى «العمل الاستخباري» وأنشطته السرية، كما هي الحال أيضاً في باقي نواحي الحياة. أما المصدر الآخر الذي يمكن الاستلهام منه وتقليده فهو السنة النبوية. فنحن المسلمين نرى في عمليات الرسول ﷺ الاستخبارية تجسيدا واقعياً للتشريع الإسلامي في هذا المجال الحيوي. ليس ذلك فقط بل نرى فيها أيضاً نموذجاً مثالياً يقتدى به، ودروساً عملية تمثل تطبيقاً أمثل لقواعد القرآن التي تحكم العمل الاستخباري. وليس أدل على ذلك من أن القرآن تعامل مع أصل الدورة الاستخبارية للمعلومات على نحو يؤكد فيه على دفع الشك بالثبوت واليقين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِحَهْلَةٍ فَذُصِّبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرٌ﴾¹.

وزيادة في التفصيل نقول إن الكتاب العزيز يوفر للقارئ العديد من الأمثلة المباشرة على الأنشطة الاستخبارية المرتبطة بتاريخ الرسل

وحياتهم، والتي يمكن من خلالها وبكل يسر تشخيص حركة الدورة الاستخبارية واكتمالها. ويوضح القرآن بجلاء أن العمليات الاستخبارية التي يتم تنفيذها ضد أعداء الإسلام ولمصلحة المسلمين هي في معظمها واجبة وجائزة شرعاً. وقد يفسر هذا الموقف الركائز الفكرية التي تنطلق منها الأجهزة السرية الرسمية لبعض الدول الإسلامية، بل وبعض المنظمات أو المجموعات المسلحة لتحقيق طموحاتها الهادفة الى خدمة مصالح المسلمين كتحريك الأراضي المحتلة، أو طرد المغتصب، أو تحقيق العدالة ومحاربة الأنظمة القائمة على ظلم العباد وقهرهم. وترى في محاولة النيل من العدو ليس عملاً مشروعاً فحسب، بل واجباً دينياً وأخلاقياً. ويحذر الإسلام أيضاً من الآثار الوخيمة التي يخلفها التجسس على الأمة الإسلامية، واصفاً أولئك المندسين بين أوساط المسلمين الذين يعملون مع أعداء الإسلام بأنهم «منافقون» يجدر مقتهم وعقابهم بشدة. ومن جهة أخرى فإن التجسس على حياة الناس الشخصية أمر منهي عنه وغير مشروع وفقاً لما ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾².

إن مصطلح «السنة» يعني حسب ما درج الناس على استعماله في الحياة العامة، الطريقة أو الكيفية أو الطريق الواضح أو السبيل المتبع. أما في الفقه الإسلامي فإنه مقيد بمعنى سيرة وأدب الرسول ﷺ، وأعماله، وأوامره، وأسلوب حياته العامة قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾³. فالإسلام يعتبر النبي محمداً ﷺ الدليل والقُدوة والمشرع عملياً ونظرياً. والمؤمنون يعتقدون اعتقاداً يقينياً، أن النبي الأكرم ﷺ عاش حياة صادقة، ووضع معايير متوازنة، وعادلة لحياة تضمن السعادة، والطمأنينة، والنصر بتوفيق الله وبركته⁴. ومن المعروف أن أقوال النبي ﷺ وأفعاله وسيرته وأحكامه التشريعية جُمعت بكل عناية ودقة، وتم دراستها،

وتبويبها، ومناقشتها على أيدي العديد من علماء الحديث والفقه والسيرة. وقد تم تصنيفها بأساليب متعددة منها على سبيل المثال ما رتب حسب التواتر، أو حسب الموضوع، أو وفق التسلسل الزمني، أو وفق حروف المعجم أو غير ذلك. وفي الوقت الذي لا يُجمع علماء الإسلام على صحة كل الأحاديث المسندة إلى الرسول ﷺ، فإن معظمها تم التحقق منها بدقة. ولا يخفى أن دلالة ومشروعية هذه الأقوال النبوية تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم. وتمس هذه الأحاديث السيرة الشخصية للرسول ﷺ ونشاطاته العامة، ومعاركه، ومباحثاته، واتفاقياته، وكل ما عمله لينشر الدين الإسلامي للأمة بل للعالم أجمع. ومن هذه الأحاديث الشريفة ما يتصل بالعمل الاستخباري، وتجميع المعلومات الاستخبارية، والأنشطة السرية، وتدابير أخرى تبناها الرسول ﷺ بنفسه، أو أمر بها. وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الإسلامي الحي.

على أن ما يهمنا من كل ذلك في المرحلة الحاضرة أن حياة الرسول ﷺ وأقواله بالنسبة لمليار ونصف المليار مسلم حول العالم⁵، ظلت على مدار الزمن نموذجاً مثالياً لهم يحاول المؤمنون منهم أن يحذوا حذوه كلما أمكنهم ذلك. وقد شهد كثير من غير المسلمين كالأدباء العظام والمستشرقين المنصفين من أمثال الياباني البروفيسور «يوشيودي كوزان Yoshihidi Kozan» والألمانية البروفيسورة «آنا ماريا شيمل Annamarie Schimmel» والأسكتلندي «مونتغمري وات Montgomery Watt» وغيرهم كثير بسمو شمائل الرسول ﷺ ورفعته مكانته السامية بين البشر. ورغم غناه عن شهادات البشر، إلا أن شهادة الأعداء خصوصاً فيما يتعلق بموضوعنا الراهن لهو ما كان علينا إبرازه. فقد أشار المؤرخ العسكري «ريتشارد غابريال⁶ Richard Gabriel» جانب مهم من شخصية النبي محمد ﷺ وإلى حنكته، وسعة أفقه، ورجاحة عقله، وحسن تدبيره، وقدرته الفائقة على تجاوز المحن والأزمات.

ويعصف غابريال شخصية الرسول ﷺ فيقول:

"زعيم عسكري فذ، حاذق في التكتيك، قائد محنك، مفكر إستراتيجي، قائد معارك على مستوى العمليات، ... وأول زعيم ناجح في التاريخ... كان بحق جنراً عظيماً وخبير تكتيك، اشترك في ثماني معارك كبرى، وقاد ثماني عشرة غارة، وخطط ثماني وثلاثين عملية عسكرية أخرى حيث كان آخرون يقودونها ولكن تحت إمرته وتوجيهه الإستراتيجي المباشر.. ثبت أنه متمرس بارع في استخبارات الحروب، وأضحى جهازه الاستخباري يفوق ما لدى الرومان والفرس، خصوصاً فيما يتعلق بالاستخبارات السياسية".⁷

وسنحاول في الصفحات التالية تسليط بعض الضوء على النشاطات الاستخبارية في عهد النبي الكريم ﷺ قبل تأسيس الدولة الإسلامية، وبعدها، منطلقين في دراستها من نظرية علم الاستخبارات الحديثة وفي ظل المعايير المتبعة في تحديد معالم الأداء الاستخباري وتقييمه التي حدد أركانها البروفسور «روي غودسون»⁸ وهي: الجمع السري، الاستخبارات المضادة، التحليل والتوزيع، العمل السري.

3.1.1: الجمع السري

يكاد العمل الاستخباري أن يعتمد، على نحو كلي، وأكثر من أي نشاط بشري آخر، على جمع المعلومات الموثوقة بصورة دقيقة وأمانة. فالمعلومات المستهدفة في ذلك هي التي تتصل بكل الأمور أو القضايا التي تهم محركي القوى البشرية من قادة وصناع قرار إلى غيرهم، مهما عظم شأن هذه الأمور أو صغر. وأهم ما يميز أساليب الجمع المختلفة هو الكتمان الشديد والسرية التامة. ومما لا شك فيه فإن المعلومة المقدمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصداقية المصدر أي جامع المعلومة وبالطريقة الحرفية التي اتبعها للحصول على تلك المعلومة.

وغني عن القول أن السرية والكتمان في الإسلام كانا ملازمين لانبثاق الدعوة الإسلامية وولادة الدين الجديد في «مكة» وذلك درءاً للمخاطر وحفاظاً على أرواح تلك الفئة المؤمنة التي نبذت الديانات التي توارثوها جيلاً بعد جيل واتبعت نبي الرحمة وتعاليمه. فقد بدأ الرسول ﷺ الدعوة إلى الإسلام بصبر وصمت وفي سرية تامة.

على أن السرية لم تكن في أول الأمر مطلباً «استخبارياً» بل ضرورة تقتضيها الظروف القاسية التي نشأ في ظلها الدين الجديد، فكان لابد إذن من التزام جانب الحذر الشديد. والأخذ بأسباب الحذر (والسرية من الحذر) تكاد تكون إحدى القواعد المتينة في الإسلام، لا سيما أن الرسول ﷺ يحثنا على الاستعانة بالكتمان على قضاء حوائجنا.⁹ ولهذا حرص أوائل

الذين لبوا دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام من أمثال أم المؤمنين خديجة، وصديقه الصدوق ومؤتمن سره أبوبكر، وابن عم المصطفى ﷺ علي بن أبي طالب، على كتمان إسلامهم بادئ الأمر وتمكنوا من خلال هذا الكتمان أن يمدوا الرسول الكريم ﷺ بالدعم المعنوي والمادي الذي كان بحاجة إليه.

وإذا أردنا أن نطبق المعيار الأول وهو «الجمع السري» للمعلومات وفق الضوابط التي حددها «روي غودسن» لتعريف العمل الاستخباري وتمييزه عن أوجه النشاطات الإنسانية الأخرى فسنجد أن في التاريخ الإسلامي ولا سيما في مرحلة نشوء الدعوة من الأمثلة ما يجعل هذا المعيار منصرفاً تماماً إلى ما كان يقوم به «عبد الله بن أبي بكر» رضي الله عنه الذي يعد بحق أول من قام بجمع المعلومات السرية وإيصالها إلى صانع القرار الذي لم يكن في هذه الحالة سوى رسول الله ﷺ. فقد كانت تقاريره السرية في الأيام الأولى للهجرة إلى «المدينة»، ذات أهمية قصوى لحماية رسول الله ﷺ و «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه في تلك الرحلة المصيرية. وكان المصطفى ﷺ الذي غادر «مكة» سراً، واتخذ من «غار ثور» مخبأً له أثناء توجهه نحو «المدينة»، يوجّه هذا الشاب الكريم للاختلاط بأهل «قريش» في «مكة» خلال النهار، على أن يعود إليه خفية في الليل ليخبره بما رآه وسمعه في أرض العدو. وكان هذا «العين» وعلى مدى ثلاث ليال متتالية ينسل سراً من «مكة» إلى الموقع الذي كان يقيم فيه الرسول ﷺ مع أبيه «أبي بكر» - رضي الله عنه - وهناك كان «عبد الله» - رضي الله عنه - يقدم إلى الرسول ﷺ تقارير مفصلة عما يحدث في «مكة» ونوايا قادتها.

كان «عبد الله» يذهب ليلتقي بالرسول ﷺ وصاحبه «أبي بكر» - رضي الله عنه - بعد الغسق، فيقضي الليلة هناك، يخبرهما بما استجد في «مكة»، ثم يذهب في الصباح ليختلط بأهل «مكة» كالعادة حتى لا يلفت الأنظار بأي

شكل من الأشكال إلى نشاطاته السرية.¹⁰ وكان يعاون عبد الله في مهمته هذه شخصان: أولهما أخته «أسماء بنت أبي بكر» -رضي الله عنها-، وثانيهما هو «عامر بن فهيرة» أحد رعاة الغنم ومن الأوائل الذين ائتمنهم الرسول ﷺ بعد دخوله الإسلام. وكان هذا الراعي الأمين الذي سبق أن أعتقه الصديق وجعله يرعى ببعض غنمه يسهم في تقديم الخدمات اللوجستية للرسول ﷺ وصاحبه. فقد كان يقدم الحليب لهما ويقوم أيضاً بمسح آثار أقدام «عبد الله ابن أبي بكر» وأخته «أسماء» رضي الله عنهما عند «غار ثور» كي لا يلتفت إلى ذلك المشركون. وإلى جانب كل هذا وذاك كان «ابن فهيرة» عيناً أمينة يأتي بالأخبار للرسول ﷺ في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة. فقد كان ينسل سراً كل ليلة ومعه بعض من الماعز إلى الكهف، حتى يمد قاطني الكهف بكمية وافرة من الحليب.¹¹ وخلال النهار كان يخالط الرعاة في المنطقة ويستمع إليهم بانتباه شديد ويتذكر تفاصيل كلامهم والشائعات التي كانوا يتناقلونها. وكانت هذه التفاصيل تصل الرسول ﷺ و«أبا بكر» -رضي الله عنه- مع هبوط الليل.

أما «أسماء بنت أبي بكر» -رضي الله عنها-، فإنها قامت بواجبات الإمداد للرسول ﷺ وأبيها طوال الأيام الثلاثة التي مكثاها في «غار ثور»، فكانت توفر لهم ما يحتاجانه من الطعام. هذا ما يتصل «بواجبات الإمداد»، أما فيما يتصل «بالعمل الاستخباري» الذي كان أخوها ينهض به، فرغم أن السيرة لم تأتنا بشيء يفيد بأنها شاركت أخاها في دوره الاستطلاعي والتقاط الأخبار، إلا أنها كانت من أقرب الناس الذين كانوا في قلب الحدث العظيم (الهجرة)، التي صححت مسيرة البشرية جمعاء وحدثت بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يؤرخوا أحداثهم وأيامهم بها. فثبات «أسماء» -رضي الله عنها-، وقوة عزميتها، وحفاظها على السر الكبير، -سر هجرة الرسول ﷺ وصاحبه الأمين إلى «المدينة»- كان دون أدنى شك عملاً جباراً



الطريق التجاري السائد الذي كانت تسلكه قريش في تجارتها إلى الشام —————
الطريق الذي سلكه المصطفى ﷺ في طريق هجرته الشريفة إلى يثرب —————

في حد ذاته، يتطلب رباطة جأش وعزيمة لا تلين. فقد روى «ابن إسحاق» وغيره، عن «أسماء» -رضي الله عنها- أنها قالت:

لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر -رضي الله عنه- أتانا نفر من «قريش»، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لكمة طرح منها قرطي. قالت ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليال. وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ.¹²

وبعد ان استقر الحال بالرسول ﷺ في «المدينة»، وبدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية مع كل ما يتطلبه ذلك من استتباب الأمن والاستقرار تواصلت عمليات الجمع السري للمعلومات. وقد اتخذت هذه الممارسات أنماط عدة منها إرسال بعثات إلى ما حول «المدينة» إما لاستطلاع ميداني، أو تأكيد لمعلومات، أو اعتراض للخصم أو القتال إذا استدعى الأمر. وكانت هذه البعثات ترجع بالأخبار، وإن شئت قلت «التقارير»، عما استخلصوه وشاهدوه أثناء مهامهم تلك. ففي السنة الأولى من الهجرة ازداد تهديد أهل «مكة» للمهاجرين، وتكرر الوعيد من صناديد «قريش» بالقضاء عليهم، فما كان للمسلمين من بد، إلا محاولة الرد على الخطر بمثله، وذلك من خلال اعتماد استراتيجية ردع إسلامية يظهر فيها القوة للخصم، لمنعه من الاعتداء، وإدخال الرهبة في صفوفه، لمنعة من الحركة، تحسباً للمخاطر والخسائر التي قد يتعرض لها. كما تقوم هذه الاستراتيجية على عنصرين رئيسيين وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾¹³ فالرباط هنا المرابطة والتي تعني الجاهزية، أما الخيل ويقصد بها السرعة والمباغته للخصم.¹⁴

قضت الاستراتيجية الإسلامية بالعمل على الحد من خطر قريش وتهديداتهم وذلك بقطع عصب الاقتصاد المكي وشل حركته. فأعد المسلمون خطة عسكرية فرضوا بها حصاراً اقتصادياً على مكة، وذلك من خلال اعتراض القوافل التجارية المتجهة من وإلى «مكة»، بهدف إجبارهم إلى الجنوح للسلم والكف عن التهديد والبطش بالمستضعفين من المسلمين الذين انقطعت بهم السبل في «مكة» وغيرها.¹⁵ ولم تأت هذه الفكرة من فراغ فقد كانت ردّاً على الحصار الذي حاول مشركوا مكة فرضه على المسلمين من خلال منع القبائل من الاتجار معهم في «المدينة». ولتنفيذ هذه الخطة عمد المسلمون إلى تكثيف أنشطة «الجمع السري للمعلومات»، كونه مطلباً أساسياً لنجاحها. فتركزت أعمال الرصد والتحري على معرفة أوقات تحرك القوافل، وأعدادها، ومن يقوم عليها، والطرق التي ستسلكها في رحلاتها، أما شمالاً لبلاد الشام أو جنوباً لليمن. وبذلك أصبح نشاط الجمع محط اهتمام بالغ من مسلمي «مكة»، والمهاجرين والأنصار وحلفائهم من القبائل القاطنة على طرق القوافل التجارية.

وفي هذا الإطار، بدأت المعلومات تتواتر من المصادر المتعددة وتصل تبعاً لرسول الله ﷺ. ففي شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة أبلغ رسول الله ﷺ بمعلومات سرية تتمحور حول قدوم قافلة لـ «قريش» من «بلاد الشام» وتقصد «مكة»، وكان فيها «أبو جهل بن هاشم» وثلاثمائة رجل معه، فأمر رسول الله ﷺ بتحريك سرية لاعتراضها، قادها عمه «حمزة بن عبد المطلب» -رضي الله عنه- حيث التقاهم في موقع يدعى «سيف البحر» من ناحية «العيص».¹⁶ ويتضح لنا من ذلك مدى صحة ودقة المعلومات التي تحركت على ضوئها تلك السرية العسكرية، مما يؤكد أن تلك المصادر كانت تتمتع بدرجة عالية من المصداقية وقدرة للوصول إلى أدق المعلومات عن تحركات القوافل القرشية.

كما رصد المسلمون في شهر شوال من نفس العام معلومات أخرى عن قدوم عير لـ «قريش» متجهة إلى «مكة» عبر مكان يسمى «بطن رابغ» وكان يقودها «أبوسفيان» العدو اللدود لرسول الله ﷺ، وكان بمعيته مائتا رجل آخرين، فوجه رسول الله ﷺ لها سرية بقيادة «عبيدة بن الحارث بن المطلب» لاعتراضها، وتقابلا على ماء يقال له «أحياء» بـ «بطن رابغ»¹⁷. وهذا أيضاً ما يؤكد على براعة مصادر المسلمين في نشاط جمع المعلومات، ودقتهم في تحديد أماكن تواجد المستهدفين في عصر كان يفتقد إلى وسائل تحديد المواقع والتواصل الإلكتروني السريع. كما أن جاهزية السرايا في التحرك السريع، وتحقيق عنصر المفاجأة للخصم، لاشك ولد الرهبة، وزرع الرعب في قلوب الأعداء.

وتتواصل في السنة الأولى من الهجرة أعمال الرصد والتحري من قبل المصادر الإسلامية والعاملين معها، فنرى أنه في شهر ذو القعدة تمكنت مصادر رسول الله ﷺ، من رصد عبور عير لـ «قريش» لمكان يسمى «الخرار» وهو مكان يقع بالقرب من «الجحفة»، فيأمر الرسول الكريم ﷺ بتحريك سرية من المشاة قادها «سعد بن أبي وقاص» للحاق بها واعتراضها، فكانوا يكمنون في النهار ويسيطرون بالليل مشياً على الأقدام حتى بلغوا «الخرار»، حيث كانت القافلة قد عبرت وأفلتت منهم قبل وصولهم¹⁸. وبالرغم من ذلك إلا أن جاهزية التحرك للسرايا وسرعة الوصول لموقع العدو، بل والاقتراب منه أحياناً لدرجة الالتحام معه في نزال عسكري، قد حقق أهم أهداف استراتيجية الردع الإسلامية، ألا وهو إظهار القوة وبث الرعب في قلوب الأعداء ومنعهم من الإقدام على أي عمل قد يضر بالمسلمين في «المدينة».

ولاستمرار إحكام تنفيذ خطة «الحصار الاقتصادي» على المكين، كان ولا بد من ارتفاع وتيرة جمع المعلومات، وبالتالي ازدياد عدد الحملات

الاعتراضية لقوافل «قريش». فبعد انقضاء العام الأول للهجرة واستشعار «قريش» تعاظم خطر المسلمون عليهم وعلى قوافلهم الاقتصادية التي كانت هي الرافد الرئيسي للاقتصاد المكي، واستمر المسلمون في رصد تحركات القوافل المكية، وكان لشهر صفر من السنة الثانية للهجرة موعد مع ذلك، حين ورد لرسول الله ﷺ معلومات عن عبور غير لـ «قريش» في مكان يسمى «ودان»، قاد على إثرها حملة من المهاجرين قوامها سبعين رجلاً لاعتراضها.¹⁹

ولم تكن تلك الغزوة هي الوحيدة التي قادها رسول الله ﷺ في السنة الثانية للهجرة لاعتراض غير «قريش»، ففي شهر ربيع الأول وبعد أن نمت إلى علمه معلومات بقدم قافلة مكية مكونة من ألفين وخمسمائة بغير كان عليها «أمية بن خلف الجمحي» وبصحبه مائة رجل من «قريش»، قاد رسول الله ﷺ أيضاً حملة قوامها مئتا رجل من أصحابه لاعتراضها في جبل يدعى «بواط» من جبال جهينة على الطريق المؤدي إلى الشام.²⁰ كما قاد ﷺ غزوة أخرى في جمادى الآخرة من نفس العام وهي غزوة «ذا العشيرة» بمائتين من أصحابه، على إثر معلومات توفرت له من مصادره مكية عن خروج قافلة ضخمة من «مكة» متجهة إلى «بلاد الشام»، وعند بلوغه موقع «ذا العشيرة» وجد أن العير قد عبرت قبله بأيام.²¹ ويبدو أنه بالرغم من صحة تلك المعلومات ودقتها، إلا أنه تأخر وصولها لرسول الله ﷺ، حال دون التمكن من اعتراض القافلة في المكان والوقت المناسبين، وهو ما يؤكد لنا أهمية عامل الوقت عند تمرير المعلومات الاستخبارية.

ويمكن القول هنا بأن العيون التي كانت ترصد المعلومات لرسول الله ﷺ كانت على قدر كبير من المصداقية وذات قدرة للوصول لأدق المعلومات، فالحرب الاقتصادية التي اضطر المسلمون إلى شنها ضد أهل «مكة»، الذين

عادوا المسلمين وألبوا عليهم - كما أوضحنا سابقاً خلال السنتين الأولى من الهجرة النبوية الكريمة - لذا عمل الرسول ﷺ كل ما بوسعه لاعتراض طرق سير قوافلهم التي تربط «مكة» بالعالم الخارجي، لا سيما الطرق البرية منها. وكان أهمها التي رصدت له مصادره عن قدوم قافلة لـ «قريش» كانت قد أفلتت منه في «غزوة ذا العشيرة» وكانت عائدة بقيادة «أبي سفيان»، أحد أغنى أغنياء زعماء «قريش» وأكثرهم نفوذاً، فأمر الرسول ﷺ رجلين من أصحابه على الفور للبحث والتحري ورصد أخبارها، فمكث المكلفان بمنطقة تدعى «الحوراء» على الطريق البري الذي كانت تسلكه القوافل التجارية حتى مرت بهم القافلة، وعرفا حجم حمولتها، وطبيعتها على نحو دقيق.²² وعلى الفور نقلتا تلك المعلومات المهمة إلى الرسول ﷺ، التي أخذها في الحسبان وهو يخطط للدفاع عن مصالح المسلمين، وعن دولتهم الفتية. وقد تمخض الأمر في النهاية عن أول تعرض عسكري إسلامي حقق نجاحاً فاق كل التصورات والحسابات آنذاك ونقصد بهذا «غزوة بدر الكبرى».

على أن أعداء الدعوة الإسلامية في «مكة» لم يكونوا أقل خبرة بالعمل السري، وجمع المعلومات، وتوظيف المعلومة الاستخبارية عن المسلمين وأوضاعهم وتحركاتهم. ونذكر على سبيل المثال أن «أبا سفيان»، الذي كان الهاجس الأمني يواكبه على الدوام، سأل أثناء عودته بقافلته من «الشام» بعض أصحابه إن كان أحدهم قد رأى غرباء، أو سمع عن عيون يعملون لحساب الرسول ﷺ. عندها علم بخبر الرجلين اللذين أرسلتا للتحري عن تلك القافلة. فطلب معرفة مكان راحلتها وعندما أوصلوه للمكان الذي ربطا فيه جمليهما، أمر «أبو سفيان» رجاله للإتيان ببعض من روث هذين الجمليين. ولدى تفحص هذا الروث اكتشف أن فيها بعضاً من نوى تمر «المدينة المنورة». مما أكد له ظنونه، بيد أنه ما أن رأى نوى التمر حتى صرخ قائلاً: "إن هذه النوى لتمر يثرب، ولا بد أن الرجلين من جواسيس محمد". ثم أمر القافلة على الفور بأن

تغير طريقها وأن تحت في سيرها.²³

وفي السياق نفسه نشير إلى أن الرسول ﷺ أراد قبل «فتح مكة» أن يعتمر إليها، وبدأ السير ومعه سبعمائة من أصحابه. عندما وصلوا مكاناً يسمى «ذو الحليفة»،²⁴ أرسل عيناً إلى «مكة» يخالط «قريشاً» فيجمع منهم معلومات عن نواياهم وخططهم ويركز بالتحديد على رد فعل أهل «مكة» على العمرة تلك. وقد أتم هذا العين مهمته ووافى الرسول ﷺ عند مكان يدعى غدير ذات الأشطاط،²⁵ فقال:

" يا رسول الله تركت قومك، كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا، وهابوا أن تدخل عليهم عنوة وقد استنفروا لك الأحابيش، ومن أطاعهم معهم العوذ المطافيل قد لبسوا لك جلد النمر ليصدوك عن المسجد الحرام، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا بها الأبنية وتركت عمادهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى إليهم في دورهم وقدموا الخيل عليها خالد بن الوليد، مائتى فرس، وهذه خيلهم بالغميم وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد." ²⁶

إن ما رواه «الواقدي» من استعدادات الرسول ﷺ لفتح «مكة» يثبت على نحو واضح أن ما يعرف في مصطلحاتنا الحديثة بـ «الاستخبارات العسكرية» كانت تحتل أولوية خاصة عند رسول الله ﷺ في كل المعارك والغزوات التي قادها الرسول ﷺ أو خطط لها. ومن ذلك أنه أمر ليلة «غزو حنين» أحد عيونيه بأن يتحسس على العدو، ليعرف ما تقوله الناس ويستكشف ما يقوله قائدهم «مالك بن عوف النصري»²⁷ حول المواجهة الوشيكة بين المسلمين وبين الجيش الكبير الذي حشده «مالك» من قبائل «هوازن» واعوانها. توجه

المبعوث وانسل إلى خيمة كان أتباع «مالك بن عوف» مجتمعين فيها فسمع هذا العين «مالك بن عوف» وهو يقول للمجتمعين:

«إن محمداً لم يقاتل يوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم. فإذا كان السَّحَرُ فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم وراءكم، ثم تكون الحملة منكم واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً.»²⁸

وغني عن البيان ان التصدي الى كل من كانوا يشكلون خطورة على الاسلام والمسلمين كان من المهمات التي تستدعي بالضرورة التعامل معهم بكل حزم وقوة، كلما دعت الحاجة. وهكذا تم التخلص من رؤوس الفتنة ومروجي الاكاذيب من مثل «أسير بن زارم»²⁹ حيث تم القضاء عليه والتخلص منه لأنه كان يقف في طريق الدعوة إلى وحدانية الله ويحاول النيل من سمعة الاسلام ومن سمعة رسول الله. وفي هذا السياق يشار الى ان الرسول الكريم ﷺ أمر أحد أصحابه بأن يتسلل إلى قبيلة «غطفان» اليهودية ليرقب نشاط قائدهم «أسير بن زارم»، الذي تواترت المعلومات بأنه يقود حملة تشويه ضد الرسول الكريم ﷺ، حيث روج بأن الرسول ﷺ لا هدف له سوى أن يتخلص من اليهود.

"ولكن -هكذا قال «أسير»- أعلم كيف أتعامل معه، وأصنع ما لا يصنع أصحابي". "وما عساك أن تصنع ما لم يصنع أصحابك؟" -هكذا قالت الناس- فرد يقول إنه سيسير في «غطفان» فيجمعها، ثم يأمرها بأن تسير إلى الرسول ﷺ فتقاتله في عقر داره. «فإنه لم يُغز أحد في داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد».³⁰

ومن حكمة الرسول ﷺ أنه كان يتثبت من صحة ما يرده من أنباء من مصادر متفرقة. ومن أمثلة ذلك أنه حين لم يشعر بالاطمئنان التام للخبر الذي أتى به المبعوث الأول بعث برجل آخر يتحسس على هذا الزعيم اليهودي. وقد أكد المصدر الثاني الأنباء التي تلقاها الرسول ﷺ من العنصر الأول، فقال: "تركت «أسير بن زارم» يسير إليك في كتائب اليهود". وندب الرسول ﷺ الناس، للسفر جهة «أسير»، فانتدب له ثلاثون رجلاً وأمر عليهم «عبد الله بن رواحة». وذهب «عبد الله» وصحبه إلى «خيبر» لمقابلة «أسير»، وعرضوا عليه السلم. ولقد رضي «أسير بن زارم» أول الأمر وخرج مع المسلمين ونفر من أصحابه حتى يتمموا هذا الأمر عند رسول الله ﷺ، إلا أن «أسيراً» وهم في الطريق مال إلى رأي آخر. وهنا حدث قتال بين الطرفين قتل فيه «أسير» وجماعته.³¹

ويمكن استجلاء الأهمية التي كان يوليها بناء الدولة الإسلامية للمعلومات الاستخبارية البشرية، أو ما يطلق عليها بالإنجليزية الآن «HUMINT»، من خلال التوجيهات التي كان الرسول ﷺ يصدرها في العادة إلى قادة السرايا والألوية قبل انطلاقهم في مهماتهم. ومن ذلك ما أوصى به «أسامة بن زيد بن حارثة» رضي الله عنه، عندما أرسله في كتيبة إلى الروم فقال له الرسول الكريم ﷺ:

"يا أسامة سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبني وحرقت عليهم وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون أمامك والطلائع".³²

وغني عن القول أن استخدام «الأدلاء» و«العيون» و«الطلائع». في

المهام التي أوكلها الرسول الكريم ﷺ لقادته يشير إلى المنحى الاستخباري الذي انطوت عليه أهمية المعلومات. وتدل النجاحات التي حققتها العمليات العسكرية والاستخبارية في صدر الإسلام، على أن المصادر الاستخبارية التي أقام الرسول ﷺ استراتيجياته عليها كانت دقيقة وموثوقة للغاية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر التي كانت تمتد بناة الدولة الإسلامية الناشئة كانت من أصول وخلفيات وعرقيات مختلفة. فقد شملت أناساً من مختلف طبقات المجتمعات، حيث كانت تضم النساء والرجال، الشباب والشيوخ، الأغنياء والفقراء، الأحرار والعبيد، العرب وغير العرب ومن قرابة الرسول ﷺ وغير قرابته. على أن ما كان يربط كل هؤلاء هو التفاني والتضحية في سبيل القضية العادلة التي آمنوا بها إلى جانب الانضباط والالتزام الشديد بالمراتبية والسرية واحترام وحدة القيادة.³³

ويشير بعض الباحثين إلى أن الرسول ﷺ كان يستقي بعض معلوماته الاستخبارية من مصادر أخرى كانت تضم على سبيل المثال لا الحصر الأقباط، وبعض المسافرين السوريين، إلى جانب نفر من التجار المحليين. فهؤلاء كانوا يقدمون معلوماتهم، إما طوعية أو مقابل مكافآت مادية على هيئة مبالغ نقدية، أو هدايا عينية كقطع السلاح على سبيل المثال، أو خلافة. وقد لجأ المسلمون الأوائل أيضاً إلى ابتعاث أفراد لمهام محددة أو تكليف بعض حاملي الرسائل للحصول على معلومات تخص بلداناً وأناساً بعينهم يتم إرسالهم إليهم. وكانت الحصانة والغطاء التجاري التي يتمتع بها هؤلاء التجار والمتنقلون، تمكنهم من الانتقال من مكان إلى آخر بيسر وسهولة ومن الاختلاط بحرية أكبر مع المستهدفين.³⁴

٣١: السنة النبوية الشريفة وعناصر الاستخبارات

عند تناول الدور الذي نهضت به أجهزة الأمن في العصر النبوي وتحديدًا ما قام به رجال الاستخبارات المضادة -إن جازت تسميتهم بذلك- حماية لمصالح المسلمين الأوائل، فإنه لابد أن نأخذ في عين الاعتبار بأن دعوة النبي ﷺ إلى الدين الجديد كانت في بادئ الأمر محاطة بالسرية التامة. فخلال السنوات الثلاث الأولى المعروفة بمرحلة السرية، كانت كل تحركات الرسول ﷺ، واتصالاته، ولقاءاته تجري بعيداً عن أعين «قريش» ورقابتهم. ثم تبعت هذه السنوات الصعبة التي اتسمت بالصبر والكفاح المير مرحلة جهادية جديدة هي مرحلة العلن، حين بدأ المسلمون حملة دؤوبة، مفتوحة، نشطة للتعريف بالدين الجديد، ونشر كلمة الحق لا بين أهل «مكة» وما جاورها بل في بقية المجتمعات المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية كافة وإلى خارجها فيما بعد. ولم يأل الرسول ﷺ وأصحابه جهداً أو يدخروا وسيلة أو مالا في سبيل نشر مبادئ الإسلام ونوره، وهم يركزون جل مجهودهم على الحج وأيام الأسواق والاحتفالات العامة والمناسبات المهمة.

لكن الجهر بالدعوة إلى الدين الجديد -على كل حال- لا يعني أبداً وضع حد للسرية، كوسيلة متبعة لتحقيق الهدف السامي المنشود. فبالنظر إلى المقاومة الشرسة التي أبداها المشركون، لرسالة محمد ﷺ، ناهيك عن البيئة العدوانية التي كانت تحيط بهم، حيث كانت عيون «قريش» تلاحقهم في كل مكان، كان لابد للرسول ﷺ أن يجد طرقاً مناسبة فعالة للاستجابة

لهذه الأخطار المحيقة. وتشير الوقائع والسجلات التاريخية التي وردتنا عن صدر الإسلام، أن أصحاب الرسول ﷺ قد تمكنوا من كشف عدد من جواسيس الكفار والمشركين، وأفلحوا أيضاً في إحباط العديد من العمليات السرية المعادية.

ونشير هنا على سبيل المثال إلى حادثة وقعت أثناء «غزوة بني المصطلق». فقبل وقوع الاشتباك، تمكنت طلائع جيش الرسول ﷺ من أسر أحد جواسيس العدو. ولدى استجوابه رفض الرجل أن يزود المسلمين بأي تفاصيل عن مهمته، أو عن مكان سيده، أو عن استعدادات قومه للحرب. وعندما أحضروه إلى «عمر بن الخطاب» الذي كثيراً ما كان يتولى «شئون الأمن والاستخبارات» - إن جازت التسمية - وذلك في عهد الرسول ﷺ، أصدر أمير المؤمنين تحذيراً بلهجة شديدة قائلاً:

"لتصدقن أو لأضربن عنقك". عند ذاك قال الرجل: «أنا رجل من بني المصطلق، تركت «الحارث بن أبي ضرار» وقد جمع لكم الجموع، وتجلب إليه ناس كثير، وبعثني إليكم لآتيه بخبركم، وهل تحركتم من «المدينة»". فأتى «عمر» بذلك الرجل رسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى، وقال: «لست بمتبع دينكم حتى أنظر ما يصنع قومي. إن دخلوا دينكم كنت كأحدهم وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجل منهم». فمضى «عمر»... فضرب عنقه، فذهب الخبر إلى «بني المصطلق».³⁵ ووصل خبر موت جاسوسهم، وهو ما قصده المسلمون من وراء قتله. وعن ذلك تقول بنت زعيم القبيلة، أم المؤمنين «جويرية بنت الحارث»، التي تزوجها الرسول ﷺ بعد أن أسلمت: "جاءنا خبر مقتله ومسير رسول الله

ﷺ. قبل أن يقدم إلينا النبي ﷺ فسيء أبي ومن معه،
وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان قد اجتمع إليهم
من أفناء العرب، فما بقي منهم أحد سواهم".³⁶

وفي مساعيه الحثيثة لدفع الاخطار، وتعزيز مكاسب الدولة الإسلامية
في «المدينة»، كان الرسول ﷺ يؤكد على ضرورة الحفاظ على روح اليقظة
والحذر على الدوام، وكان يؤمن أيضاً أن الأمن الداخلي للدولة الإسلامية
الفتية يستدعي الحزم مع خائني العهد، أو أعداء الداخل إن صح التعبير،
بسبب ما قد يتم تدبيره في الخارج من شرور ضد الدولة. بمعنى أدق،
فإن ذلك كان يعني أن الذي يتصل بعناصر غير مسلمة، ويدخل الدولة
بشكل غير مشروع، أو يحاول مساعدة أطراف معادية للرسول ﷺ، يتم
اعتقاله واستجوابه ومعاقبته. فمن يثبت تعاونه مع جهات معادية لقوات
الدولة الإسلامية يتم التعامل معه بكل حزم، ويتم حينئذ تطبيق إجراءات
أمن الدولة والاستخبارات المضادة ضده. وفي الوقت الذي كان الرسول
ﷺ نفسه هو القائد العام لأمن الدولة في «المدينة» (بوصفه قائد الكيان
الإسلامي ونبيّاً مرسلًا) فإن «عمر بن الخطاب» كان يدير آلة الأمن
والاستخبارات المضادة، ويشرف على تطبيق الأوامر اليومية ويتابع تنفيذ
السياسات الأمنية.³⁷

ومن الأمثلة النيرة التي تساق في مجال الاستخبارات
المضادة، والأساليب التي استعملها المسلمون الأوائل في مكافحة التجسس،
والتصدي لعيون الأعداء، نذكر قضية الصحابي الجليل «عباد بن بشر
الأشهل»، أحد أمناء الرسول ﷺ وحراسه الأوفياء. ومن مآثر هذا المجاهد
الكبير، أنه تنفذاً لأوامر الرسول ﷺ، تمكن من اختراق مناطق العدو، عشية
الهجوم على مدينة «خيبر» المحصنة، بهدف استكشاف المنطقة، والتعرف

على استحکامات العدو، وتقييم جاهزيته القتالية. وكان «عباد» الذي شهدت له ساحات القتال بالصولات والجولات، على رأس سرية مكلفة باستطلاع المنطقة، والتثبت فيما إذا كان العدو قد نصب بعض الكمائن، أو الأفخاخ، لاعتراض المسلمين القادمين. وكانت الأوامر التي أصدرها الرسول ﷺ إليه تقضي أيضاً بأن يفعل ما بوسعه، دون أن يكشف عن هويته، ليتخلل في عمق خبير حتى يُقيّم الوضع العام عن كثب، وينقل تفاصيل استعدادات العدو الدفاعية.

وأثناء بحث هذه السرية عن قرائن لوجود جيش للعدو، أو نشاط استخباري، صادف رجال «عباد» أعرابياً خارج خيبر. أخبرهم الأعرابي أنه راعي إبل يبحث عن بعض الجمال كانت تاهت منه. وعندما سأله عما إذا كان يعرف شيئاً عن يهود خيبر، قال إن أخباره قليلة، حيث أنه لم يلتق بهم إلا مؤخراً،³⁸ على أنه أخبرهم بأن اثنين من قادة اليهود سافرا بعيداً، يجمعان المقاتلين ضد الرسول ﷺ، واتصلوا أيضاً بحلفائهم في غطفان، وضمنوا مساعدتهم مقابل مؤونة سنة واحدة من تمر خيبر، وأضاف أن غطفان أمدّت يهود خيبر بعشرة آلاف مقاتل مدجج السلاح، ومعهم المؤن والماشية والطعام، وأنهم وصلوا خيبر بالفعل وعلى استعداد لصد أي هجوم، مشيراً إلى أنهم قادرون على احتمال أي حصار، حتى لو طال سنوات.³⁹ لكن «عباد» أدرك بفطنته الاستخبارية أن الرجل بات يوغل في تمرير أكذوبة متعمدة، أي ما يسمى في علم الاستخبارات «المعلومات المغلوطة، Disinformation»، كانت تستهدف الإيهام والتعتيم وأن وراء الأكمة ما وراءها: "وعلى أثر ما سمعه العباد، ودون أن يتفوه بكلمة

رفع السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك، فقال الأعرابي: أفتؤمنني على أن أصدقك؟ قال عباد: نعم، فقال الأعرابي: القوم مرعوبون

منكم خائفون وجلون لما قد صنعتم بمن كان يشرب من اليهود... وقال لى كنانة (أحد زعماء اليهود): اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحرزهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا حتى تثنيهم عن مهاجمة خيبر.⁴⁰

وكان من المهم للرجال الذين كان الرسول ﷺ يصدر أوامره إليهم، ويبعثهم في مهمات الاستخبارات المضادة، سواء من كان يكلفهم بجمع المعلومات، أو بتنفيذ عمليات سرية، أن ينهضوا بمهامهم بكل سرية، ودون الكشف عن هوياتهم، وأن يخفوا تحركاتهم، وأن ينصرفوا إلى مهامهم تحت جنح الليل. ونعود هنا مرة أخرى إلى بعض أحداث خيبر، لنشير إلى أن الرسول ﷺ أصدر أوامره بنشر سرية تحت قيادة «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه لشن ضربة استباقية ضد «غطفان»، التي كانت متحالفة مع «يهود خيبر» وتمدهم بالرجال والسلاح والمؤن. تقدمت السرية إلى هدفها المحدد، راكبين مطاياهم ليلاً وكامنين نهاراً حتى وصلوا مكاناً يدعى «الهمج»، فأبصروا أحد رجال «غطفان» فأخذوه أسيراً. واقتادوه إلى «عمر بن الخطاب»، الذي بدأ يستجوبه سائلاً: من أين أتى، وماذا كان يريد. فبدأ الرجل متردداً، ومقتضباً في ردوده، لكنه ما لبث أن كشف بعد برهة من الوقت عن حقيقة أمره، حين أرغم⁴¹ على الاعتراف بأنه جاسوس، وأنه يحمل رسالة من «غطفان» إلى «يهود خيبر» يقايضونهم فيها بالتمر مقابل مساعدتهم في الحرب. وعندما سئل عما إذا كان هناك مقاتلون في طريقهم إلى قصور «خيبر»، أجابهم بأن هناك مائتين من الرجال تحت قيادة «وبر بن عليم» في طريقهم إلى «خيبر». وحتى يتحاشى الموت أبدى الرجل تعاونه مخبراً عن موقع معسكر «غطفان»، إلا أنه عند وصول السرية إلى هناك، وللتأكد من صحة قوله كان الغطفانيون قد فروا جميعاً.⁴²

وكانت الاستخبارات المضادة تتطلب في كثير من الأحيان القيام بهجمات تمويهية، أو استباقية، كما أشير إلى ذلك آنفاً. وهنا لا بد من استذكار «غزوة ذي أمر» التي أصدر الرسول الكريم ﷺ فيها أوامره بالسير إلى جيش «دعثور بن الحارث بن محارب». وكان المسلمون قد علموا بأن رجال دعثور من قبيلتي «ثعلبة» و«محارب» يخططون لمهاجمة مواقع المسلمين، فرد الرسول ﷺ بأن أرسل جيشاً فيه أربعمئة وخمسين مقاتلاً، بين راكب وراجل. وكان الغرض من هذا التحرك إيقاع الرعب في القلوب، وكسب الحرب عن طريق كسر إرادة العدو وشوكته. وفي الطريق رصد المسلمون رجلاً كان في طريقه إلى «المدينة» لحاجة كان يريد قضاءها. وعندما سأله عما سمع أو رأى، قال إنه سمع برجل يدعى «دعثور بن الحارث» يسير في جماعة من الرجال غير المسلحين. فأخذوه إلى رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام، وكان مما قاله الرجل:

”يا محمد إنهم (رجال غطفان) لن يلاقوك، إن سمعوا بمسيرك هربوا في رءوس الجبال، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم“... وعندما وصل المسلمون حيث معسكر الغطفانيين، لم يجدوا أحداً. كان جميع الرجال الذين جمعهم «دعثور» قد هربوا، ولاذوا بقمم الجبال.⁴³

ومن الأساليب الاستثنائية التي اعتمدها رسول الله ﷺ قبل انطلاقه من «المدينة» لفتح «مكة»، أنه سعى إلى التعتيم التام على خططه وإلى خداع استخبارات العدو والتمويه على «قريش» حتى لا تهتدي إلى ما كان يرمي إليه. وهكذا اتخذ الرسول ﷺ خطوات احترازية مشددة، يمكن وصفها بما يسمى في عصرنا هذا بإعلان تطبيق القوانين العسكرية، أو قوانين الطوارئ. ومن ذلك أنه أمر بإغلاق الطرق المؤدية إلى «مكة»، وضاعف عدد دوريات الحراسة وأعطى الحراس سلطات غير اعتيادية للحوول دون

الخروج من «المدينة» أو الدخول إليها حيث لم يُسمح لأحد بأن يدخل أو يغادر حتى يفصح عن كلمة السر المتفق عليها. والذين كانوا في طريقهم إلى «مكة» دون تفويض، كانوا يُحتجزون حتى يتم التثبت من هوياتهم والتحقق من شأنهم.⁴⁴

وكانت هذه التدابير الوقائية تستدعي أيضاً إخفاء نوايا وخطط الحرب، عن جميع أصحاب رسول الله ﷺ وقادته، سوى «أبي بكر»، و«عمر بن الخطاب» رضي الله عنهما. إلا أن أحد الصحابة تمكن على هذا النحو أو ذاك أن يكتشف الوجهة لهذه المناورات العسكرية. وكما أشرنا إلى الحادثة سابقاً، فقد نَمى إلى علم «حاطب بن أبي بلتعة»⁴⁵ بأن المسلمين كانوا في واقع الحال يخططون لفتح «مكة»، ومداهمة جيش «قريش» على حين غرة. وبعد أن أدرك «ابن بلتعة» الهدف الحقيقي لخطة الرسول ﷺ تقدم إلى إحدى النساء وسلمها رسالة سرية طلب تسليمها إلى ثلاثة من أشرف «قريش»، يقول فيها:

«إن رسول الله ﷺ قد أذن في الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم»⁴⁶ وبعد أن سلم الخطاب إلى المرأة طلب منها «حاطب» أن تجتنب الطريق الرئيس إلى «مكة»، حيث كان مراقباً من الحراس، فسلكت طريقاً آخر. لكن رسول الله ﷺ علم بمحاولة تسريب هذه المعلومات المهمة إلى «قريش»، فتم اعتراض المرأة قبل أن تصل «مكة».⁴⁷ فأرسل على أثرها طليعة بقيادة «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه فأدركوا المرأة بالحليفة.

وتحمل القصة في ثناياها عبراً عميقة. منها أنه لولا لطف الله ورعايته

لِلرَّسُولِ ﷺ وَصَحْبِهِ لَرِيْمَا حَدَثَ مَا لَا يَحْمَدُ عَقْبَاهُ. فَإِنْ انْكَشَافَ أَمْرُ سِيرِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى «مَكَّةَ» كَانَ سَيُعْطَلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عُنْصُرُ الْمَفَاجَأَةِ، وَلَرِيْمَا وَقَعَتْ حَرْبٌ وَأَزْهَقَتْ نَفُوسٌ كَثِيرَةٌ. وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾⁴⁸.

وَمِنَ الْعِبَرِ أَيْضًا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ النَّبِيُّ الْمَوْحَى إِلَيْهِ، كَانَ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْأَسْبَابِ فِي إِتْمَامِ شُئُونِ دُنْيَا. فَقَدْ كَتَمَ أَمْرَ «فَتْحِ مَكَّةَ» إِلَّا عَنِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَضَرَبَ بِسِيَاحٍ مِنَ الرِّقَابَةِ حَوْلَ «الْمَدِينَةِ»، لِيَحُولَ بِهَا -قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ- دُونَ وَصُولِ خَبَرِ خُرُوجِهِ مِنْ «الْمَدِينَةِ»، اتِّجَاهَ «مَكَّةَ». وَلَكِنْ وَرَغْمَ كُلِّ هَذِهِ الْأَحْتِيَاظَاتِ، تَسَلَّلَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ حَامِلَةً مَعَهَا رِسَالَةَ «حَاطِبٍ» إِلَى «قَرِيْشٍ». لَكِنْ عَنَاءُ اللَّهِ أَدْرَكَتِ الرِّسُولَ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ.

وَلَمْ تَنْفَرِدِ «قَرِيْشٌ»، فِي الْأَيَّامِ الَّتِي سَبَقَتْ «فَتْحَ مَكَّةَ»، بِشُعُورِهَا الْعَامِ بِالْقَلْقِ وَعَدَمِ الْأَمَانِ وَالْخَوْفِ مِنْ أَنَّ الرِّسُولَ ﷺ قَدْ يَسْتَهْدِفُهُمْ، بَلْ كَانَتْ هُنَاكَ قِبَائِلٌ أُخْرَى فِي مِثْلِ حَالِهَا. وَعَلَى آيَةِ حَالٍ فَالَى جَانِبِ مِشَاعِرِ التَّرَقُّبِ وَالْغُمُوضِ وَالْقَلْقِ دَاخِلَ «مَكَّةَ» وَحَوْلَهَا، نَجَحَ هَذَا الْأَسْلُوبُ فِي «الاسْتِخْبَارِ الْمَضَادِّ» فِي كَشْفِ وَأَسْرِ عَدَدٍ مِنْ جَوَاسِيسِ «قَرِيْشٍ» الَّذِينَ كَانُوا يَجْمَعُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ جَيْشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَطَطِهِ الْحَرْبِيَّةِ. فَقَدْ تَمَكَّنَتْ «اسْتِخْبَارَاتُ الْمَدِينَةِ» عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى «فِرَاتِ بْنِ حِيَانَ الْقَرَشِيِّ»، الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ عِنْدَ خَصْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «أَبِي سَفْيَانَ». وَكَادَ فِرَاتُ أَنْ يُعْدَمَ، إِلَّا أَنَّهُ نَجَا مِنَ الْمَوْتِ عِنْدَمَا اعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ. يَذْكُرُ أَيْضًا أَنَّهُ وَمِنْ خِلَالِ شَبَكَةِ الْعَيُونِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ اسْتِطَاعَ الرِّسُولِ -وَكَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ فِي أَمَاكِنٍ أُخْرَى⁴⁹- فِي كَشْفِ خُطَطِ «قَرِيْشٍ» لِاسْتَهْدَافِهِ وَقَتْلِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ فِتْرَةٍ بَسِيطَةٍ جَدًّا مِنْ سَاعَةِ تَنْفِيزِ مَخْطَطِهِمُ الْغَادِرِ. فَلَوْلَا

عناية الله سبحانه وتعالى ثم يقظة عيون رسول الله ﷺ المنتشرين، لما استطاع الخروج من «مكة» بأمان.

ويشار هنا الى أن «استخبارات المدينة» حققت نجاحات كثيرة في مجال الذود عن حياة الرسول ﷺ، وإحباط العديد من المكائد، والمؤامرات التي لم تنفك تحاك ضده، ومن ذلك محاولة «عمير بن وهب الجُمحي» قتل النبي ﷺ، وقد أثبت المسئولون عن أمن الرسول ﷺ قدرة فائقة في التعامل مع تلك المؤامرة، واحترافية عالية في كشفها، ودقة في تنفيذ العمل الاستخباري.

ويتناول الواقدي واقعة مهمة أخرى تمكّن فيها رجال رسول الله ﷺ من أسر جاسوس من «قبيلة هوازن» المعادية أثناء طريقهم إلى «فتح مكة». فبعد أن رأوا منه خلطاً في الكلام، اقتادوه إلى الرسول ﷺ. حيث روى «الواقدي» ما دار من حديث بين «الجاسوس القرشي» ورجال الرسول ﷺ:

"لتصدقنا أو لنضربن عنقك قال: فإن صدقتكم ينفعني ذلك عندكم؟ قلنا: نعم. قال: فإنى رجل من «هوازن» من «بنى نصر» بعثتنى «هوازن» عينا. وقالوا: انت «المدينة» حتى تلقى محمداً، فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه، أيبعث إلى «قريش» بعثاً، أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه إلا يستغورهم، فإن خرج سائراً، أو بعث بعثاً، فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد «قريشاً» فسيلزم الطريق. فقال رسول الله ﷺ: "وأين هوازن؟" قال: تركتهم ببقعاء، وقد جمعوا الجموع وأجلبوا فى العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش فى عمل الدبابات والمنجنيق،⁵⁰ وهم

سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً. قال رسول الله ﷺ: "وإلى من جعلوا أمرهم"؟ قال: إلى فتاهم «مالك بن عوف». قال رسول الله ﷺ: "وكل «هوازن» قد أجاب إلى ما دعا إليه «مالك»؟ قال: قد أبطأ من بنى عامر أهل الجد والجلد. قال: "من"؟ قال: «كعب» و«كلاب». قال: "ما فعلت «هلال»؟ قال: "ما أقل من ضوى إليه منهم، وقد مررت بقومك أمس بـ «بكة»، وقد قدم عليهم «أبو سفيان بن حرب» فرأيتهم ساخطين لما جاء به وهم خائفون وجلون".⁵¹

لم يكن النشاط الاستخباري لرجال الرسول ﷺ قاصراً على كشف العمليات، أو إحباط ما كان أعداؤهم في المنطقة، أو في الجزيرة عموماً، يخططون لتقويض دولتهم الفتية والانقراض عليها، بل نجحوا أيضاً نجاحاً كبيراً في كشف المؤامرات الأجنبية لزرع العيون، أو تأسيس «محطة للتجسس» عليهم. ومن ذلك كشفهم لخطة بيزنطية دقيقة لتأسيس وكر للتجسس عليهم. فبعد تسع سنوات فقط من تأسيس الرسول ﷺ دولة الإسلام في «المدينة»، أمر البيزنطيون أحد عملائهم في «المدينة» وهو القسيس «أبو عامر الخزرجي»، أن يؤسس ما يمكن أن نسميه «محطة» لهم، يستطيعون من خلالها رصد أصحاب الرسول ﷺ، والتخطيط لهدم ما شيّدوه من بنيان. وهكذا أمر الفاسق خليفته في «المدينة» بأن ببناء مسجد جديد ليكون ملاذاً آمناً له ولعملائه. وكان الغرض الظاهري وراء بناء المسجد الجديد أنه سيلبي احتياجات المسلمين الدينية. وهكذا كان اختيارهم للمسجد كغطاء أمراً ينم عن مكر شديد، لاسيما أن الموقع الذي تم اختياره ليكون وكرّاً للتآمر كان بالقرب من «مسجد قباء»، الذي سبق لرجال رسول الله ﷺ أن بنوه في وقت سابق. وأمر هذا القسيس بعض أتباعه بأن يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يفتحه ويبارك لهم مسجدهم بالصلاة فيه.

لكن الرسول ﷺ طلب منهم التريث وأن يؤخروا ذلك إلى وقت آخر حيث كان المسلمون في سفر إلى تبوك يتأهبون لمقاتلة الروم. وعندما تبين حقيقة أمر مسجد «ضرار»، أمر الرسول ﷺ بهدمه.⁵² قال تعالى في هذا الشأن:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ
عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾⁵³

رغم أن الله -عز وجل- هو الذي أسبغ عنايته السماوية على الرسول ﷺ وعلى أصحابه، وأرشدتهم إلى الكشف عن هذه المؤامرة التي تحاك ضدهم، إلا أن العبرة المستخلصة مما حدث، هي أن مباغطة الأعداء قبل أن يمسكوا بزمام المبادرة خيار إسلامي متين، ويتأكد في ظروف الحذر وظروف الحرب. ومن العبر المستخلصة الأخرى أيضاً عدم الانبهار أو الانسياق وراء ظواهر الأمور والانشغال عن بواطنها، لا سيما إن كان هناك ما يدعو إلى الارتياح في أن الظاهر يخفي وراءه باطناً غيره. وغني عن القول أنه ينبغي على الساهرين على أمن البلاد والعباد ألا يلجأوا إلى خطة عمل، إلا إذا كان لديهم في ذلك دليل يستدلون به على الطريق، أو دليل إدانة، يستدلون به على الذنب.

على أن القرشيين لم يدعوا رجال الاستخبارات المسلمين يهزمونهم بهذه السهولة. فكما كان المسلمون يسعون دوماً إلى جمع المعلومات، وإحباط العمليات السرية، كان القرشيون من جانبهم يواصلون أنشطتهم الاستخبارية الخاصة. ففي واحدة من العمليات الناجحة، التي تناولناها آنفاً استطاع رجال «أبي سفيان» اكتشاف عيينين من عيون الرسول ﷺ

كان أرسلهما للرصد والتجسس على تحركات القوافل عبر الجزيرة، وذلك بفحص روث بغيريهما. ومن الجدير هنا الإشارة إلى أن هذه المحاولة للحصول على المعلومات بواسطة أساليب نوعية وكمية، تمثل شكلاً مبكراً لما يُعرف في المصطلحات الحديثة باستخبارات «التوقيع والقياس»⁵⁴ (MASINT).

٣.١.٣ التحليل والتوزيع

لا يستطيع صنّاع القرار إعداد القرارات الصحيحة أو المناسبة للعرض على متخذ القرار إلا إذا توفرت لديهم المعلومات الدقيقة، والتحليلات الاستخبارية الصحيحة، مدعمة بالاستنتاج والآراء والتوصيات الرصينة من الخبراء وذوي الاختصاص في هذا الشأن. ففي زمن الحرب والأزمات -على سبيل المثال- تصبح عملية الحصول على معلومات ذات العلاقة في منتهى الأهمية. ذلك أن عدم القدرة على جمع الكمّ الكافي من المعلومات، أو الفشل في تحليل المتوفر منها، وغياب التقييم الموضوعي المتوازن للمعطيات، قد يُعرّض أمن الدولة بأسرها للخطر الجسيم. كان رسول الله ﷺ مدركاً لهذه الحقيقة الأساسية، ويأخذ بها على الدوام. فكان شديد الحذر عند إعداد لأي أمر كان، من خلال تحليله للمعلومات التي ترده من عيونه المنتشرة في المواقع المختلفة، أو ما قد نطلق عليها «الشبكات الاستخبارية»، وذلك بعد التثبت منها وتأكيدها. ففي زمن الحرب قد يشمل ذلك القيام بنشاطات متعددة مختلفة في وقت واحد، كمراقبة تحركات القوات المعادية وتعدادها، ورصد مخازن مؤنهم، وتعداد وصناعة أسلحتهم، كما قد يتطلب الأمر أيضاً اتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة التي تتعلق بنشر المقاتلين على الجبهات، أو إعادة توجيه القوافل عبر طرق بديلة، ونشاطات أخرى ذات علاقة بالاستعداد للحرب.

ومن الأمثلة المعروفة التي تدل على يقظة الرسول ﷺ الدائمة، واستعداده للمنازلة المدروسة ما حدث في ليلة معركة بدر، حيث أرسل ثلاثة من أقرب المقربين إليه ومن كبار صحابته وهم «علي بن أبي طالب»⁵⁵، و«الزبير بن العوام»⁵⁶، و«سعد بن أبي وقاص»⁵⁷، لاستطلاع المنطقة التي كانت ستشهد أول مواجهة كبرى مع عدوهم «قريش». وقد انطلق الثلاثة إلى مكان معروف بوفرة الماء حيث كانت القوافل تقصده ويتزود منه أيضاً قاطنو المناطق القريبة منه. وما أن وصل فريق الاستطلاع المذكور حتى رمق غلامين يقتربان من بئر من الآبار فأسروهما واقتادوهما إلى مقر رسول الله ﷺ، على أمل أن يستقي منهم الرسول ﷺ معلومات مفيدة. فلما وجدوا رسول الله ﷺ منشغلاً في مصلاه، بدأ الرجال يستجوبون الأسيرين بأنفسهم. وعندما سألوهما لمن يحملون هذا الماء، أفصح الغلامان عن جواب بدا وكأنه تهرب من الإجابة، حيث قالوا إنهما يعملان لجيش «قريش» الذي يسير إلى «المدينة». ولم يعجب هذا الجواب صحابة رسول الله ﷺ حيث أنهم كانوا يعتقدون أن الغلامين هما في واقع الحال يتبعان قافلة «أبي سفيان» التي سبق رصدها والتي غيرت مسارها واختفت في الصحراء. ولإرغامهما على الكلام، أخذوا يضربونهما بشدة.⁵⁸ واضطرهم هذا الضرب إلى الاعتراف بأنهما بالفعل مع قافلة «أبي سفيان»⁵⁹، التي كانت محملة بكل أنواع البضاعة وهي تشق طريقها من بلاد الشام إلى «مكة». بعد اعترافهم هذا تركوهم. وعندما انتهى الرسول ﷺ من الصلاة أخبروه بما حدث وكيف أن الغلامين بدلا قصتهما. وبعد أن تفحص الرسول ﷺ التفاصيل بتأن، لم يوافق على ما فعله كشافته الثلاثة، وأحس بأن شيئاً ما قد غاب عنهم. وأنبأ الرسول ﷺ أصحابه قائلاً: "إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم!". ثم قرر الرسول ﷺ أن يستمع من السقاة بنفسه دون استعمال العنف أو التهديد. فاستطاع الرسول ﷺ أن يعرف منهما مكان معسكر جيش «قريش»، وتعداده وأسماء قاداته.⁶⁰

بدأ الرسول ﷺ سؤاله الغلامين بأن طلب منهم معرفة مكان معسكر «قريش». قالوا إنهم بعد الكثبان بالعدوة القصوى، أي بحافة الوادي من الجهة الأخرى. وعندما سأل ﷺ عن عدد الرجال المقاتلين، قالوا إنهما لا يعرفان. وحتى يشتق منهما الرسول ﷺ هذه المعلومة المهمة، طلب منهما أن يفصحا عن عدد الإبل التي ينحرونها في اليوم لعسكر «قريش»، فقال أحدهما تسعة جمال وقال الآخر عشرة. وحيث أن الجمال هي المصدر الرئيس للطعام عند القبائل في غاراتهم ومعاركهم، وكان معروفاً لدى جميع أهل الصحراء بأن الجمل يطعم ما بين تسعين ومئة رجل، استنتج الرسول ﷺ وبطريقة غير مباشرة بأن عدد رجال الجيش القادم هو ما بين تسعمائة إلى ألف مقاتل. ثم سألهما ﷺ عن قادة الجيش، فأخبراه بأنهم «عتبة بن ربيعة»، و«أخوه شيبه»، و«أمية بن خلف»، و«العباس بن عبدالمطلب، و«سهيل بن عمرو». وبمعرفته هذه الأسماء تكونت عند رسول الله ﷺ صورة واضحة عما يمكن أن يتوقعه، حيث كان يعرف هؤلاء الرجال وخلفيات أيامهم، ونقاط قوتهم وعلاقاتهم القبلية. كذلك أدرك الرسول ﷺ أن الجيش المقابل أكثر عدداً. وعندما انتهى من استجواب الغلامين، تحول الرسول ﷺ إلى أصحابه وقال لهم: "هذه «مكة» قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها"، ثم بدأ يخطط للمعركة في ظل ما كان يتوافر لديه من معلومات وما حصل عليه من تفاصيل أخرى من السقاة.⁶¹

إن أساليب رسول الله ﷺ في هذا الموقف تستدعي التأمل، لاستلهاهم العبر والدروس. فقد شك الصحابة في بادئ الأمر في صدق أقوال السقاة، ولربما نلتمس للغلامين عذراً، فإن حياة الصحراء تورث الحذر، وتضطر إلى الكتمان أو المواراة. ولكن تخويف الأسير نادراً ما يؤدي ثماره من المعلومات الموثوقة. فإما أن يخاف على حياته فيخطئ خطأ بريئاً، أو يكذب كي يتقي الخطر المحيق به. وفي كلتا الحالتين لا يستفيد المستجوب

كثيراً. وقد ثبت لدى خبراء أجهزة الاستخبارات بأن الأسلوب اللين مع الأسير يؤتي ثماراً بدلاً من القسوة. فسبحان الله الذي ألهم رسوله ﷺ أن يستعمل اللين مع هذين الأسيرين، وأن يأخذ منهما من الأخبار المصيرية ما تطمئن إليه النفس، ودون عناء يذكر، كما أن الطريقة التي توصل بها الرسول ﷺ إلى معرفة عدد القوم وقوتهم، يستند إلى المنطق العقلاني الاستنتاجي، وهو أسلوب يستحق أن يكون درساً بليغاً لمن اعتبر.

كان المسلمون الأوائل يجيدون وسيلة يستعملها الناس منذ القدم لجمع المعلومات، ألا وهي التنصت. ففي ليلة «غزوة بدر»، احتاج الرسول ﷺ إلى أن يجمع كل ما يستطيع أصحابه تجميعه من المعلومات عن تحركات العدو، وقوافله التجارية التي كان بالإمكان الاعتراض لها والترصص بها. ومن حوار دار بين اثنتين من النساء اللائي كن يستقن الماء قرب «بئر بدر»، حيث وقعت المعركة لاحقاً بين الرسول ﷺ و«قريش»، ومنهما تعرّف العنصران المسلمان على المكان المحدد، والزمان المتوقع لوصول القافلة التجارية الكبيرة التي كانت في طريق عودتها من «بلاد الشام» إلى «مكة».⁶² والتفصيل عند ابن إسحاق إذ يقول:

"كان «بسبس بن عمرو» و«عدي بن أبي الزغباء» قد مضيا حتى نزلا بدرأ، فأناخا إلى تل قريب من الماء. ثم أخذا شناً لهما يستقيان فيه، و«مجدي بن عمرو الجهني» على الماء، فسمع «عدي» و«بسبس» جارتين من جواري الحاضر، وهما تلازمان على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: «إنما تأتي العير غداً، أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك». فقال مجدي صدقت، ثم خلص بينهما. وسمع ذلك «عدي» و«بسبس» فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا".⁶³

ويمكن الاستدلال على الأهمية التي كان يوليها الرسول ﷺ للاستخبارات، على ما يبدو لنا، بالأحداث التي تلت معركة أحد فقد أوعز لبعض أصحابه وعناصره بمواصلة نشاطهم الاستخباري حتى بعد توقف القتال، وذلك حينما أمر بأن يستمر المسلمون بمراقبة انسحاب «قريش»، ورصد وسائل النقل التي كانوا سيمتطونها، وعلى وجه أخص عدد ونوعية الحيوانات التي يمتطونها، والتي من خلالها يمكن معرفة نواياهم، أي هل كانوا يريدون التوجه إلى «المدينة» لاستكمال المعركة والقضاء على المسلمين، أو كانوا قد قرروا العودة إلى «مكة». وكانت أوامره لأحد صحابته وهو «سعد بن أبي وقاص»، صريحة للغاية قائلاً اتبعهم فانظر أين يريدون، فإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون «المدينة»، وإن كانوا ركبوا الإبل وساقوا الخيل، فهم متوجهون إلى «مكة».⁶⁴

وهكذا فمن خلال التحليل الثاقب للتقارير الثانوية والجانبية التي كانت تنقل أخبار نشاطات «قريش» عموماً، استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى استنتاجات مهمة، فيما يتصل بقدرات ونوايا عدوه الحقيقية. ومن ذلك أنه وفي ليلة المعركة نفسها أي «غزوة أحد»، بعث عنصرين لاستطلاع المنطقة التي حول «المدينة» و«جبل أحد»، وجمع ما يستطيعونه عن «قريش»، خصوصاً عدد مقاتليهم، وأسلحتهم، والمناطق التي يتركزون فيها. وعاد الرجلان إليه ليعلماه بوصول «قريش» إلى مكان اسمه العارض، الواقع شمال شرق «المدينة»، وهو مكان معروف بمساحاته الواسعة الخضراء الخصبة. لكن العنصرين لاحظا أن نبات الحقول المزروعة قد رعي، وتحولت المساحات الخضراء إلى أرض جرداء. وهكذا استنبط الرسول ﷺ أن اختفاء الزرع الكثيف فجأة لم يكن ليحدث لولا التهام ماشية «قريش» وحيواناتها المركوبة لهذا الغطاء النباتي. أي أن الرسول ﷺ قد استدل على حجم كتائب «قريش» من خلال ما استهلكته الحيوانات التي كان

العدو قد أحضرها معه لمقاتلة المسلمين. وكما هو معروف بأن عدد المطايا التي كانوا يركبونها، وغيرها من الحيوانات التي يطعمون بها الجيش، يتناسب طردياً مع تعداد الجيش القادم، وهنا استنتج الرسول ﷺ وأصحابه بأنهم أمام جيش كبير قدر من خلال ذلك تعدادهم.

343 العمليات السرية

سنحاول في الصفحات التالية التطرق إلى العنصر الرابع، أو الركيزة الرابعة التي يستند إليها العمل الاستخباري، ونقصد بذلك العمل السري، أو العمليات السرية «Covert Action». فقد لجأ المسلمون الأوائل إلى العمليات السرية لحماية دولتهم الفتية، والذود عن كيانها وتوطيد أركانها. وتضمنت تلك العمليات في بعض الأحيان إجراءات صارمة، تصل إلى حد التخلص ممن كانوا يمثلون خطراً على الأمن العام، وسلامة الأمة والوطن.

ولم يكن الهدف قاصراً على استئصال شأفة الحاقدين على الدين الجديد والذين يتآمرون على إخماد صوت الحق فحسب، بل تضمنت تلك العمليات في ثناياها أكثر من رسالة ومضمون. فإلى جانب كونها تحذيرات وإنذارات قوية تهدف إلى ردع كل من كان يسعى ويخطط لتقويض الدولة الفتية، كانت بعض تلك العمليات تهدف إلى رفع معنويات المسلمين، والتأثير على قرارات أعدائهم العسكرية، وخداع استخباراتهم.

بيد أن العمليات السرية لم تكن جميعها من مبادرات المسلمين والقائمين على شئون أمنهم، بل كان بعضها ينطلق في سياق الرد على عمليات نفذها مشركون من «قریش» أو مسيحيون من البيزنطيين في الشام. ومن الملاحظ أنه حتى خلال الفترة المبكرة من دعوة الإسلام، كان مسرح

العمليات السرية يمتد إلى ما وراء «مكة» و«المدينة» ليشمل مناطق تصل إلى «اليمن» جنوباً وإلى «الحبشة» غرباً. ويشير «ريشارد غابريال» إلى أن قيادات المسلمين تحت راية الرسول ﷺ كانت تعتمد المناورات الذكية وعقد التحالفات المختلفة مع هذا الطرف أو ذاك بهدف أضعاف العدو وتقويض الدعم الشعبي له. وكانت هذه القيادات أيضاً، والحديث مازال «لغابريال»، تلجأ إلى نشر الإشاعات ضد الأعداء وتستخدم الحرب النفسية لزيادة الضغط عليهم وقتل الروح المعنوية في صفوف مقاتليهم.⁶⁵

ومن الطبيعي أن العمليات السرية المبكرة التي نفذها الساهرون على أمن المسلمين، لم تكن في بادئ الأمر مثالية أو خالية من الأخطاء، أو النواقص في مجال المهارات التكتيكية الاستخبارية، ذلك أن الرسول الأكرم ﷺ وأصحابه كانوا -في معظمهم- «أهل مدن» لا خبرة عميقة لهم بحياة الصحراء،⁶⁶ وعلى ذلك فإن بعضاً من العمليات الأولى للمسلمين اعتمدت على قاطني الصحراء، وعلى الأدلاء من البدو. ثم وبعد أن قويت شوكتهم في «المدينة»، أصبح «جهاز الاستخبارات» أكثر تنظيماً، وتعقيداً، وأشد مراساً، لا سيما أن القيادات الإسلامية آنذاك، باتت بحكم الواقع أكثر خبرة ومراساً مع مرور الزمن. وهكذا فقد أصبح للدولة الإسلامية الناشئة في «المدينة»، عيونها المنتشرون في المفاصل المهمة من الحياة. وبات بالإمكان جمع المعلومات الاستخبارية، من المسافرين، والمتجولين، والتجار المجندين، ومن الدوريات القتالية، والاستطلاع المدعوم، ومن الأسرى الذين يتم استجوابهم.⁶⁷ وبمراجعة دقيقة لبعض هذه العمليات، يتضح أنه لا الرسول ﷺ ولا منافسوه في الجزيرة، كانوا يُقدمون على أية عملية سرية حتى يجمعوا الاستخبارات المطلوبة، بكل عناية وحذر، ويحددوا هدفهم، ويستكشفوا مسرح عملياتهم، ويختاروا القادة المناسبين للعمليات المزمع تنفيذها.

إن الإمام بطبيعة العمل السري في العهد النبوي الشريف، يتطلب الوقوف على بعض التفاصيل المتصلة بكيفية التعامل مع الجهات التي كانت تمثل تهديداً حقيقياً للإسلام والمسلمين. وكان أول تلك الجهات هي تلك الأبواق الدعائية المضللة، التي كانت ترفع أصواتها وتبث سمومها ضد الإسلام، ونبى الرحمة ﷺ، وعامة المسلمين في كل مكان، فكانت تلك الأبواق المعادية من الأهداف الأولى التي سعى المسلمون إلى إسكاتها كي لا تؤثر في عموم الناس. ونقصد بتلك الأبواق الشعراء من المعسكر المعادي للمسلمين، الذين كان دورهم في ذلك الحين مشابهاً للدور الذي يقوم به الإعلاميون في هذا العصر. لقد كان الشعراء حينئذ محط تقدير وإعجاب من مجتمعاتهم، في المدن والقبائل على حد سواء، لكونهم يعدون رجالاً عظماء في الفصاحة والبلاغة والحكمة. ففي فترة ما قبل الإسلام، كان لكل قبيلة في شبه الجزيرة العربية شاعر واحد على الأقل، ينهض بمهمة الناطق الرسمي باسم القبيلة. وكان الشاعر يؤدي مهام كثيرة، متعددة الجوانب، فبالإضافة إلى كونه حامياً لسمعة القبيلة، ومروجاً لها، كان الشاعر متحدثاً عسكرياً أيضاً. وكانت النصوص والأحكام التي يصدرها أحياناً "تكتسب من القوة والسلطة ما يضاهي القضاة"⁶⁸ بل إن نفوذه كان يفوق أحياناً نفوذ زعيم القبيلة نفسه. وبفضل القصائد، والتغني بها وبلاغة اللغة والتفنن في أساليبها، أصبح ما ينطق به الشعراء المجيدون جزءاً من تراث المجتمعات التي يعيشون فيها وباتت النصوص التي يصوغونها ترسخ في أذهان الذاكرة الجمعية للقبيلة وتُتناقل عبر الرواة من جيل إلى جيل.

وبسبب سطوة الشعراء، وتأثيرهم في المجتمع، سعى قادة «قريش» الذين كانوا عازمين على التخلص من الدين الحنيف، ومحاربة الرسول الأمين ﷺ، الذي كثر أتباعه ونما نفوذه، إلى الاستعانة بشعراء قبائلهم

والمفوهين فيهم. وبالفعل فقد استجاب عدد من هؤلاء الشعراء، ونظموا قصائد كثيرة، ضمنوها انتقادات مسمومة للمصطفى ﷺ، وجاهدوا في إشعال الكراهية ضده وضد المسلمين عموماً. وإلى جانب «قريش» فقد فعلت قبائل العرب الأخرى الشيء نفسه، وجاهرت بعداها للرسول ﷺ، بقصائد كان ينظمها شعراؤهم، ويلقونها في تجمعاتهم. وقد حاول المسلمون في بداية الأمر تجنب الأذى الناجم عن أقوالهم المسعورة، والتجمل بالصبر، وعدم الانشغال بالأراجيف، وبما كان بعض الشعراء والشاعرات يروجونه من أقاويل وسُموم، بل إنهم حاولوا استمالة هؤلاء الشعراء الموتورين إلى جانبهم. لكن هذه المحاولات النبيلة لم تؤت ثمارها، وفشلت في تحقيق الهدف المنشود. وعندما وصل الضرر الذي ألحقه الشعراء بالمسلمين حداً لم يكن من الممكن تحمله، رد المسلمون بعنف. قرر الرسول ﷺ، أن يصار إلى اتخاذ موقف حاسم من هؤلاء الذين يسيئون إلى الإسلام ويهاجمون العقيدة، ويتواطؤون ويتآمرون مع العدو على تهديد حياته ﷺ والتحريض على الانشقاق واثارة الفتن ونشر الفوضى وانعدام الأمن، كونه راعي الأمة وولي أمرها، يأمر بما يوحى إليه، ليدفع الضرر والأذى عن المسلمين، من أعدائهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً، بأيدهم أو أسنتهم أو التحريض المستمر على المسلمين.

وعلى الرغم من كون دولة الإسلام آنذاك لا تملك جهاز تنفيذي يقوم بأعمال القبض والسجن والمحاكمة وتنفيذ العقوبة، كما هو في عصرنا الحاضر، إلا أنها كانت تتمتع بالقوة والمنعة التي تمكنها من احتواء واحتمال أي ردة فعل تجاه ما تقوم به من عمليات ضد من كان يشكل خطراً عليها من القيادات المتطرفة ضد الإسلام، والشعراء المتسلطين والمحرضين وغيرهم، فقد تنوعت الأهداف واتسعت رقعة تنفيذها الجغرافية، فلم تقتصر تلك العمليات على المدينة فحسب بل شملت خيبر ومكة وضواحيها وصولاً إلى أرض اليمن. وكان المستهدفون ينتمون إلى أعراق

متنوعة كالعرب واليهود والعرب المتهودة، الذي لم يكن لهم مع دولة الإسلام «عهد ولا ذمة».

وكانت «عصماء بنت مروان» وهي شاعرة من «قبيلة الأوس» في «المدينة» على رأس قائمة الشعراء الحاقدين الذين تم استهدافهم من قبل المسلمين. وكانت هذه المرأة غليظة في هجائها للرسول ﷺ وللمسلمين. وكان لهجائها المسموم ضد الدين الجديد بعض الصدى بين القبائل. وفي واحدة من هذه القصائد، شنت عصماء هجوماً قاذعاً على المسلمين وعلى القبائل التي أعلنت إسلامها، وسخرت من صفات هذا الغريب، وتعني بذلك الرسول الأكرم ﷺ ودعت رجال القبائل إلى تقويض الإسلام كله من أساسه وقتل النبي محمد ﷺ فقالت:

"فباست بني مالك والنبيت وعوف وباست بني الخزرج
أطعتم أتاوى من غيركم فلا من مراد ولا مذحج
ترجونه بعد قتل الرؤوس كما يرتجى مرق المنحج"⁶⁹

وقد أنيطت مهمة التخلص من هذا البوق السليط، والبوم الناقع، إلى «عمير بن وهب الأوسي» الذي خطط للتخلص منها، وإسكاتها إلى الأبد، وذلك عندما تمكن من دخول بيتها وهي نائمة فطعنها.⁷⁰ وعندما قابل «عمير» رسول الله ﷺ سأله ما إذا كان عليه شيء في ذلك على ما فعله، فأجابه النبي الكريم محمد ﷺ: "لا ينتطح فيها عنزان"⁷¹ والمعنى: لا تقلق ولا يشغلنك ذلك.

أما الشاعر اليهودي «أبو عفك»، الذي كان مشهوراً بإثارة الصغائن ضد رسول الله ﷺ، وبهجائه السامّ اللاذع للإسلام والمسلمين، فلم يكن مصيره بأحسن من مصير السليطة عصماء بنت مروان. وحقيقة الأمر أن هذا الشاعر الذي تمادى في هجائه للمسلمين، ولنبيهم الكريم ﷺ لقي حتفه

قبل مقتل «بنت مروان»، حيث دبر المسلمون خطة محكمة لإسكاته في فناء بيته.⁷² وكان الرجل الذي وُكِّل بالأمر من قبيلة الشاعر نفسه، وذلك حتى إذا اكتشفوا هوية قاتله لم يؤد الأمر إلى تفاقم التبعات، أو إلى دائرة لا متناهية من القتل والثأر. عن ذلك يقول «ابن سعد» في طبقاته، عندما ذكر مغازي الرسول ﷺ⁷³:

"كان «أبو عفك» من بني «عمرو بن عوف» شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يهودياً، وكان يحرص على رسول الله ﷺ، ويقول الشعر، فقال «سالم بن عمير» -وهو أحد البكائين- وقد شهد بدرًا: علي نذر أن أقتل «أبا عفك» أو أموت دونه، فأمهل يطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة، فنام «أبو عفك» بالفناء وعلم به «سالم بن عمير»، فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، وصاح عدو الله، فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه".

ومن الشعراء الآخرين الذين تناولوا على المسلمين، ونعتوهم بأبشع الصفات «كعب بن الأشرف» التاجر اليهودي الغني، الذي كان له نفوذ واسع في أوساط اليهود، وبين القبائل العربية أيضاً. وقد أدى هذا الشاعر المتطرف دوراً خبيثاً في التحريض ضد الدين الحنيف، وفي إثارة «قريش» ضدهم، وفي دعوتها إلى غزو معقلهم في «المدينة». وقد كتب ابن الأشرف العديد من قصائد الهجاء والذم ضد الإسلام والرسول ﷺ. وكما كان هجاؤه الشرس محل اشمئزاز ونفور في أوساط المسلمين، فإن مديحه للمشركين ورثاءه لقتلاهم في بدر كان محل اعتزاز وافتخار «قريش». ولكن الرجل بلغ من الفجور مبلغاً أن نظم قصائد تشبب فيها ببعض النساء المسلمات، وزاد أن أتى على ذكر أسمائهن، ومنهن أم «الفضل بن الحارث» وغيرها من نساء

المسلمين، الأمر الذي لم يعد من الممكن تحمله أو التعايش معه. ومما نظمته هذا اليهودي :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ذي بهجة يأوي إليه الضيع⁷⁴

وتفيد المصادر أن «ابن الأشرف» سافر إلى «مكة»، واجتمع بزعمائها ومنهم «أبو سفيان بن حرب»، والذي سأله: أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ إننا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. فقال له «كعب بن الأشرف»: أنتم أهدى منهم سبيلا. ⁷⁵ فأنزل الله على رسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ
نَصِيرًا ۝٥٢﴾ ⁷⁶

ولم يخرج «ابن الأشرف» من «مكة» حتى استطاع أن يقنع «قريشاً» للهجوم على المسلمين في «المدينة»: "قال رسول الله ﷺ: من «لابن الأشرف» فقال له «محمد بن مسلمة» أخو «بني عبد الأشهل»: أنا لك به يارسول الله، أنا أقتله. قال ﷺ: فافعل إن قدرت على ذلك". واشترك في قتله مع «محمد بن مسلمة» «سلطان بن سلامة» أخو «كعب بن الأشرف» بالرضاعة، ونفر آخرون. وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهما بأن يقولوا ما يحلو لهما عند «كعب»، حتى يعينهم ذلك على قتله، فوافقهما الرسول ﷺ على ذلك. فذهب مسلمة وسلمان وجماعتهما ناحية «كعب» واختبأوا بالقرب من حصن كعب ونادى «سلطان»: يا كعب... هل تفتح لنا الباب؟. وأحست زوجة كعب بالخطر ومنعت زوجها من فتح الباب، ولكن «كعباً» أبى إلا أن

يفعل، مُصِرّاً على أنه لن يكون من أمر أخيه إلا خير. وشرح له «سلكان» بأن ما أتى به في هذه الساعة هو أن قومه أنهكهم أمر الرسول ﷺ، ومطالبته لهم بالزكاة. ثم طلب منه أن يقرضه «حمل بغير أو بغيرين» من الطعام، يعطيه إلى «مثير المشاكل محمد ﷺ». وأكد له «سلكان» بأن أصحاب محمد ﷺ سيضجرون منه عما قريب ويثورون ضده. ووافق «كعب» على إقرضه، ولكن مقابل رهن. وطلب «كعب» من «سلكان» أن يرهنوا عنده زوجاتهم، ولكنه رد يقول: «ماذا؟ نرهن زوجاتنا عند أجمل الرجال». ثم طالب «كعب» أن يرهنوا أولادهم عنده، ولكنهم قالوا: إذا رهن أولادنا عندك فسنكون أضحوكة الناس، بأننا الذين رهنوا أولادهم مقابل طعام. وهنا وافق «كعب» أن يرهنوا السلاح مقابل الطعام، وسار معهم «كعب» حيث يريدون ولتنفيذ العملية اتفق سلكان وأصحابه على أن يهاجموا كعباً بمجرد أن يروا يديه، يدي سلكان، خلف رأس كعب. وبدأت الخطة بأن أغدق سلكان المديح على كعب فقال له: يا لطيب رائحة هذا العطر الذي معك، لم يسبق لي أن شممت مثله. وبدأ كعب يتفاخر، وقد تم استدراجه الآن، بأن عطره أفضل حتى من العطر الذي تصنعه النساء. ثم طلب سلكان منه أن يشم شعره، وأمسك برأسه، وبذلك فقد أعطى سلكان العلامة المتفق عليها لفريقه الذين تقدموا بغتة وانهالوا عليه بالطعن حتى قتلوه.⁷⁷

وإلى جانب الأفاكين الذين كانوا يبتثون السموم بين المشركين وغيرهم فقد استهدفت بعض العمليات السرية شخصيات كبيرة معادية للإسلام كان من بينهم بعض زعماء القبائل، وآخرون من ذوي القوة العسكرية أو من أصحاب المال أو من أولئك الذين كان لهم نفوذ أو مكانة اجتماعية يمارسون من خلالها تأثيراً بين أتباعهم ويشكلون مواقفهم، ليس فقط تجاه الإسلام والمسلمين ولكن تجاه الحياة عموماً. وكان من أبرز هؤلاء، رجال استعدوا «قريشاً» ضد الرسول ﷺ وآخرون مولوا محاولات لإعاقة المسلمين وإثارة

لهب الكراهية ضد الدين الجديد. ولم يكن هؤلاء جميعاً من المشركين، بل كان من بينهم أيضاً عدد من اليهود والمسيحيين، بمن فيهم «أبو رافع»، أحد أكثر اليهود نفوذاً وسطوة في خيبر. وقد أدى هذا اليهودي دوراً كبيراً في تمويل كل من كانوا مستعدين للتآمر ضد رسول الله ﷺ، لا سيما قبيلة غطفان التي هيّجها لمهاجمة الدولة الجديدة في «المدينة». ولعب «أبو رافع» هذا دوراً كبيراً أيضاً في غزوة الخندق التاريخية، حيث أنفق الكثير من الوقت والموارد في إثارة القبائل والتأليب ضد رسول الله ﷺ وفي حشد التأييد للمعسكر المعادي للإسلام.⁷⁸

وقد قاد المجموعة التي نفذت تلك العملية ضد «أبي رافع» رجل من الخزرج كان قد أسلم لتوه⁷⁹ هو «عبدالله بن عتيق الخزرجي» الذي كانت أمه يهودية الديانة، وكان «ابن عتيق» يتقن اللغة العبرية، فكانت له ميزة لاختياره لتنفيذ العملية السرية.⁸⁰ وقد شاركه كل من «الحارث بن ربيع أبو قتادة»، و«خزي بن الأسود»، و«مسعود بن سنان»، و«عبدالله بن أنس».⁸¹ وكانت الخطة تعتمد أساساً على المعلومات التي ستوفرها «أم عبدالله الخزرجي» عن مكان الشخص المستهدف. واقترحت أمه عليهم بأن أفضل وقت لشن الهجوم هو عند حلول الليل، على أن يتظاهر الفريق بكونهم ضيوفاً قدموا لزيارة «أبي رافع» يحملون هدية له. وهكذا جاءت المجموعة تحت جناح الظلام متخفية، وتوجهت نحو حصن اليهودي الذي استطاعوا دخوله بيسر. فعندما طرّقوا باب المنزل المقصود أفاد «عبدالله» باللغة العبرية إنه جاء لتقديم هدية «لأبي رافع». وما أن فتح الباب حتى اقتحمت المجموعة الحصن، وسارعوا إلى غمد سيوفهم في الهدف ثم انصرفوا على عجل. لقد ساعد المهاجمين على الانسحاب من المشهد أن أبواب الحصن ومداخله كانت كلها مترسة بالأقفال، مما أعطى الجماعة وقتاً كافياً للانسحاب ريثما أخذت عائلة المقتول تنذر الناس، وتحاول العثور

على حراس الأبواب وإيقاظهم لفتحها. وقد تريت منفذو العملية بعض الوقت بين الأشجار التي كانت تحيط بالحصن، ثم انسلوا فيما بعد لبدأ رحلة العودة إلى «المدينة» التي تبعد 190 كيلو متراً.⁸²

ومن العمليات السرية التي تم تنفيذها بسرعة واتقان تلك التي تمت للتخلص من زعيم قبيلة هذيل، «سفيان بن خالد الهذلي». فعندما وصلت تقارير ذات مصداقية عالية إلى «المدينة» تفيد بأنه متورط في الإعداد للهجوم على المسلمين وإثارة القبائل وحشد تأييدهم لمعركة وشيكة ضدهم. ارتئي أن يتم التخلص من هذا العدو المحموم وصدرت التوجيهات إلى أحد أكثر أصحاب الرسول ﷺ وثوقاً وهو «عبدالله بن أنيس» الذي أمر بأن يتخلص من الهذلي. وعندما سأل بن أنيس الرسول ﷺ بأن يصف له المستهدف حتى يسهل التعرف عليه، أعطاه الرسول ﷺ بعض الصفات الظاهرة وما يميز شكله. ثم أكد له بأنه «حينما تقع عينك على هذا الرجل البغيض سترتجف منه قرفاً».⁸³ وكغطاء له، أمره الرسول ﷺ بأن يزعم بأنه من خزاعة. وتسليح «ابن أنيس» بسيفه فقط، وبدأ يبحث عن الهذلي مخبراً كل من قابلهم بأنه يكره المسلمين وأنه يريد الانضمام إلى حملة الهذلي. وعندما وصل هدفه أخيراً، فعل «ابن أنيس» كل ما بوسعه لكسب ثقة الرجل المستهدف. وبلغ «عبدالله بن أنيس» من التفوق في المسالة والتمويه أن الهذلي دعاه إلى بيته، وهناك أتم العملية التي خطط لها بإحكام وتم استئصال الهدف. وفي الحال خرج «ابن أنيس» من الدار ليتخفى بعض الوقت حتى يهدأ طلب الباحثين عنه، ثم يعود بعد انتهاء المهمة إلى «المدينة».⁸⁴

أما اغتيال «رفاعة بن قيس الجشمي» فيمثل نموذجاً آخر للعمليات السرية التي تم تخطيطها وتنفيذها بعناية. فقد تناهى إلى أسماع الصحابة

في «المدينة» أن هذا الرجل كان هو الآخر يخطط لمهاجمة المسلمين. وقد أكدت العيون صحة هذه التقارير. وبعد أن تم رصد تحركاته واجتماعاته ببعض أتباعه شمال «المدينة» صدرت الأوامر إلى ثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ بأن يذهبوا في أثره ولا يرجعوا حتى يقبضوا عليه أو يأتوا بخبر موته.⁸⁵ وهكذا ذهب الثلاثة وكمنوا للمستهدف وتخلصوا منه.⁸⁶ وكفّوا شره عن المسلمين.

وتعد محاولة قتل «أبي سفيان بن حرب»، أحد كبار زعماء قبيلة «قريش» من أكثر العمليات جرأة خلال فترة «المدينة»، وغني عن البيان أن «أبا سفيان» كان قبل إسلامه من المشهود لهم بالدهاء والحنكة، وكان أيضاً وراء العديد من المؤامرات والدسائس لتقويض الإسلام واضطهاد المسلمين. وكزعيم لمعسكر الرفض والمعارضة، كان هذا الرجل يمثل أكبر خطر يهدد الإسلام منذ فجر الدين الحنيف وحتى «فتح مكة». وكان «أبو سفيان» قد قال لنفر من «قريش»: «ألا أحدٌ يغتال لنا «محمدًا» فإنه يمشي في الأسواق وحده. فأتاه رجل من الأعراب وقال: قد وجدت أجمع الرجال قلباً وأشدّهم بطشاً، فإذا أنت فديتني خرجت إليه حتى أغتاله، فإن معي خنجراً كجناح النسر، وإني عارف بالطريق. فأعطاه «أبو سفيان» بغيراً ونفقة وخرج ليلاً إلى أن قدم «المدينة». ثم أقبل على رسول الله ﷺ وكان في مسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه الرسول ﷺ قال إن هذا يريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يريد. فلما جاء ليجني على رسول الله ﷺ جذبته «أسيد بن حضير» بداخلة إزاره فإذا بالخنجر، فقال له رسول الله ﷺ أصدقني. قال: وأنا آمن؟ قال: نعم. فأخبره بأمره، فخلّى عنه رسول الله ﷺ فأسلم. وبعد أن أقر الصحابة أن المصلحة العامة تقتضي أن يتم التخلص من هذا الرجل الذي لم يكن حقه على الإسلام يعرف حدوداً، صدرت الأوامر إلى كل من «عمرو بن أمية الضمري»⁸⁷ و«سلمة بن أسلم» في سرية للتخلص

منه.⁸⁸ وقد تم اختيار الرجلين لأنهما كانا من الموسومين بالشجاعة والإقدام فضلاً عن أن «الضمري» كان عداءً سريع الجري وأنه كان يعرف جميع الطرق المختصرة والثانوية عبر الصحراء. وتقرر أن يسافر الرجلان على الجمال ويتجها إلى مكان يدعى وادي بجاج الذي يبعد عن «مكة» مسافة 16 كيلو متراً.⁸⁹ وقضت الخطة بأن يقوم الرجلان بربط جمليهما هناك، ثم يتجها إلى «مكة» حيث الرجل المستهدف. وفي حال حدث ما لم يكن في الحسبان أو اكتشفت الخطة، كان على «سلمة» أن يرجع سريعاً إلى جملته، بينما يفر «عمرو الضمري» إما لامتطاء جملته والهروب من المكان أو ركضاً على قدميه السريعتين. وقضى الرجلان أسبوعين في «مكة» يتحركان من مكان إلى آخر يبحثان عن هدفهما، لكنهما لم يتمكنوا من ذلك لانكشاف امر خطتهما قبل أن يبلغا مرادهما. وعندما نفذوا خطة التراجع لاحق «أهل مكة» عمراً، لكنه تمكن من الوصول إلى «المدينة» سالماً.⁹⁰

ومن العمليات السرية التي ينبغي الإشارة إليها تلك التي استهدفت شخصاً ادعى النبوة⁹¹ واسمه «عبهلة بن كعب بن غوث العنسي» الملقب الأسود العنسي الذي كان يدعي إشيع بين الناس أنه مرسل من الله عز وجل. لكن أصحاب الرسول ﷺ لم يعتبروه سوى ساحر أو كاهن مغرور، على الرغم من أنه:

”.... كان قوياً مؤثراً ويملك سلاسة في الخطابة ملكت قلوب مستمعيه، وأسرت عقول الجموع بمزاعمه الكاذبة. واستطاع بماله وقوته أن يجتذب إليه ليس فقط جموع الناس، ولكن أناساً من ذوي المكانة أيضاً. وكانت قبيلة الأسود أول من استجابت لادعائه النبوة. وبفضل قوة قبيلته شن غارة على «صنعاء» وقتل حاكمها، شهر وأخذ زوجته لنفسه. ومن صنعاء أغار على مناطق أخرى. وعن

طريق هجماته السريعة الخاطفة، استطاع أن يُخضع لنفوذه منطقة واسعة تمتد من حزموت إلى الطائف، ومن «الأحساء» إلى «عدن».⁹²

وبغية لجم الأسود وواد حركته قبل أن تلحق الضرر بالمسلمين تم الإيعاز⁹³ الى «وبر بن يحنس الديلمي» بأن يتجه إلى «اليمن» سرّاً حتى يستعد لتنفيذ خطة اغتيال هذا الدعي الكاذب. وقد أسهم «وبر الديلمي» في الخطة الدقيقة التي شارك فيها أيضاً عدد آخر من المسلمين، ومنهم من كان من أصل فارسي. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن زوجة العنسي نفسه وتدعى «مرزبانة» نهضت بأهم دور على الإطلاق في هذه العملية. فإن من المعروف عن «مرزبانة» أنها كانت تضمنر لزوجها العنسي كراهية كبيرة وأن قلبها يفيض بالحقد عليه لأنه قتل زوجها السابق، وأرغمها على الزواج منه. وقد وفرت «مرزبانة» معلومات «استخبارية» هامة عن تحركات العنسي، ومكان تواجده، كما سهلت لمنفذي الخطة الدخول إلى قصرها حيث تمت العملية بنجاح.⁹⁴

وما دمنا نتحدث عن العمل السري زمن الرسول الكريم ﷺ وما ينطوي عليه من تخطيط وتنفيذ دقيقين فلا بد من الإشارة هنا إلى أن المسلمين الأوائل القائمين على أمن البلاد والعباد حينذاك كانوا يلجؤون إلى بعض أساليب الإخفاء والتمويه التكتيكي والمخادعة لتحقيق أهدافهم في تضليل الأعداء، وتقويض مخططاتهم، وتشيت جهودهم. وللحفاظ على سرية الخطط التي كانوا يجهدون في تنفيذها لنشر الدعوة إلى الإسلام. ففي ليلة السير لـ «فتح مكة» شهدت التخوم والمناطق المحيطة بـ «المدينة» تحركات عسكرية دائبة لجند المسلمين وفي اتجاهات متعددة، وكان الغرض وراء كل ذلك هو إرباك العدو والتمويه عليه. ففي تلك الليلة أصدر الرسول الكريم

ﷺ وأمره إلى ثلاثة كتائب بالتحرك في ثلاثة اتجاهات مختلفة حتى يكون أهل «مكة» في حيرة من أمرهم حول الهدف الحقيقي لجيش الرسول ﷺ. وهكذا صدرت الأوامر إلى كتيبة التمويه الأولى المؤلفة من ثلاثمائة رجل بالسير اتجاه نجد، أما الثانية فنحو غطفان، والثالثة وهي أصغر من أختيها، فألى اتجاه آخر. وحيث أن تقارير متناقضة عن نية الرسول ﷺ أخذت تتواتر، لم يكن زعماء «مكة» يعرفون أيا منها يصدقون. وبهذه الحنكة المتميزة والخبرة العسكرية المتجذرة تمكن جيش المسلمين من مفاجأة «قريش» في عقر دارهم وتحقيق النصر الكبير عليهم.

على أن بعض أنشطة الأعمال السرية كان لها أهداف آخر لا تقل شأنًا عما أشير إليه آنفًا، وهي رفع معنويات المسلمين، وشد عزيمتهم، وتعزيز الثقة بقيادتهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك العملية التي جرت لاسترجاع جثمان «خبيب بن عدي» ودفنه. «فخيب» كان من أوائل المسلمين من أنصار «المدينة» الذين ساندوا الرسول ﷺ بقوة، ثم قاتل تحت لوائه في «غزوة بدر»، حيث تشير الروايات إلى أنه قتل عدداً من مشركي «مكة» في تلك المعركة الفاصلة. وبعد بدر أمره الرسول ﷺ بتنفيذ مهمة استطلاع سرية لملاحظة تحركات «قريش»، للثبوت مما إذا كان المشركون يعدون ويجهزون لشن عدوان على المسلمين. بيد أن «خبيباً» والكشافة التسعة الذين كانوا معه اكتشف أمرهم، وتم تعقبهم ومحاصرتهم. وقُتل سبعة منهم في المناوشات التي تلت الحصار، بينما تم استدراج «خبيب» ورجلين آخرين إلى الاستسلام، على أمل منهما بأن يتم إطلاق سراحهم. ولكن بدلاً من ذلك تم بيعهم إلى أهل «مكة»، الذين بدورهم انتقموا من «خبيب» عن قتله الكثير من رجالهم في بدر، فصلبوه وتركوا جثته منصوبة بهدف التشفي، وإرسال رسالة إلى من أسلموا ويقوا في «مكة» ولمن هاجر إلى «المدينة» أيضاً.

أحزن ما ءال إليه مصير الصحابي «خبيب» الرسول ﷺ كثيراً فأرسل على الفور أحد عيونه وهو «عمرو بن أمية الضمري» إلى «مكة» لاسترجاع جثمانه. فبقاء الجثمان على الصليب، بات يؤثر سلباً في معنويات المسلمين، ويخدش أحاسيسهم، في الوقت الذي كان منظر ذلك الجسد المصلوب ينعش معنويات «قريش» ويمدهم بمشاعر التشفي ونشوة الثأر. وهكذا دخل «عمرو» «مكة» متخفياً حتى وصل مكان الصليب، ثم تسلقه خفية وأنزل منه الجثمان. وأسرع عائداً إلى «المدينة» ولم يتوقف إلا فترة وجيزة لدفن صاحبه القتيل. وحين اكتشفت «قريش» أمر الجثمان المختفي، حارت ألبابهم وتاهت عقولهم واستاءوا كثيراً لجهلهم بالمصير الذي آل إليه.⁹⁵ أي أن عملية تحرير «خبيب»، وإنزاله من صليبه، ودفنه قلبت الأمور على «قريش» وأفسدت عليهم ما كانوا يهدفون إليه أصلاً من تعليق جسده على الصليب.

وتعد عملية محاولة تحرير الأسيرين «عياش بن أبي ربيع»، و«سلمة بن هاشم» في «مكة»، مثالا آخر للعمليات السرية التي نفذت لإنعاش معنويات المسلمين، وشحذ هممهم، والحفاظ على روح النصر لديهم. فقد كلف الرسول الكريم ﷺ «الوليد بن الوليد»⁹⁶ أن يُعدّ خطة لإنقاذ هذين الرجلين اللذين كانا من أوائل من أسلموا في «مكة». ويشار هنا إلى أن «قريشاً» عاقبتهم بقسوة على التخلي عن دين آبائهما، وأقدمت على سجنهما ومنعهما من الهجرة. ولإعانة «الوليد» في إعداد خطته، قدم له الرسول ﷺ تفاصيل مهمة عن مكان حبس الصحابييين، وطلب منه أن يتصل بأحد المسلمين في «مكة»، واسمه القين الذي كان بيته بمثابة بيت آمن أو قاعدة ينطلق منها «الوليد» لتنفيذ ما تم التخطيط له. وبمساعدة هذا «العميل السري»، استطاع «الوليد» أن ينقذ الرجلين ووصل إلى «المدينة» سالماً رغم مطاردة القرشيين له.⁹⁷

ومن الأهداف الأخرى للعمليات السرية التأثير على القرارات السياسية التي يتخذها المعسكر المعادي للإسلام. ويمكن ملاحظة ذلك في العملية المعروفة بمسمى «حمراء الأسد». وللإيضاح نشير إلى أن إحدى النتائج التي تمخضت عنها «غزوة بدر»، أن القرشيين وعوا بأن طرق قوافلهم أصبحت مهددة طالما ظلت «المدينة» في أيدي المسلمين. ولهذا سارعوا إلى جمع قوة ضاربة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل لشن الحرب على المسلمين، وكسر شوكتهم وبالتالي تأمين طرق قوافلهم وحمايتهم. لكن المعركة التي خاضوها في جبل أحد لم تحقق الهدف المنشود ذلك أن كلا الطرفين المتحاربين تحمل الكثير من الخسائر وتراجع من ساحة المعركة: المسلمون إلى قاعدتهم في «المدينة»، والقرشيون إلى «مكة». وظل كل طرف يراقب الطرف الآخر بتوجس شديد، فكما كان للمسلمين عيون كثر في «مكة»، كان لـ «قريش» أيضاً عيون بين صفوف المسلمين. ونخص هنا المنافقين الذين أظهروا إسلامهم كـ «عبد الله بن أبي» وغيره من المنافقين.

وعندما أمر زعيم «قريش»، أبو سفيان، رجاله بأن يعسكروا في مكان يدعى الروحاء الذي يبعد عن «المدينة» 14 كيلومتراً، اجتمع قادته لمناقشة أحداث المعركة وتحليل ما جرى فيها واستخلاص الدروس منها.⁹⁸ وكان المجتمعون منقسمين على نحو كبير حول تقييم أدائهم في أحد: فجماعة منهم قالت للأخرى: «لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقيت منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم». ولكن كان ذلك قراراً متعجلاً لأناس خفاف العقول أساءوا تقدير قوة الجانبين ونفوسهم، لذا حاول أحد زعماء «قريش» هو «صفوان بن أمية» أن يقنع الناس بالعدول عن هذه المغامرة قائلاً: "يا قومي لا تفعلوا - لا ترجعوا

إلى «المدينة»-، فإنني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج-أي من المسلمين في غزوة أحد- فارجعوا إلى مكة» والدولة لكم، فإنني لا آمن إن رجعتُم إلى «المدينة» أن تكون الدولة عليكم".⁹⁹

ومن خلال شبكة العيون التي كانت تزود المسلمين بالمعلومات الاستخبارية، وصلت ذلك رسول الله ﷺ. وخوفاً من أن يكون لهجوم ثانٍ لـ «قريش» آثار لا يحمدها، قرر الرسول ﷺ أن يشن حملة نفسية على قادة جيش «قريش» لكي يردعهم عن التفكير في معاودة الهجوم على المدينة. لذلك قاد جيشه، وانطلق بهم في أثر جيش «قريش» متجهاً إلى مكان يسمى «حمراء الأسد» حيث قابل هناك أحد عيونه وهو «معبد الخزاعي» الذي لم يكن آنذاك مسلماً، وأمره أن يلحق بجيش «أبي سفيان» حتى يبلغه معلومات مضللة عن تحرك الرسول ﷺ للحرب، وعدد قواته، وحالتهم النفسية، ورغبتهم في الانتقام وما إلى ذلك من معلومات تستهدف زرع الرعب في نفوس العدو. وعندما لحق بهم أبلغ «أبا سفيان» أن: "محمدٌ قد خرج في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم حرقاً، قد اجتمع معه من تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، وفيهم من الحق ما لم أر مثله قط. «فقال أبو سفيان ويحك، ماذا تقول؟» فقال هو: «والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، أو يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة» فرد «أبو سفيان» يقول: «والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم». ولكن الرجل، وبنبرة تحذير، نصحه من جديد بعكس ذلك. وفي ظل هذه الأخبار، انهار تماسك وإصرار جيش «مكة». ورأوا أنه آمن لهم أن ينسحبوا إلى «مكة»".¹⁰⁰

ولا يخفى أن اختيار الرسول ﷺ لهذا العنصر الاستخباري كان مناسباً جداً. فقد كان «معبد الخزاعي» من قبيلة كبيرة تحكم معظم الأرض بين «مكة» و«المدينة» وبالتالي فإن تواجده في تلك المنطقة كان طبيعياً ولا يثير الشكوك. أما ترتيب الرسول ﷺ لهذا الاجتماع مع العدو في «حمرأ الأسد» وليس «المدينة»، فهو من باب الحيلة والتدبر. فإنه لو قابله في مقره في «المدينة» وعلى مرأى من قواتهم، لربما أخل ذلك بغطاء «معبد». أضف إلى ذلك أنه كان فارساً عادياً غير مسلم ولا علاقة له بالرسول ﷺ أو قبيلته، ومن شأن ذلك أن يجعل قصته أقرب إلى القبول والتصديق. وهكذا تمكن الرسول ﷺ بشنه هذه العملية النفسية من خلال استعماله الذكي لهذا «العين» الخزاعي من التأثير على صانعي القرار إلى اتخاذ موقف كان الرسول ﷺ يخطط لها بحنكة بالغة. وهكذا وبفعل هذه العملية السرية المحكمة أفلح الرسول ﷺ في تجنب المأساة، وأحباط مخططات أعدائه، وتثبيط عزائمهم، وثنيتهم عن القيام بهجوم ثان. ومن المؤكد أن المعلومات المضللة التي نقلها «معبد الخزاعي» إلى «أبي سفيان» كانت مدروسة بعناية ومحسوبة على نحو دقيق، حتى يكون لها أقصى التأثير على «قريش».

وثمة عامل آخر أسهم في إنجاح هذه العملية السيكولوجية. فقد نقل «معبد الخزاعي» رسالته الاستخبارية في سياق من الاستعجال المقصود كي لا يترك لقادة «قريش» أي فسحة من الوقت للتثبت من صحة هذه المعلومات المهمة من أي مصدر آخر. وقول «العين» لهم على وجه الاستغراب "والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل" أي تأكيده على أنه سيكون الوقت فات على المناورة وإعادة نشر القوات من جديد إذا ظهرت نواصي الخيل، أو يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، هو أسلوب ضاغط مريب، حيث لم يتح لـ «صفوان بن أمية» وقتاً لإعداد خطة بديلة للتراجع من خلال تقييمه للفرص وحساب المخاطر.

وإذا ما تناولنا العمليات السرية التي شنتها «قريش» ضد حياة الرسول ﷺ فمن الملاحظ أنها كانت تتخذ أشكالاً وأساليب متنوعة. ففي أول مراحل الدعوة حاول زعماء «قريش» استمالة الرسول الكريم ﷺ عن طريق إغرائه بالمال والسلطة، ولكن الرسول ﷺ رد كل هذه المحاولات. فأعلن صراحة، وفي مقولة مشهورة لعمه الذي من خلاله عرضت عليه «قريش» هذه العروض: "يا عم، والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

ثم صعدت «قريش» من مقاومتها بحملة نفسية مكثفة تستهدف تقويض الإسلام وإحباط مساعي الرسول الكريم ﷺ لنشر الدين الجديد. وضمت الحملة، من بين أمور أخرى، نشر شائعات تسيء إلى الذات النبوية، وتأليف قصائد الهجاء والسخرية التي تحط من قدر الرسول ﷺ، وتُقبّح كل ما هو مقدس عنده. وشملت حملة الكراهية هذه اتهام الداعي إلى الدين الجديد بأنه تارة كاذب، وتارة شاعر، وتارة مجنون، وتارة ساحر. ورافق هذه الحملة النفسية الإساءة الجسدية،¹⁰¹ وعندما فشلت هذه الوسائل «الارهابية» وغيرها في وقف الدعوة إلى الإسلام، بدأت «قريش» تفكر جدياً في العمل على التخلص من الرسول ﷺ وذلك بتصفيته جسدياً، لكونهم يرون فيه رمزاً من رموز الثورة والعصيان على نظام المجتمع المكي. إلا أن هذا المسلك كان محفوفاً بالمخاطر والتداعيات.

ولكي يتم التوصل إلى توافق أو قرار حول مصير الرسول ﷺ عُقد اجتماع في دار الندوة، وهو بمثابة مجلس أو برلمان في «مكة» آنذاك. وبعد فيض من المداولات بين زعماء «قريش» قام «أبو جهل»¹⁰²، أحد أشد أعداء الإسلام ضراوة والذي سبق أن حاول قتل النبي محمد ﷺ قبل ذلك، بطرح خطته الخاصة بشأن التخلص كلياً من الرسول ﷺ. واقترح تشتيت

دمه الطاهر بين القبائل، بأن تُعهد الى مجموعة من شباب «قريش»، كل واحد منهم يمثل بطناً من بطون «قريش» ومن بينهم رجل من بني هاشم، مهمتهم ضرب الرسول ﷺ بالسيف ضربة رجل واحد، حتى يضيق دمه بين سائر القبائل، ويجعل أهله يبحثون عن حل معقول للأمر.¹⁰³ لكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً. فقد أوحى إلى الرسول ﷺ بهذه المؤامرة فترك «مكة» مهاجراً إلى «المدينة»، متحاشياً محاولات العثور عليه بأن سلك طريقاً غير معتادة. وفي محاولة يائسة من «قريش» لإدراك الرسول ﷺ، أقفلوا كل الطرق الخارجة من «مكة» ووضعوا مراقبة مسلحة على كل المخارج المحتملة.¹⁰⁴ ولكنه على الرغم من كل هذه التدابير، تمكن الرسول ﷺ من كسر الحصار والتوجه إلى «المدينة»، حيث استقبله المسلمون الجدد بحماس كبير وتعهدوا له بالنصرة وتوفير الملاذ الآمن والترحيب بأصحابه.

وإلى جانب العمليات السرية التي كان قادة «قريش» يسعون من ورائها للتخلص على أي نحو كان من الرسول الكريم ﷺ فإن محاولاتهم لحل الأمر عسكرياً باءت كلها بالفشل. فرغم تفوقهم الكبير في العدد والعدة تمكن أصحاب الرسول ﷺ من إلحاق الهزيمة بهم على أرض المعركة في «بدر». وخلال فترة المراجعة النفسية التي تلت هزيمة «قريش» في تلك الواقعة المشهودة، عبّر أحد رجال «مكة» وهو «عمير بن وهب بن عمير» الذي كان ولده قد وقع في الأسر في «بدر» عن رغبته في الانتقام لنفسه من رسول الله ﷺ. فأَسْرَ إلى أفضل أصدقائه وحافظ سره «صفوان بن أمية» بأنه: لولا الديون التي في ذمته، وكذلك كبر عائلته التي يعولها، لأسرع إلى «المدينة» يريد دم الرسول ﷺ. وشاركه «صفوان» - وكان غنياً - هذا الامتناع والكرهية لرسول الله ﷺ، فوافق عمير على الفور، على أن يرعى أهله إذا حدث له مكروه، بل وأن يسدد عنه ديونه أيضاً. وأقسم الرجال ألا يفصحا عن الأمر لأحد.

وبعد أن وضع عمير سماً قاتلاً على سيفه، غادر إلى «المدينة» لتنفيذ ما اتفق عليه مع صفوان. لكن وبفضل من الله، ثم بقدرات العيون والطلائع المتفانين اكتشفت نواياه المبيتة واقتيد عند وصوله إلى رسول الله ﷺ على الفور، حيث كان قد لمح عمر بن الخطاب عند دخوله المدينة، وارتاب في أمره، فأمر بعض الصحابة من الأنصار أن يراقبوه عن كثب وهو يقابل رسول الله ﷺ. وعندما سأله الرسول ﷺ عما جاء به إلى «المدينة»، ردّ عليه بأنه خاف على حياة ابنه وأراد أن يطمئن على حسن معاملتهم له. وعندما سأله الرسول ﷺ عن السيف، قال قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئاً؟. ولكن عندما ألحّ عليه الرسول ﷺ أن يخبره عن السبب الحقيقي وراء حمله للسيف، لم يذكر شيئاً. وإزاء إنكاره المستمر واجهه الرسول ﷺ بالحقائق، موضحاً له عن فحوى اجتماعه بصاحبه «صفوان بن أمية»، وعن السبب الحقيقي وراء مجيئه إلى «المدينة». وهنا أصاب عميراً الذهول والدهشة لدقة معلومات الرسول ﷺ، وإلمامه بكافة تفاصيل ما كان خطط للقيام به سراً. وأيقن بأنه لا يعلم هذا الحديث الذي دار بينه وبين «صفوان» وحدهما، إلا نبي يوحى إليه، فاعرب على الفور عن رغبته في اعتناق الإسلام، فأطلق الرسول ﷺ سراح ابنه.¹⁰⁵

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن شبكة العيون التي كانت تزود بناة الإسلام الأولين بالمعلومات الاستخبارية كانت تضم في صفوفها أحياناً بعض النساء، كما هو الحال في قضية مقتل رجلين بالخطأ على يد أحد المسلمين، مما جعل الرسول الكريم ﷺ يتدخل شخصياً لوقف تداعيات هذه القضية. حيث طالبت قبيلة الرجلين بالدية لقاء الدم المهدور. ولم يتمكن الرسول ﷺ من جمع الدية المطلوبة، فطلب المساعدة في هذا الأمر من قبيلة «بني النضير» اليهودية، وفقاً لما جاء في معاهدته المبرمة معهم. فطلب اليهود من الرسول ﷺ زيارتهم لمناقشة الموضوع. بيد أن «بني

النضير» كانوا قد بيّتوا سوءاً وخبثاً لرسول ﷺ. لكنه علم من أحد عيونه السريين بمخططهم لاغتياله عند وصوله إليهم، حيث قامت امرأة من «بنى النضير» بتسريب تفاصيل المؤامرة إلى أختها حتى وصلت إلى علم رسول الله ﷺ. وهكذا انكشفت المؤامرة الدنيئة من يهود «بنى النضير».¹⁰⁶

في هذا السياق أيضاً نشير إلى أن «أبا سفيان» جنّد ذات مرة أحد الأشخاص المتعصبين ضد الإسلام لقتل الرسول ﷺ في «المدينة»، وقدم له مالاً وجواداً، ووجهه بأخذ أقصى درجات الحيلة والحذر وأن تكون جميع تحركاته واتصالاته في غاية السرية. لكنه ما أن دخل «المدينة» حتى ثارت شكوك المسلمين حوله. فقُبض عليه وعند استجوابه اعترف بما كان ينوي القيام به. عندها عرض عليه اعتناق الإسلام لتجنب المصير المظلم الذي ينتظره فقبل بذلك على الفور وتم العفو عنه.¹⁰⁷

الفصل الرابع

استخبارات الممارك
«الغزوات»

٤٣٣ تقدير

كانت الأنشطة الاستخبارية العسكرية للدولة الإسلامية التي أقامها الرسول ﷺ في «المدينة» في السنة الأولى للهجرة (AD 623) تهدف أساساً للحصول على المعلومات الضرورية لحماية المسلمين، ودرء الأخطار عنهم، وذلك بتقييم حجم التهديدات، وتحليلها، واستنباط النوايا الخفية للأعداء، ومراقبة تحركاتهم العدائية عن كثب. وقد نُفذت تلك المهام في بادئ الأمر بنسب متفاوتة من الحرفية والأداء السليم. وتفيد تفاصيل المعارك التي أوردتها كتب التاريخ والسير، ومنها ما ذكره «ابن إسحاق والواقدي» في السيرة والمغازي،¹ أن الرسول الكريم ﷺ والقادة العسكريين للدولة الحديثة كانوا قبل كل معركة يسعون للحصول على معلومات تفصيلية، سواء أكانت تلك المعلومات تكتيكية أو آنية أو استراتيجية. فقد كان الحصول على تلك المعلومات أمراً ضرورياً ليتم إعداد الخطط المناسبة والتعامل مع مستجدات الموقف وفق ما تقتضيه المصلحة العليا للدولة الإسلامية.

كانت هذه المهام الاستخبارية منشطة بأصحاب رسول الله ﷺ، كما كان قد أقدم الرسول ﷺ بنفسه بصحبة «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه على تنفيذ مهمة استطلاع في مكان قريب من «بدر». فبينما كانا في الطريق يستكشفان المواقع إذ صادفهما شيخاً كبيراً من العرب، ومن خلال الحديث معه تمكنا من معرفة موقع تمرکز جيش قريش.² وسنحاول في الصفحات التالية أن نسلط بعض الضوء على معظم العمليات الاستخبارية التي نفذت في أهم الغزوات التي قادها الرسول ﷺ بنفسه وهي: «غزوة بدر» و«غزوة أحد» و«غزوة الخندق» و«غزوة حنين».

فما أن أُسِّست الدولة الإسلامية في «المدينة» حتى شرع المصطفى ﷺ ومجلسه العسكري- ان جازت التسمية- بوضع اللجنة الأولى لرسم خطة استراتيجية طويلة المدى تهدف إلى الحد من خطر مشركي قريش وكسر شوكتهم من خلال محاولة فرض حصار على «مكة» وخنقها اقتصاديًا. وفي سبيل ذلك كان لا بد من الحصول على معلومات دقيقة موثوقة عن القوافل وحمولتها وحراسها والطرق التجارية التي ستسلكها، وهو ما يطلق عليه في عصرنا هذا «الاستخبارات الاقتصادية»³. من هذه الضرورة الحتمية، انطلقت أولى العمليات السرية لتجميع المعلومات عن أوضاع «مكة» وأهلها لا سيما ما يتصل منها بالنشاط التجاري. فأوكلت أول مهمة في هذا الشأن إلى ابن عمه الرسول ﷺ، عبد الله بن جحش⁴. وكان من أوائل المسلمين الذين أسلموا، كذلك كان أول من تسمى بالأمير، حيث أمره الرسول ﷺ أن يقود مجموعة من الرجال تعدادهم ثمانية ليستكشفوا منطقة بعينها بين «مكة» و«المدينة». وقد كُلف هذا الرهط بجمع معلومات عن أهل مكة ورصد ما لديهم من اخبار وقد تركزت هذه السرية على خط القوافل القادم من الطائف والمؤدي إلى «مكة». وقد أصابت المهمة نجاحًا طيبًا إلا انها تجاوزت ما وجهت به، حيث قامت بالتربص والاستيلاء على قافلة كانت في طريقها إلى «مكة» فقتلوا قائدها وأسروا بعض الرجال من حراسها⁵.

بالرغم من تداعيات الازمة التي ترتبت عن مقتل قائد القافلة على المسلمين، إلا أنه في وقت لاحق من السنة نفسها، نُفذت عملية سرية أخرى نتج عنها نصر مؤزر حيث جاء الذين كلفهم الرسول ﷺ باستطلاع الطرق البرية حول «مكة» و«المدينة» بأخبار عن قافلة تجارية كبيرة قادمة من الشام إلى «مكة»، يقودها «أبو سفيان»، أغنى تجار «قريش» وأكثرهم نفوذًا. ولأن خسارة القافلة سابقة الذكر، كانت لا تزال تشكّل له هاجسًا، فقد سعى ومرافقوه من التجار للحصول على أية معلومات عن نوايا المسلمين



خارطة الطرق التجارية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام

واستعداداتهم لاعتراض قافلة «ابو سفيان» أو وضع كمين لها. وفي ضل هذا الجو المشحون سلباً والمشاعر المتبادلة من الترقب والريبة والحذر، فقد تطلب الأمر أن يبذل كل طرف قصارى جهده للاستطلاع وتجميع المعلومات سرّاً واستدراج واستدرار التفاصيل واستنباطها عن الطرف الآخر بكل الوسائل المتاحة.⁶ وعلى الرغم من أن تلك الوسائل كانت بدائية وقاصرة بمقاييسنا المعاصرة إلا أنها كانت تفي بالغرض آنذاك حيث أنها اعتمدت على العنصر البشري في جمعها وهو ما تفتقده الاستخبارات المعاصرة إلى حد ما. وليس بخاف أن التكنولوجيا الحديثة بكافة فروعها وامتداداتها باتت تهيمن على الكثير مما كان يقوم به العنصر البشري قديماً. ونتيجة لتدفق الكم الهائل من المعلومات فقد ساهم ذلك في تقليص العنصر البشري، إلا أنه لا يوازيه من حيث التقييم والتحليل والاستنتاج المباشر.

على أن النصر كان للمسلمين في أول منازل عريضة بينهم وبين جيش قريش. ف «غزوة بدر» كان لها من الآثار والتداعيات الخطيرة ما يميزها عن الغزوات الأخرى لاسيما أن تلك المجابهة العسكرية المبكرة وضعت حداً لخرافة تفوق قوات «مكة»، وأثبتت بالواقع الملموس أن الإسلام بات قوة لا يستهان بها. فالنجاحات التي حققها المسلمون في هذه المعركة التي استمرت يوماً واحداً فقط، قامت بتعزيز معنويات المسلمين ورفعها، فيما أشاعت مشاعر الخيبة والانكسار في أوساط قريش. وكانت المعركة أيضاً -والتي سرعان ما أصبحت تعرف في تاريخ العرب بـ«معركة بدر الكبرى»- بمثابة اختبار عملي للقوة العسكرية لرجال المسلمين المقاتلين ورسخت مكانة المؤمنين المخلصين لله. وسنحاول في الصفحات التالية أن نمعن النظر في الأعمال الاستخبارية التي نفذت في أربع غزوات خاضها رسول الله ﷺ ومنها غزوة «بدر، وأحد والخندق وحنين»، وذلك لاستجلاء بعض جوانب هذه المنازلات التاريخية المهمة من المنظور الاستخباري.

4.2: غزوة بدر 17 رمضان 2 هـ

تناول المؤرخون المسلمون والمستشرقون والمفسرون وأصحاب السير وغيرهم تفاصيل المواجهة الأولى بين الرسول ﷺ والمشركين من قريش بإسهاب كبير. وأشاروا على نحو واضح إلى أن مخاوف أهل «مكة» من تفاقم قوة المسلمين وتوجسهم من أن الكيان الجديد في «المدينة» سيزداد قوة ومنعة كان من بين الأسباب الرئيسة لنشوء الحرب. وكان أشد ما يخيفهم هو أن يقوم المسلمون في يوم ما بعرقلة خطوط القوافل البرية التي تربط «مكة» ببقية أنحاء الجزيرة، أو خنق «مكة» اقتصادياً حيث كان ريع القوافل التجارية هو المصدر المالي الرئيس لاقتصاد «مكة»، وفي حال نجاح المسلمين في ذلك فسوف تميل كفة الميزان لصالحهم وبالتالي ضعف القوة العسكرية القرشية. كما أن من الأسباب الأخرى لتلك المواجهة العسكرية سعي أهل «مكة» للانتقام لمقتل أحد زعمائهم «عمرو بن الحضرمي»⁷ الذي كان على رأس القافلة التجارية عندما قتله أحد أفراد سرايا المسلمين. وفي الجانب الآخر كان المسلمون يتحينون الفرصة لإنزال العقاب بالقرشيين الذين كانوا قد أساءوا معاملتهم، وحاصروهم، وساموهم سوء العذاب، وأجبروهم على الهجرة من موطنهم، لا لسبب آخر سوى أنهم اعتنقوا دين الإسلام.⁸ وهكذا اضطر المسلمون إلى ترك كل ما يملكون وراءهم، بل إن «قريشاً» هي التي حالت عنوة دون أن ينقلوا معهم أموالهم إلى حيث كانوا يقصدون.

وقد شعر الرسول ﷺ والصحابة بعد سبعة أشهر من الهجرة إلى المدينة أن أفضل سبيل لتأديب «قريش» يكمن في اعتماد الحرب الاقتصادية. وهكذا فرضوا حصاراً فعالاً تم بموجبه حظر حركة القوافل التي تمر ب «المدينة»،

من وإلى «مكة»، فضلاً عن القيام باعتراض سير القوافل الأخرى.⁹ وما المهمة التي نهضت بها سرية «نخلة» إلا أحد أوجه ذلك الحصار. ولكي ينجح «الحظر الاقتصادي» ويؤتي ثماره، كان لابد من توفر استخبارات اقتصادية دقيقة من خلال تجميع معلومات مفصلة عن القوافل المارة أو العابرة إلى «مكة» للوقوف على أحجامها وحمولاتها وخط سيرها والمجموعات المرافقة المكلفة بحمايتها. من هنا كان الرسول ﷺ يبعث بالمستكشفين والعيون والجامعين (للأخبار) الذين كانوا يجوبون أنحاء الصحراء باحثين عن أخبار القوافل المكية. ففي إحدى الليالي التي سبقت «غزوة بدر» أمر الرسول ﷺ بعض أصحابه بالتحري والرصد لأي معلومات أو أخبار عن أهل مكة، وقد عُرف الرجال الذين أوكلت لهم تلك المهمة بمسمى «سرية نخلة» التي كانت كما سبقت الإشارة بقيادة «عبدالله بن جحش».¹⁰

ينتقل لنا الشيخ «صفي الرحمن المباركفوري» في كتابه «الرحيق المختوم» الذي يستقي ما ورد فيه من معلومات غزيرة من النصوص الأصلية والمصادر الأولية مثل كتاب «السيرة النبوية لابن إسحاق»، أول مؤرخ عربي كتب بحثاً موثقاً في سيرة الرسول ﷺ عن تلك الواقعة أن الرسول ﷺ أمر «ابن جحش» بأن يذهب في مهمة سرية، وسلمه كتاباً مختوماً لا يقرأه حتى يسير مسافة ليلتين - وهذه أحد وسائل أمن العملية «Operation Security» والتي تحد من انكشاف المهمة وتفصيلها - وأمره عند فتحه أن يتبع ما فيه من توجيهات. وهكذا كان، فبعد مسيرة يومين فتح «ابن جحش» الخطاب الذي يحمل أوامر المهمة التي ورد فيها أن عليه أن يمضي إلى موقع يدعى «نخلة» بين «مكة» و«الطائف» وأن يجمع قدر ما يستطيع من معلومات عن قريش، وأن يرصد أية تحركات لقوافل قريش في تلك المنطقة. وقد امتثل رجال السرية لأوامر الرسول ﷺ وبعد وقت قصير أبصر رجالها قافلة لـ«قريش». عند ذاك تحرك أحد أفرادها وكان قد موه هيئته بحلقه شعر رأسه قبل أن

يخرج في المهمة، واتجه نحو القافلة. ولأنه كان حليق الرأس اطمأنت إليه القافلة ظناً منها أنه وأصحابه من المعتمرين إلى «مكة». ولكن سرعان ما فاجأ «ابن حبش» ومجموعته القافلة بهجوم صاعق قضوا فيه على قائدها «عمرو بن الحضرمي» حيث رماه «واقد بن عبدالله التميمي» بسهم، ثم استولوا على القافلة ورجعوا إلى «المدينة» بغنائم وبأسيرين من رجال «قريش»،¹¹ متخطياً بذلك سلطته وحدود مسؤولياته التي كانت تتطلب الرصد والتحري فقط. وعلى الرغم من النهاية الدامية لتلك المهمة التي أغضبت الرسول ﷺ، لمخالفتهم أوامره بأن لا يقاتلوا في الشهر الحرام،¹² فمما لا شك فيه أن حصيلة المعلومات التي تم الحصول عليها جراء تلك العملية قد وفرت تفاصيل استخبارية دقيقة كانت ذات فائدة قيمة للمسلمين.

وفي الجانب الآخر كان «أبو سفيان» شديد الحيطة والحذر، وعلى أهبة الاستعداد ليعلم شيئاً عن خطط الرسول ﷺ وصحبه وعن قواته، وتحركاته، واتصالاته. فكان يبعث بعيونه وكشافته ليتسقطوا أخبار المسلمين وأنشطتهم، وكانوا يزودونه بتقارير منتظمة ومفصلة عن نشاطات الرسول ﷺ. وفي «بدر» سأل «أبو سفيان» أحد الأشخاص الذي يعرفهم عما إذا كان قد شاهد غرباء في تلك المنطقة، فدلّه على مبرك راحلتيهما، والذي استدل من خلاله على أنهما كانا من عيون الرسول ﷺ. وهنا استشعر «أبو سفيان» بوجود كمين نصبه المسلمون له خارج «المدينة»، فسارع إلى تغيير خط سيره وبعث مرسولاً له إلى أهل «مكة» طلباً للنجدة. ولكي يبين مدى خطورة الموقف في محاولة لشحن «قريش» بأقصى درجات الإثارة والحماس، عمد مرسول «أبي سفيان» «ضمضم بن عمرو الغفاري» إلى شق قميصه، ثم قام بجذع أنف بعيوره، في مشهد يستجدي فيه الغوث ويطلب الاستنفار، وفق ما ذكره المباركفوري في رحيقه المختوم:

"يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع

«أبي سفيان» قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث... الغوث.... فتحفز الناس سراعاً وقالوا: أياظن محمد وأصحابه أن نكون كعمرو بن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبوا في الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى «أبي لهب»، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا «بني عدي» فلم يخرج منهم أحد. وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمئة درع (لقتال المسلمين).¹³

ويكمل المباركفوري الرواية فيقول:

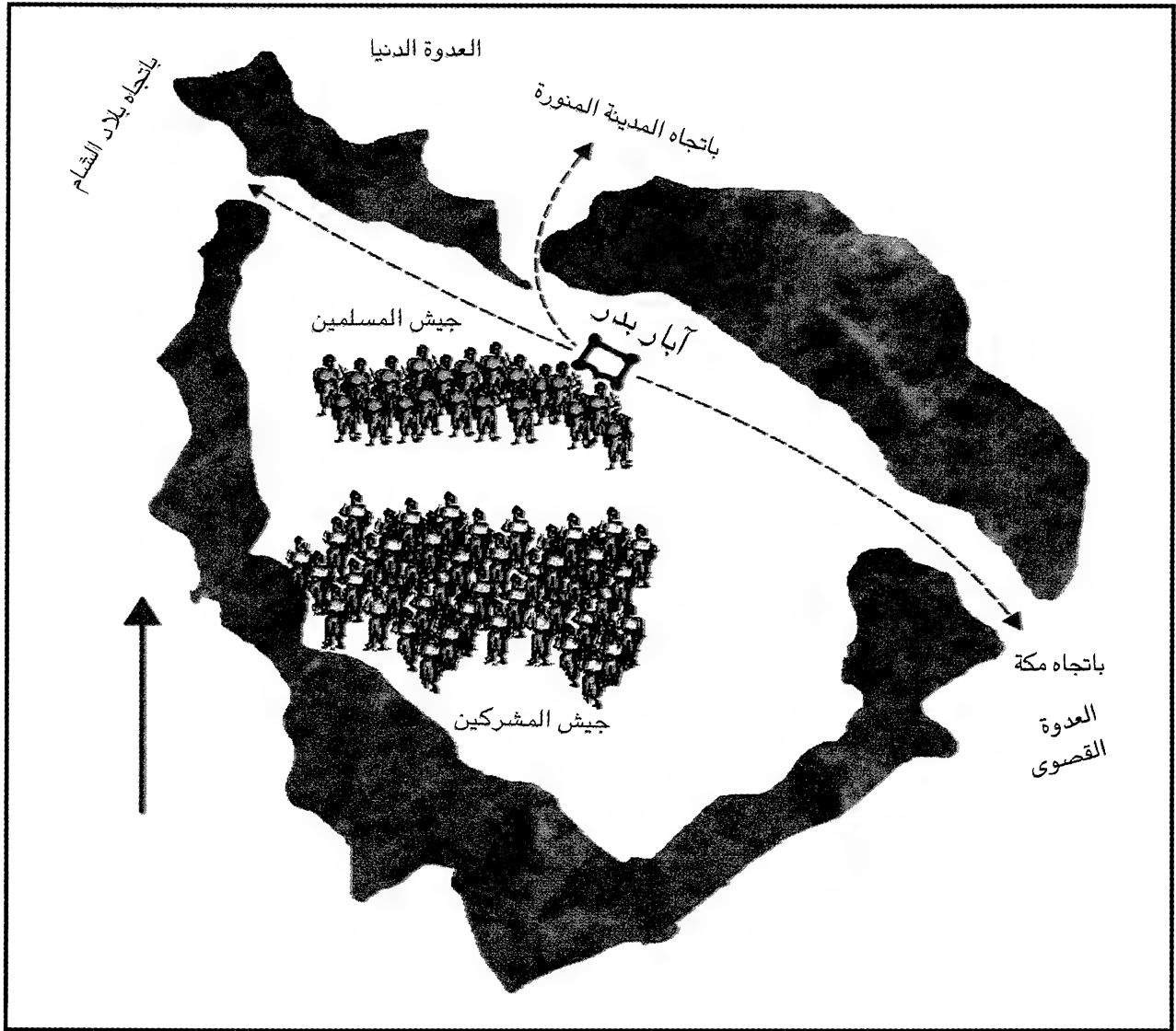
"وحيثئذ خرجوا من ديارهم، وأقبلوا بحدهم وحديدهم.... يحادون الله ويحادون رسوله وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لجرأة هؤلاء على قوافلهم. تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلكوا في طريقهم وادي «عُسْفَان»، ثم «قُدَيْدًا»، ثم «الجُحْفَةَ»، وهناك تلقوا رسالة جديدة من «أبي سفيان» يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحرزوا غيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا. وكان من قصة «أبي سفيان» أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من «بدر» تقدم عيره حتى لقي «مَجْدِيَّ بن عمرو»، وسأله عن جيش «المدينة»، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا إني قد

رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن
لهما، ثم انطلقا، فبادر «أبو سفيان» إلى مناخهما، فأخذ
من أبعاد بعيرهما، ففتته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله
علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعاً، وضرب وجهها محولاً
اتجاهها نحو الساحل غرباً، تاركاً الطريق الرئيسي الذي
يمر بـ «بدر» على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في
قبضة جيش «المدينة»، وأرسل رسالته إلى جيش «مكة»
التي تلقاها في الجحفة¹⁴. ولما تلقى هذه الرسالة جيش
«مكة» هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش «أبو جهل» في
كبرياء وغطرسة قائلاً: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم
بها ثلاثًا، فننحر الجُزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر،
وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا
يزالون يهابوننا أبدًا. (أرادوا معاقبة المسلمين ومنعهم من
اعتراض قوافلهم، وإقناع العرب بأن قريشا ما زالت لها اليد
العليا والهيمنة).¹⁵

وجاءت السرايا التي أرسلها الرسول ﷺ لاستطلاع أمر قريش مخبرة
إنه لا مفر من المواجهة مع أهل «مكة»، وأنه لا بد من اتخاذ خطوة جريئة لكي
لا يخسروا المعركة القادمة. فقد كان المسلمون يخشون من أن أهل «مكة»
سيستمرون في تقدمهم نحوهم، وسيشعلون حرباً في عمق «المدينة» قلب
الإسلام، وحينذاك سيكونون قد ألحقوا بالمسلمين ضرراً لا قومة منه. وفي
ضوء هذه التطورات المتسارعة، عقد الرسول ﷺ اجتماعاً طارئاً لمراجعة
الوضع وتبادل الآراء مع قادة جيشه. وقام أيضاً بإطلاع أصحابه على خطورة
الموقف ثم طلب منهم المشورة. فقام «سعد بن معاذ» فقال:
"قد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو

الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. "فَسَرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: "سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكاني الآن أنظر إلى مصارع القوم".¹⁶

وكان من الضروري لرجال رسول الله ﷺ أن يجهدوا في حماية قائدهم والذود عنه فلو وقع له مكروه، فقد تكون لذلك عواقب غير حميدة على الإسلام كدين وعلى الدولة الإسلامية الناشئة في «المدينة» أيضاً. ولذلك تم اختيار فرقة من رجال الأنصار بقيادة «سعد بن معاذ» لحراسة رسول الله ﷺ والمرابطة حول مقر قيادته¹⁷، وكانت تلك أول مرة في تاريخ حروب العرب يقام مركز للقيادة يباشر منه القائد مهامه.¹⁸ وكخطة بديلة، ضمن تدابير أخرى أمنية، وضعت خطة لتمكين الرسول ﷺ في حال دارت الدائرة على المسلمين، من الرجوع إلى «المدينة» للبحث عن المساعدة من الذين خلفهم وراءه. ولكن المهمات الاستطلاعية الأولى التي قام بها المسلمون أعطتهم الأفضلية على خصومهم من قريش حيث أنها مكنتهم من الحصول على معلومات دقيقة عن طبيعة ساحة المعركة ومكنتهم أيضاً من اختيار الموقع الاستراتيجي للتمركز والسيطرة على أماكن الماء. فلم يكونوا يسمحوا لأحد أن يصل إلى الماء دون إذن. وهكذا، تمكن المسلمون من حرمان أعدائهم من أهم سلعة في الصحراء، تلك التي لا يستطيع الإنسان بدونها البقاء طويلاً وسط رمالها الحارقة. ونتيجة لذلك تقدم بعض القرشيين



مخطط يوضح مواقع المسلمين والمشركين في غزوة بدر

نحو المسلمين استفزازًا يريدون أن يشربوا من «آبار بدر»، ولكنهم قتلوا إلا واحدًا هو «حكيم بن حزام».¹⁹ الذي كانت له مواقف حسنة إزاء الرسول ﷺ والمسلمين في «مكة». فتذكر الكتب عن ذلك، أنه لما حوَّصر الرسول ﷺ والمسلمون في «شعب أبي طالب»، وبلغ بهم من الجهد والجوع ما بلغ، كان «حكيم بن حزام» من الذين خالفوا هذه «المقاطعة» فكان يبعث ببعض عيره إلى مدخل الشعب وهي محملة بشيء من الطعام ثم يدفعها إلى داخل الشعب حتى يستفيد المسلمون من حمولتها. وعن ذلك يقول الواقدي:

"حدثني «أبو إسحاق»، عن «عبد الرحمن بن محمد بن عبد»، عن «سعيد بن المسيب»، قال: نجا «حكيم» من الدهر مرتين لما أراد الله به من الخير. خرج رسول الله ﷺ على نفر من المشركين وهم جلوس يريدونه فقراً: «يس» وذر على رؤوسهم التراب فما انفلت منهم رجل إلا قتل، إلا «حكيم». وورد الحوض يوم بدر، فما ورد الحوض يومئذ أحد إلا قتل إلا «حكيم»²⁰.

ومن المعروف أن الفترة التي تسبق المناوشات والمعارك بين قريش والمسلمين كانت تشهد أنشطة استطلاعية واستكشافية مكثفة يقوم بها كلا الطرفين. فقائد قريش وزعيم الحملة ضد الرسول ﷺ في «بدر» «أبو جهل» أرسل مجموعة من الكشافة يقودهم «عمير بن وهب الجمحي»، ليقيموا قوة المسلمين. وعند رجوعه قدم لقائده تقريراً شفوياً يلخص به الموقف قائلاً: "إن عددهم ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون... ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلياء تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم."²¹

وحيث أن قريشاً كانت تفوقهم عدداً وعدة، لم يوفر الرسول ﷺ جهداً في سبيل رفع معنويات جيشه، فاستلهم الثقة فيهم وأكد لهم أن ثواب الله ينتظرهم، إما النصر المؤزر أو الشهادة إذا سقطوا في أرض المعركة. وكان تأثير هذا الكلام على نفوس أصحابه عظيماً. فبدأ المسلمون القتال بحماسة

عظيمة واندفاع شديد حتى قتلوا أكبر عدد من المشركين.²² وقد أشعلت الهزيمة النكراء في زعماء «قريش» الرغبة في الانتقام لمقتل عدد كبير من رجالهم، فكانت السبب الرئيس لنشوب «غزوة أحد».

١٤٣٣ هـ غزوة أحد 15 شعبان 3 هـ

افرزت النتائج التي تمخضت عنها «غزوة بدر» فقدان زعماء «مكة» وقياداتها العسكرية الهيبة والمكانة، لا بين أبناء جلدتهم فحسب، بل عند العرب من غير قريش أيضاً. فرغم التفوق الكبير لعدد مقاتلي قريش على جيش الرسول ﷺ، تمكن المسلمون من تحقيق نصر مؤزر عليهم، حيث خسرت قريش ما بين 50 و70 رجلاً وأسِر منها عدد مماثل. أما خسائر المسلمين فكانت طفيفة لا تتعدى 14 رجلاً، ولا تمثل سوى نسبة ضئيلة من قوتهم. وقد أثبت الرسول ﷺ من خلال استهدافه عصب تجارة قريش مع العالم الخارجي، لا سيما مع «سوريا البيزنطية»، أنه كان مفكراً استراتيجياً محنكاً بعيد النظر ومشهوداً له بالكفاءة والدراية فضلاً عن كونه مجيداً لقراءة الأحداث ومستشرفاً لآفاق المستقبل. فقد كان على يقين منذ البدء أن «قريشاً» لن تخضع إلا إذا تم تقويض مكانتها الاقتصادية، وشل حركة قوافلها التجارية. وهذا بالفعل ما تحقق له ﷺ في غضون بضعة سنين فقط. بيد أن «قريشاً» ما كانت لتقبل تلك الهزيمة بهذه السهولة، فكانوا مصممين على الثأر لقتلهم، وغسل العار والمرارة التي خلفتها عقدة «بدر». وكانوا أيضاً يتطلعون إلى استعادة نشاطهم الاقتصادي، واستئناف علاقاتهم الخارجية، وتأمين طرق القوافل البرية من جديد بين «مكة» من جهة، و«اليمن» و«سوريا» و«العراق» من جهة أخرى.²³

شرع القرشيون في الفترة التي أعقبت «غزوة بدر» مباشرة بدراسة أوضاعهم والغوص في أعماق أنفسهم ومساءلتها ومراجعة أفعالهم للوقوف على مواطن الضعف لديهم لإصلاحها كي يتجنبوا تكرارها. ويإيجاز شديد

كان عليهم أن يكتشفوا العوامل التي أدت إلى هزيمتهم وانتصار المسلمين المبهر على جيشهم الذي كان يفوقهم عدداً وعدة. لذلك بذل القرشيون جهوداً عظيمة لجمع المعلومات عن جيش المسلمين وللتعرف على نقاط الضعف فيه لكي يتمكنوا من استغلالها، والنفوذ من خلالها في مواجهاتهم القادمة.

ولم يكن المسلمون أقل تحمساً منهم لمعرفة تفاصيل الاستعدادات العسكرية وطبيعة العمل الانتقامي المرتقب الذي كان قادة «قريش» يجاهرون بالتخطيط له. وكان من الطبيعي إذن خلال تلك الفترة التي بلغ فيها الترقب والتوتر والقلق مبلغه، أن تزداد النشاطات الاستخبارية وخاصة أعمال الجمع السري للمعلومات. فتقارير العيون والعملاء المستترين الآخرين من أمثال المسافرين العابرين والتجار، لم تكن تكفي لتوفير صورة واضحة عن إمكانيات كل طرف ونواياه وخطته، ذلك أن «الاستخبارات التكتيكية» بحاجة على الدوام إلى الوقوف على التطورات المتواصلة للأحداث ومعرفة أكثر تفاصيلها دقة.

ولكي يضمن المسلمون استمرار نجاح غاراتهم على القوافل المتجهة إلى «مكة» والقادمة منها، فقد طوروا نظاماً خاصاً للمراقبة المستمرة من خلال العيون المتنكرين والمنتشرين في كل مكان، فنجحوا في الحصول على المعلومات التفصيلية عن الطرق البديلة التي كانت قوافل القرشيين تسلكها لتتجاوز صعوبات الحصار الاقتصادي وتتحاشي هجمات المسلمين. واستفاد الرسول ﷺ من الاستخبارات المتحصل عليها، في شن سلسلة من الغارات الناجحة رغم التدابير الوقائية التي عمدت إليها قريش، كتكثيف الحماية، واستعمال أدلاء ذوي خبرة واسعة بمسالك الصحراء، وإجراء تعديلات مستمرة على خطط سيرهم وطرق التجارة التي يسلكونها. فكانت قوافلهم رغم كل تلك الاجراءات التحوطية تفاجأ بغارات المسلمين عليها.

ومن أبرز الأمثلة التي تضرب على ذلك ما حدث لغير «صفوان بن أمية».²⁴ فعندما شعر «صفوان» أن الحصار بات يستهلك رأس ماله، أشار عليه أصحابه بأن يسلك بقافلته «طريق الساحل»، وهو الطريق المؤدي للعراق. وعندما تحجج «صفوان» لأصحابه بعدم معرفته بذلك الطريق، أرشدوه إلى دليل خريت ملم بتلك النواحي يدعى «فرات بن حيان العجلي»:

خرج مع «صفوان عبد الله بن أبي ربيعة» و«حويطب بن عبد العزى» في رجال من «قريش»، وخرج «صفوان» بمال كثير نقر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم وخرجوا على «ذات عرق». وقدم «المدينة» «نعيم بن مسعود الأشجعي»، وهو على دين قومه فنزل على «كنانة ابن أبي الحقيق» في «بنى النضير». هذا، وحضر ذلك الكلام «سليط بن النعمان بن أسلم» الذي كان يأتي «بنى النضير» أحياناً ويجالسهم، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل رسول الله ﷺ «زيد بن حارثة» في مائة راكب فاعترضوا لها فأصابوا العير.²⁵

ولأن حتمية المواجهة الدامية بين الرسول ﷺ وأهل «مكة» كان لا مفر منها، فقد خطط «أبو سفيان» وصحبه من زعماء القبائل لحرب مفاجئة ضروس على المسلمين. وقبل تنفيذ خطط الحرب السرية، مرر أحد عيون الرسول ﷺ في «مكة» تفاصيل عن اعتداء وشيك عليهم. ولم يكن هذا «العين»، سوى «أبي الفضل، العباس بن عبد المطلب» عم رسول الله ﷺ الذي بعث برسالة إلى «المدينة» مفادها أن «قريشاً» قررت أن تسير نحوكم جميعاً. إنهم أوشكوا على الوصول، وإن عليكم أن تفعلوا ما عليكم. لقد جاءت «قريش» بجيش قوامه ثلاثة آلاف. ومعهم ثلاثمائة جمل، ومئتا فرس، وسبعمائة درع، وعندهم من السلاح والعتاد ما يفيض.²⁷ وقد وصلت هذه

التفاصيل الاستخبارية الخطيرة والحساسة في وقتها المناسب حيث وفرت على الرسول ﷺ وقتاً قيماً استطاع أن يرفع مستوى الاستعداد عند رؤساء أركان جيشه ليعدوا خططاً مثلى لمقاومة الهجوم الوشيك.

ولم يكن «العباس» «الوكيل» السري الوحيد في «مكة» الذي كان يمد الرسول ﷺ بمعلومات قيمة عن التعبئة المكية، فهناك رجل آخر هو «عمرو بن سالم الخزاعي» الذي كان من قبيلة خزاعة التي دخلت حلفاً مع رسول الله ﷺ بعد «الحديبية». فمن باب التواري، لحق «عمرو» هذا بعدد من أصحابه من رجال القبائل كانوا مسافرين أصلاً من «مكة» إلى «المدينة»، ولكنه استغل الفرصة حتى يطلع الرسول ﷺ على الهجوم الوشيك.²⁸ وما أن نقل رسالته حتى أقفل عائداً إلى «مكة». لكن أنباء سفره المستعجل إلى «المدينة» وصلت «جهاز الاستخبارات السري» لقريش، حيث كان عملاؤها قد أبصروه في مكان يدعى «الأبواء». وعلى الفور تم إعلام القائد الأعلى لقوات «قريش» «أبي سفيان» بمهمة «عمرو» السرية. وهنا أدرك «أبو سفيان» أن قريشاً لم تعد تملك ميزة المباغته، ذلك أن المسلمين باتوا الآن على علم بعددهم وتحركاتهم ونواياهم.²⁹

وحال وصول المسلمين تقارير مؤكدة عن تعبئة قريش ضدهم، بدأوا بعمليات مراقبة عن بعد لقريش، وشرعوا بتنفيذ مهمات وظيفية ضرورية في الاستخبارات العسكرية كالجمع التكتيكي للمعلومات، ورفع أهبة الاستعداد تحسباً لأي تحول مفاجئ للأحداث. وزاد «عمر بن الخطاب» من عدد حراس الليل، وأمر بغلق كافة نقاط الدخول إلى «المدينة» والخروج منها. وفي هذه الأثناء أمر الرسول ﷺ اثنين من عناصره الاستخبارية، وهما «أنس بن فضالة» وأخوه «مؤنس»، ليتجها إلى المكان الذين نصب فيه جيش «قريش» خيامهم وذلك لاستطلاع المنطقة وجمع المعلومات.³⁰

وبعد أن نجح «ابنا فضالة» في اختراق صفوف الأعداء رجعا إلى «المدينة» دون أن يثيرا شكوك الهدف. ومن استقراء التفاصيل التي قدمها للرسول ﷺ عن مقدار استهلاك مواشيهم للنبات في المنطقة، استنتج المسلمون عدد الخيول والجمال والماشية الأخرى لدى العدو.³¹ وزيادة في الحيلة والحذر ولكي يتثبت على نحو قاطع من المعلومات التي أوردها الأخوان «أنس» و«مؤنس»، قرر الرسول ﷺ إرسال كشف آخر: بعث رسول الله ﷺ «الحباب بن المنذر بن الجموح» إلى القوم سرًا، وقال لـ «الحباب»: «لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة»، فرجع إليه فأخبره خاليًا، فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيت؟» قال: رأيت يا رسول الله عددًا، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، والخيول مائتي فرس ورأيت دروعًا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع. قال: «هل رأيت ظعنًا؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار (الأكبار يعنى الطبول). فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرصن القوم ويذكرنهم قتلى «بدر»، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول».³²

حوى تقرير «الحباب» من المعلومات، ما زاد عما جاء به الأخوان، خصوصًا فيما يتصل بتفاصيل استعدادات الجيش القرشي وتموينه وتجهيزاته. وحوى التقرير أيضًا معلومات عن الحالة النفسية للمحاربين القادمين ومحاولات قادتهم استنهاض الهمم وحثهم على القتال من خلال تذكيرهم بالذين قتلوا في المواجهة الأولى. ولا يخفى أن من بين الأسباب التي دعت القرشيين إلى اصطحاب الأرامل والنساء هو إشارة الحمية لدى المقاتلين وتذكيرهم بوجوب الانتقام للثكالي والأرامل، وضرورة تطهير كرامة

«قريش» وسمعتها مما لحق بهما من هزيمة «بدر».³³ ثمة سبب آخر لوجود النساء في أرض المعركة فقد كان منظرهن وهن ينقرن بالدفوف والطبول وتعلو أصواتهن بالهتافات والنداءات والأناشيد يحفز رجال القبائل على القتال بشجاعة أمامهن فقيم المجتمع الذكوري تحتم على الرجال في مثل هذه الظروف أن لا يهربوا أمام الصعاب والمحن مهما بلغت.

واصل المسلمون عملياتهم الاستكشافية وكثفوها بعد «بدر». وعلى سبيل المثال ان الرسول ﷺ بعث عشية المواجهة مع جيش «قريش» في «أحد» أحد عناصره وهو «سلمة بن سلام بن وقش» في عملية سرية وأمره بأن يخترق صفوف «قريش» ويرجع إليه بترتيباتهم النهائية:

خرج «سلمة» يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى العرض
إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس فركضوا في
أثره فوقف لهم على نشز من الحرة، فراشقهم بالنبل مرة
وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه. فلما ولوا جاء إلى
مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفاً كان له ودرع حديد
كانا دفنا في ناحية المزرعة فخرج بهما يعدو حتى أتى «بنى
عبد الأشهل» فخبر قومه بما لقي منهم.³⁴

ولم يعتمد الرسول ﷺ في هذه المواجهات المطولة مع قريش على «الوكلاء السريين» فحسب بل كان لديه من الفرسان المتفانين وذوي الخبرة في شؤون الحرب النفسية من الذين كانوا يسربون المعلومات قصدا بهدف إضعاف معنويات الأعداء، وكان تصله أيضاً معلومات حيوية من بعض من جندهم المسلمون من رجال الصحراء وأدلتها المتمرسين الذين كانوا يملكون معلومات دقيقة عن طرق سير القوافل والبدايل القصيرة الآمنة وغيرها مما يتصل بتفاصيل الحياة وسط الرمال الحارقة، وكان هؤلاء

على جانب كبير من الأهمية لنجاح أية عملية عسكرية. وما قول رسول الله ﷺ "هكذا جاءني" عندما سأل «حباباً» فيما إذا كان قد رأى ظعنًا مع جيش قريش، إلا دلالة واضحة على ورود تقارير أخرى لم ترد تفاصيلها في المصادر التاريخية والسير .

بعد أن جمع الرسول ﷺ المعلومات المتوفرة وحللها وبعد أن انتهى من تجهيز جيشه الذي كان قوامه ألف رجل للمعركة الوشيكة، استشار المهاجرين والأنصار، ثم أصدر أوامره وبمساعدة من أحد هؤلاء الرجال وهو «أبو هثامة الحارثي»، بالتقدم في اتجاه جيش قريش. وتحرك المسلمون تحت جناح الظلام واختاروا مسلكاً لا يعرفه كثيرون ولا تراقبه «قريش»، فتمكنوا من الوصول إلى «جبل أحد» دون أن يُفطن إليهم. إلا أنه قبل أن يصلوا ساحة المعركة وعند مكان يدعى الشوط، إذ بأحد القادة وهو زعيم قبيلة الخزرج «عبد الله بن أبي سلول» الذي عرف فيما بعد بمسمى «رأس المنافقين»، ينسحب من قوة الجيش، آخذاً معه ثلاثمائة مقاتل، محتجاً على خطة الرسول ﷺ في الخروج لملاقاة «قريش» عند «جبل أحد»، قائلاً "أطاعهم وعصاني" مشيراً إلى أن الرسول ﷺ أخذ برأي من طلبوا الخروج لملاقاة المشركين خارج «المدينة» بينما كان رأيهم أن ترك «المدينة» سيعرضهم لكارثة يقتلون فيها، وقد قال حينئذ عندما استشارهم رسول الله ﷺ في الخروج لملاقاة قريش:

"يا رسول الله، كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراير في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا، ونشبك «المدينة» بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام ونقاتل بأسياقنا في السكك، يا رسول الله إن مدينتنا عذراء

ما فضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا،
وما دخل علينا قط إلا أصبناه فدعهم يا رسول الله فإنهم
إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين
مغلوبين لم ينالوا خيرًا، يا رسول الله أطعني في هذا الأمر
واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي
منهم فهم كانوا أهل الحرب والتجربة." ³⁵



موقع غزوة أحد ويظهر في وسط الصورة جبل الرماة

ومما لا شك فيه أن «ابن سلول» كان بمثابة «عميل» لقريش، بل كان حتماً يعمل لحسابهم، ولحساب أعداء النبي ﷺ واليهود في «المدينة». فتشكيكه في جدوى الخروج إلى قريش وعدم التحصن لهم في «المدينة» قوّض من معنويات المسلمين فضلاً عن أن انسحابه المفاجئ من المعركة الوشيكة خلف أثراً سلبياً آخر ذلك أنه أضعف من قدرات المسلمين العسكرية بعد أن خفّض عدد مقاتليهم من ألف إلى سبعمائة. لا غرابة إذاً، أن «ابن سلول» هذا قد سُمّي برأس النفاق.³⁶

بعد وصول جيش المسلمين إلى أرض المعركة، بدأ الرسول ﷺ على الفور عمليات استطلاع متواصلة حتى يتعرف قاداته على مواقع العدو وطبيعة الأرض وخصائص تضاريسها، والتي كانت سرعان ما تتحول إلى مسرح للمواجهة. وقرر الرسول ﷺ أن يجعل جبل أحد خلفه، ويستفيد من «جبل عينين» لتمرکز رماة السهام لتأمين مؤخرة الجيش. فخصص لذلك خمسين رامياً، وأمرهم ألا يتركوا مواقعهم.³⁷

وفي الجولة الأولى من المعركة، حيث أرغم المسلمون الجيش القرشي على التراجع والفرار من ساحة القتال، وما أن شعر المسلمون أن النصر قد لاح حتى سارعوا إلى جمع الغنائم. وهنا خالف الرماة تعليمات الرسول ﷺ فغادروا مواقعهم من على «جبل عينين» المسمى بجبل الرماة، لمشاركة بقية الجيش للحصول على نصيب من تلك الغنائم. وإزاء قلة هذا الانضباط العسكري لمجموعة الرماة، وتجاهلهم الصريح للتوجيهات النبوية الشريفة، والاندفاع نحو تحقيق مكاسب آنية، كانت التبعات فيها وخيمة عليهم. فقد لاحظ القائد «خالد بن الوليد» -ضابط الميمنة لجيش العدو- أن جبل عينين قد خلا من الرماة، فتقدم سريعاً بمئتين من رجاله واحتلوا الجبل، ملتفين بذلك على جيش المسلمين من الخلف، ففاجأوه وألحقوا به خسائر ثقيلة.

وهكذا تمكن الذعر والهلع من الجيش المسلم، وتعرض الرسول ﷺ لجرح في وجهه، وسقط الكثير من أصحابه ومقاتليه. وانتشرت الشائعات سريعاً في ميدان المعركة، وكان من بين أخطر تلك الشائعات أن الرسول ﷺ قد قُتل. فعلى الرغم من شراسة الهجوم القرشي وانفضاض كثيرين عن ساحة القتال ثبت مع الرسول ﷺ نفر قليل من المسلمين استطاعوا بأجسادهم وبقوة إيمانهم بالله أن يحولوا بين «قريش» وبين الوصول إلى النبي ﷺ. ثم تراجعت «قريش» من جديد. وكانت خسائر المسلمين في المعركة 70 مقاتلاً أما «قريش» فلم تخسر سوى 20 من رجالها.³⁸

باب ٣ : غزوة الخندق شوال 5 هـ

تعود جذور «غزوة الخندق» إلى مواجهة قديمة بين المسلمين و«يهود بني النضير»، الذين أجلاهم الرسول ﷺ من «المدينة» إلى «خيبر». ف«بنو النضير» وفق ما ترويّه كتب التاريخ لم ينسوا للرسول ﷺ إخراجهم من «المدينة» حيث أخذوا يتحينون الفرص للانتقام. وكانوا يسعون على الدوام إلى شن هجوم كاسح على «المدينة»، معقل الرسول ﷺ، كي يضعوا نهاية للخطر الإسلامي مرة وإلى الأبد. وحيث أنهم لا يستطيعون وحدهم تنفيذ خطة طموحة كهذه، فقد كان عليهم أن يشركوا معهم أكبر عدد من أعداء الرسول ﷺ لتشكيل قوة كافية لإعادة رسم الخريطة الجديدة على الأرض.³⁹ وإلى جانب شن حملة تشويه منظمة واسعة ضد الرسول ﷺ تضمنت استراتيجية «بني النضير» أيضاً اندفاعاً قوياً نحو عقد تحالفات واتفاقيات جديدة. وحتى يستميلوا قبائل العرب، وعدوهم المال والمؤونة إذا انضموا إليهم في جهدهم العسكري ضد الرسول ﷺ. ولتحقيق هذا الغرض أي لتجيش القبائل ضد المسلمين خرج عدد من كبار اليهود، يساعدهم نفر غير قليل من زعماء قبائل أخرى، في بعثات متواصلة وجولات كبيرة للاتصال المحموم بالقبائل في عموم أنحاء الجزيرة.⁴⁰ ونقلًا عما يرويّه «ابن إسحاق»، يقول «المباركفوري»:

إن عشرين زعيماً وكبيراً من كبار اليهود من «بني النضير»، ذهبوا إلى «مكة» يتفاوضون على عقد تحالف مع قريش ويحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى «بدر»، فرأت في ذلك إنقاذاً لسمعتها والبر بكلمتها. ثم خرج هذا الوفد إلى

«غَطَفَان»، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ والمسلمين. وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب «قريش» و«كنانة» وحلفاؤهم من أهل تهامة وقائدهم «أبو سفيان» في أربعة آلاف، ووافاهم «بنو سليم» بـ «مَرَّ الظُّهْرَان»، وخرجت من الشرق «قبائل غطفان»: «بنو فزارة»، يقودهم «عُيَيْنَةُ بن حِصْن»، و«بنو مُرَّة»، يقودهم «الحارث بن عوف»، و«بنو أشجع»، يقودهم «مِسْعَر بن رُحَيْلَةَ»، كما خرجت «بنو أسد» وغيرها. واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو «المدينة» على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.⁴¹

كان على المسلمين، وقد فاقهم جيش قريش الذي بلغ 10 آلاف مقاتل، أن يرسموا استراتيجية دفاع متينة فعالة تُبطل هذه الأفضلية العددية. فقد كانت الأرض شمالي «المدينة» منبسطة ليس فيها أي مصدات أو عوائق طبيعية الأمر الذي كان يعرض المتموضعين فيها لخطر كبير، لهذا توقع قادة المسلمين أن يركز العدو على تلك الجهة. وهنا طرح أحد أصحاب الرسول ﷺ فكرة مبتكرة للغاية فقال: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنَدَقْنَا علينا».⁴² هكذا أشار سلمان الفارسي على رسول الله ﷺ. ثم بدأ المسلمون، يقودهم رسول الله ﷺ يشجعهم ويساعدهم ويذكرهم بثواب الآخرة، يحفرون خندقاً حول «المدينة»، «ولم يمنعهم الجوع، وقد بلغ بهم مبلغ الهلاك أو كاد، أو يثْنهم عن تحقيق ما يطمحون إليه».⁴³ وأتموا حفر الخندق بسرعة فائقة، حتى أن قريشاً فوجئت به تماماً: إذ كانت هذه الخطة كما قالوا مكيدة ما عرفتتها العرب،

فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم. وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً، يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يتجرؤوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقاً يمكنهم من العبور. وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منهم جماعة فيها «عمر بن عبد» و«عكرمة بن أبي جهل» و«ضرار بن الخطاب» وغيرهم، فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السَّبخة بين الخندق وسَلْع، وخرج «علي بن أبي طالب» في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا «عمر» إلى المبارزة، فانتدب له «علي بن أبي طالب»، وقال كلمة حمي لأجلها وكان من شجعان المشركين وأبطالهم فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على «علي»، فتجاولا وتصارولا حتى قتله «علي» -رضي الله عنه-، وانهزم الباقون.⁴⁴

وعند استقراء الأحداث التي توالى عشية «غزوة الخندق» فستدرك أن استعمال الرسول ﷺ للاستخبارات كان عاملاً أساسياً وراء إحباط الاعتداء على «المدينة». فما أن أخذت قريش تتقدم نحو «المدينة»، حتى أخذت الأنباء تتدفق سريعاً إلى الرسول ﷺ وصحبه، ذلك أن مصادر المسلمين، ومعظمها من قبيلة خزاعة- جهدت في إبقاء المقر الرئيس في «المدينة» ملباً بما استطاعت أن تستجمعه من أنباء تناهت إلى سمعها أو تمكنت من استحصالها عبر عيونها المنتشرين في أوساط قريش. ويستدل من هذا أن

«قريشاً» كانت -وعلى مدى عدة أيام سبقت الصدام المنتظر- مراقبة على طول الطريق الممتد إلى «المدينة».⁴⁵ فقد أورد وكلاء المسلمين في تقارير سابقة معلومات دقيقة عن حجم الجيش الذي حشدته «قريش»، الذي كان يفوق جيش المسلمين -كما سبقت الإشارة- في السلاح والعتاد والرجال. ومن هذه التقارير علم الرسول ﷺ أن «قريشاً» جندت عشرة آلاف مقاتل، وثلاثة آلاف فارس ضد جيشه الذي لم يكن يتعدى ثلاثة آلاف رجل فقط. لذلك وللتخفيف من تأثير التباين في ميزان القوة قرر الرسول ﷺ -الذي كان قد درس طبيعة الأرض حول «المدينة» دراسة دقيقة- استغلال طوبوغرافية وطبيعة التضاريس الأرضية استغلالاً أمثل، وتطويع الجغرافية لخدمة الأهداف الاستراتيجية للمسلمين ومنها الدفاع وكسب المعركة.

فبعد مشاورته ﷺ لقادته اتضح أن أفضل خيار للمسلمين هو أن يتحاشوا مواجهات مباشرة مع «قريش»، والعمل على تطبيق استراتيجية بعيدة المدى ترمي إلى استنزاف طاقات القبائل والأحزاب المتحالفة من خلال اعتماد أسلوب المناوشات والصدامات المحدودة. والغاية من ذلك كله هو إرهاق «قريش» وإجبارها على استهلاك مواردها لاسيما أن تلك المواجهات تزامنت مع حلول فصل الشتاء البارد الذي يصعب على الإنسان تحمله، كما يصعب أثناءه الحصول على أعلاف للأنعام بسبب الجفاف الذي يسود مثل هذه الأيام، وتتناقص خلاله مساحات الأرض المتاحة لرعي الخيول والجمال والأنعام.

إن قرار الرسول ﷺ إرجاء المواجهة الشاملة والاستعاضة بدلاً عن ذلك بخوض حرب استنزاف طويلة الأمد، كان بلا شك قراراً استراتيجياً صائباً أملت فيه الظروف الجغرافية والمناخية. ومما لا شك فيه أيضاً أن ميزان القوى بين المشركين والمسلمين دفع بهذا الاتجاه فضلاً عن أن القرار أخذ في

عين الاعتبار أيضاً أن الثأرات والحروب الانتقامية قد تدوم أجيالاً، وأن عرب الصحراء لم يتعودوا على قتال يمتد طويلاً.⁴⁶ كل ذلك كان يشير إلى أن الانتظار واستنزاف صبر العدو وإرهاق كاهله كفيل بإنهاكه وبالتالي بهزيمته دون الحاجة إلى ملاقاته.

وكما ذكرنا إن الرسول ﷺ باستطلاع الأرض حول «المدينة» استطلاعاً مباشراً، استطاع الحصول على معلومات مفصلة عن خصائصها، وعن الحواجز الطبيعية التي يمكن استغلالها لأغراض الدفاع. لذلك قرر المسلمون الاستفادة من جبل سلع والمرتفعات حوله والتي كانت تحصنهم بشكل مميز ضد أي جيش يتقدم إليهم من الجنوب. وكانت هناك جبال أخرى لا يمكن اختراقها، تمثل هي أيضاً عوائق طبيعية تحمي ظهر الجيش. ولكن -وكما سبقت الإشارة- فإن السهول المترامية من الشمال تحدث -وبشكل خطير- خطة الرسول ﷺ للدفاع عن «المدينة»، من هنا اتخذ قرار الموافقة على حفر الخندق لكي يكون حائلاً دون أي تقدم للعدو من تلك الجهة.

وهكذا وكما قالت العرب في أمثالها "لا خاب من استخار ولا ندم من استشار". وعندما سعى رسول الله ﷺ إلى طلب المشورة فإنه استشار صاحب رأي في تخصصه، ف«سلمان» رضي الله عنه سبق وأن خبر مثل هذا الحفر للخنادق وفي ظروف مشابهة عند الحصار من العدو. إذاً، فأخذ القائد للرأي، لا يكون أخذاً عشوائياً.⁴⁷

وتم نشر الحراس والدوريات سريعاً لمراقبة أي تحرك مريب. ولاستغلال قواته أفضل استغلال، نشر الرسول ﷺ الكتائب الكبرى للدفاع عن نقطة الضعف هذه، أما الوحدات الأصغر فوضعت في جبل سلع أو حوله، حيث لا يُتوقع مواجهة مباشرة وحيث السلاح الوحيد الذي يكون فعالاً هو النبال



مخطط يوضح تحالف قوات المشركين ومواقع المسلمين في غزوة الخندق

والحجارة التي تقذفها آلات المنجنيق.⁴⁸

وعندما اكتشف قائد الجيش القرشي أن الرسول ﷺ حفر خندقاً بالجهة الشمالية، أصيب بدهشة عظيمة، وصرخ قائلاً "أنها مكيدة ما عرفتھا العرب من قبل"⁴⁹. ولم يكن أمام جيوش الأحزاب خيار آخر سوى التعسكر والتموضع خارج «المدينة» وأن يبدأوا حصاراً لها، بعد أن «حُوصِرُوا» هم بهذه الخطة. فلم يكن لديهم من المؤن ما يزيد عما عند المدافعين عن «المدينة»، فضلاً عن كونهم عير قادرين على اختراق الخندق.

وأدركت قريش أن أفضل خيار لهم هو إيجاد ثغرة يستطيعون عن طريقها التسلل إلى معقل الرسول ﷺ بـ «المدينة». من هنا اتصلوا بيهود «بني قريظة» للتحالف معهم ضد المسلمين. وينقل لنا المؤرخون أنهم أقنعوا اليهود بنقض عهد أبرموه مع المسلمين في وقت سابق. وعندما وصلت أنباء غدر «بني قريظة» لرسول ﷺ، وجه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه ليتأكد من هذه التطورات الخطيرة. فأرسل عمر «عنصرًا استخباريًا» هو «الزبير بن العوام» الذي استطاع بالفعل أن يؤكد هذه التقارير، بأن «بني قريظة» كانوا في الواقع يستعدون للحرب لأنه رأهم "يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم"⁵⁰. وعلم الرسول ﷺ أيضًا أن «بني قريظة» اقترحوا أن يشن ألف من الفرسان هجومًا على «المدينة» من أرضهم. وفي ظل تواتر المعلومات وتراكم الشكوك والغموض، قرر الرسول ﷺ أن يزيد من عدد الحراس ودوريات الخيول التي تحرس «المدينة»، فكلف 500 رجل بذلك. ولزرع الثقة بين سكان «المدينة»، وإشعارهم بالأمان كانت الدوريات تجوب شوارع «المدينة» وهي تكبر «الله أكبر» ليل نهار.⁵¹

إن نقض «بني قريظة» لعهدهم كان، ضمن أمور أخرى، تطوراً خطيراً لم يكن في الحسبان، لاسيما أنهم سبق أن ألزموا أنفسهم بالحفاظ على العهد

مع المسلمين. وكان هذا التطور أيضًا ضربة نفسية كبيرة للمسلمين. ويقول «أبو بكر الصديق» -رضي الله عنه- عن ذلك:

"لقد خفنا على الذراري بـ«المدينة» من «بنى قريظة»
أشد من خوفنا من «قريش» و«غطفان»، ولقد كنت أوفى
على سلع فأنظر إلى بيوت «المدينة»، فإذا رأيتهم هادين
حمدت الله عز وجل فكان مما رد الله به «بنى قريظة» عما
أرادوا أن «المدينة» كانت تحرس".⁵²

لذلك كله أدرك الرسول ﷺ أن ميزان القوى لم يكن في صالح المسلمين،
وأدرك أيضًا أن عليه أن يبتكر خطة يستطيع بها أن يكسر التحالف العريض
المتجمع ضده والمؤلف من «اليهود» و«قريش» وقبائل عربية أخرى.

وهنا طلب الرسول ﷺ من أحد امهر العناصر الاستخبارية انذاك
«نعيم بن مسعود» من «قبيلة غطفان» حين قدم إليه معلناً إسلامه، بأن يكتم
إسلامه وأن ينفذ مهمة دقيقة وسرية للغاية، هدفها تقويض التحالف الكبير ضد
المسلمين وتفتيته. ولكونه موضع ثقة في قبيلته ويحظى بثقة القبائل الأخرى
في المعسكر المعادي للمسلمين، وكذلك تميزه بعلاقات شخصية قوية مع يهود
«بنى قريظة»، من شأنها أن تسهل له تلك المهمة ويجعل ما يقوم به مقبولاً لدى
كل الأطراف دون شك.

ولتفريق هذا التحالف فقد عمد «ابن مسعود» إلى الجلوس مع قادة
«بنى قريظة» وإسداء المشورة لهم وإخبارهم بأن قريشًا إن أصابوا من محمد
فإنهم سيغنمون «المدينة» وما بها من أهلكم وأرضكم وإن انكشفوا عادوا إلى
أهلهم وأرضهم وتركوكم في مواجهة محمد، وهو ما لا قبل لكم فيه. وارتأى
عليهم لضمان صمود قريش معهم في الحرب أن يقدموا لهم رهناً بعدد من

أشرفهم وأكابرهم ليبرهنوا على صدق تحالفهم وعدم انسحابهم. ثم ذهب إلى قريش وأبلغهم بأن بني قريظة قد ندموا على نقضهم العهد واتصلوا بمحمد وطلبوا رضائه مقابل أن يقدموا له من قبائل «قريش» و «غطفان» مائة رجل من أكابرهم وأشرفهم فيضرب أعناقهم ثم يكونوا معه على من تبقى منهم. ثم فعل ذلك أيضًا مع قبيلته «غطفان».⁵³ وقد نجحت مكيمة «ابن مسعود» في اختراق التحالف المعادي، وكسر إجماعه وتشتيته.

استقبل المسلمون نجاح تلك الخطة بفرحة عارمة، والتي بها أوشك التهديد والخطر على الزوال، ولكن الرسول ﷺ من جهته كان ملازمًا الحذر على الدوام. فأمر أحد أصحابه وهو الصحابي الجليل «حذيفة بن اليمان» بأن يتسلل في مهمة سرية لاختراق صفوف «قريش»، ليحاول اكتشاف خططهم ويقيم الحالة النفسية عندهم، لا سيما أن جيشهم خسر الآن نسبة معتبرة من أنصاره، والمتحالفين معه. وعندما تسلل بينهم، أتاهم أبو سفيان وخطب فيهم قائلاً: «احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل امرئ من جلسه»، فقام «حذيفة» وأخذ بيد رجلين كانا بجانبه، وقال لهما: من أنتما؟ مبادراً بالسؤال دون أن يمكنهما من مساءلته، وبذلك أمّن حذيفة تواجده بينهم دون انكشاف. وبعد استماعه لخطاب «أبي سفيان»، رجع «ابن اليمان» بأخبار مفادها أن «قريشاً» في حالة يرثى لها وأن رياحاً شديدة البرودة كانت تهب عليهم، وتثقل كواهلهم. وأخبر الرسول ﷺ بخطاب «أبي سفيان» حين قال:

"إنكم والله لستم بدار مقام لقد هلك الخف والكراع وأجذب الجنب، وأخلفتنا «بنو قريظة»، وبلغنا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون والله ما يثبت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر فارتحلوا فإنى مرتحل."⁵⁴

وبعد انهيار التحالف والحصار الذي دام شهراً، بدأ رجال «قريش» يغادرون المكان أفواجاً وجماعات، وأخذ أصحاب رسول الله ﷺ الذين قنصوا

الليل والنهار يحفرون الخنادق يهللون ويكبرون محتفين بزوال الخطر ورفع
الحصار عن مدينتهم. حينها قال رسول الله ﷺ في ذلك "الآن نغزوهم ولا
يغزوننا، فنحن نسير إليهم".

4.5: غزوة حنين شوال 8 هـ

بعث رسول الله ﷺ بعد «فتح مكة» مباشرة، مناديب إلى القبائل القريبة من «مكة» لدعوتهم للدين الإسلامي، فاستجابت له القبائل التي تقع بالقرب من «مكة» أما الأخرى فكان لها وضع آخر. وكانت معظم القبائل المجاورة لـ«مكة» من أحلاف «قريش» وقد دخلت الدين الإسلامي دون قتال يذكر. أما القبائل التي كانت في عدااء مستمر مع أهل «مكة» فقد ناصبت العدااء لرسول الله ﷺ ودعوته. ومن بين تلك القبائل بطون قبيلة «هوازن» و«ثقيف» التي لم تكن فقط تتمتع بالقوة والنفوذ والغطرسة، بل كانت تشغل موقعاً استراتيجياً يقع شمال شرق «مكة» على طريق التجارة الدولية إلى «حيرة العراق». وكانت ترقب انتصارات محمد ﷺ المتوالية بشيء من التوجس والإحباط لاسيما أنها رفضت قبول الدعوة إلى الإسلام، وأخذت ترى في انتشار الدين الإسلامي خطراً يهدد كيائها ويدمر معتقدها، وانتهى الأمر بـ«هوازن» أنها باتت ترى أن الحرب مع المسلمين أضحت حتمية ولا مناص منها.⁵⁵

قام زعيم قبيلة «هوازن» «مالك بن عوف النصري»، بالإعداد للحرب، فحشد قواته، ودعا حلفاءه من قبائل عدة من المشركين للمشاركة في الهجوم على المسلمين والقضاء عليهم. استجابت لندائه قبائل عدة، وكانت قبيلة «ثقيف» من بين تلك القبائل التي وجدت في طلب المشاركة ليس نصرة لحلفائهم «هوازن» فحسب، بل فرصة للاقتصاص من «قريش» أعدائهم التاريخيين، ذلك أن حروباً كثيرة سبق أن نشبت بينهم قبل ظهور الإسلام. كما سارت إلى زعيم «هوازن» قبائل «نصر» و«جُشم» و«سعد بن بكر» وناس من «بني هلال» استعداداً لمواجهة المسلمين.⁵⁶ كان ولا بد لزعيم «هوازن» أن يتعرف على قوة خصمه الجيش الإسلامي، كتعداداته وتسليحه ونوايا قياداته. فبعث بثلاثة عيون من استخباراته، وأمرهم أن يندسوا في الجيش الإسلامي،

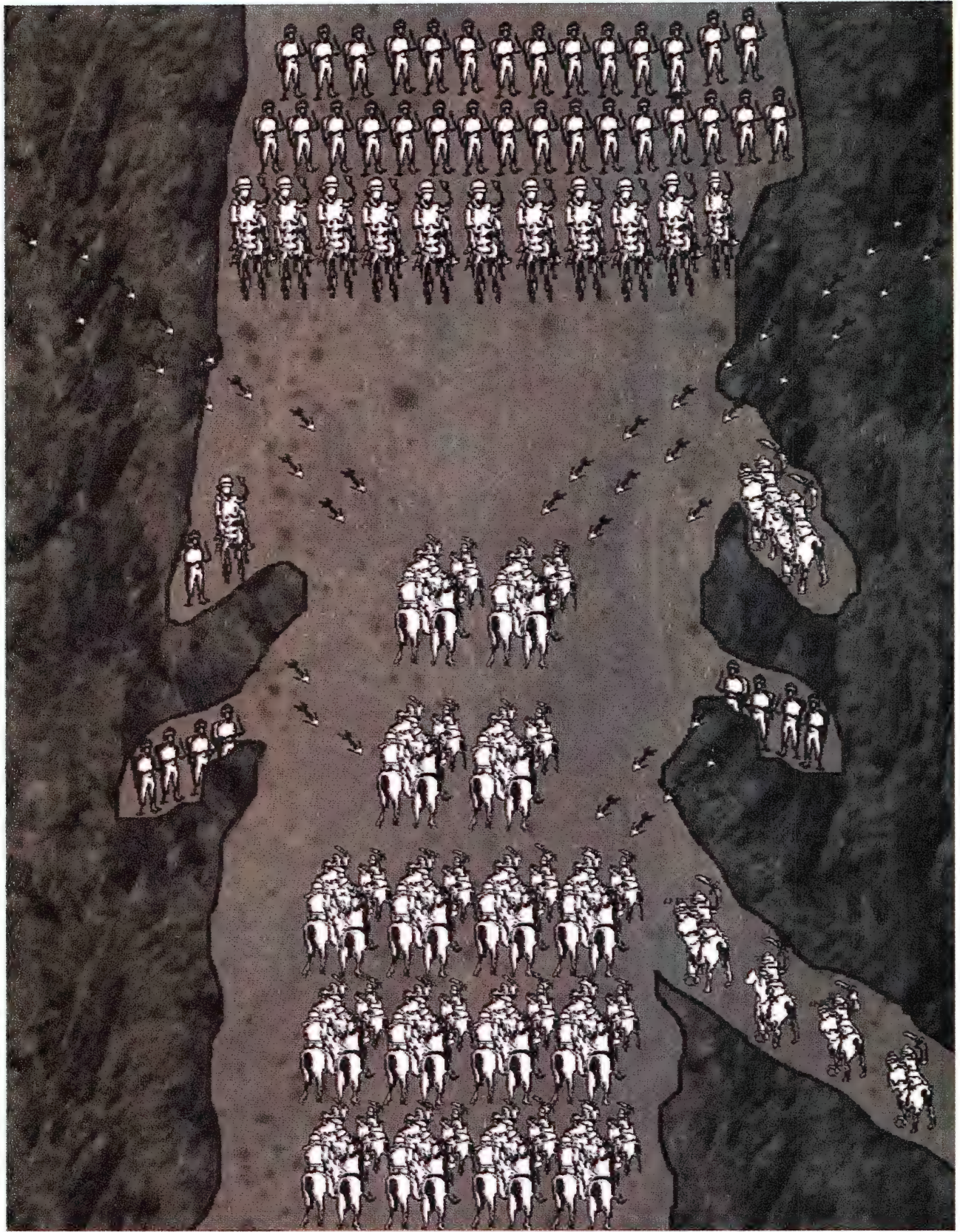
ويأتوا له بالأخبار. إلا أن ما رفعوه له من تقارير أشارت خيبة أمله، ولم يصدقها، واتهم عيونه بالخوف والجبن، وأمر بحجزهم ليمنع تسرب معلوماتهم التي قد تفت في عضد ومعنويات جيشه حال انتشارها. ثم بعث عيناً آخر له، لكن ما تحصل عليه هذا العين من معلومات لم تكن تختلف عن معلومات سابقة.⁵⁷

أعد «زعيم هوازن» خطة حربية على ضوء ما توفر لديه من معلومات، حدد فيها المكان والزمان للمعركة، وعمد على استخدام فنون الحرب كالتمويه والخداع لتحقيق النصر. كان «وادي حنين» هو موقع النزال الذي اختاره، لتمييزه بالعمق والطول في المسافة، وصلابة أرضه، وخلوها من الأشجار الكثيفة، والعوائق الصخرية، أو سبخة الغبار، ليعطي الخيل مدى في الحركة، والفرسان قدرة على المناورة. كما أن جانبي الوادي الشديدي الانحدار يشكلان عائقاً طبيعياً للنزول من خلاله أو الفرار عبره. ونشر قواته في الناحية القصوى لمدخل الوادي، ليتمكن بذلك من رصد دخول الجيش الإسلامي لأرض المعركة ولكي يعطي الانطباع بضخامة جيشه وتعداد عساكره. وكان هو السباق وبمدة كافية من الوقت للنزول إلى «وادي حنين»، مما مكنه من استطلاع الوادي واحتلال المواقع الاستراتيجية، ونشر قواته وإعداد الكمائن، وإعطاء العساكر قسطاً من الراحة قبل نشوب المعركة. وقد وفر هذا الوصول المبكر إلى ميدان المعركة تنفيذ خطة التمويه والخداع وإعداد الكمائن، فوزع مجاميع الرماة والخيالة في أخاديد وشعاب جانبي «وادي حنين» استعداداً للانقضاض على الجيش الإسلامي ومفاجأته عند نزولهم للدخول إلى الوادي. لقد أدى عامل الوقت دوراً مهماً في تنفيذ الخطة، ويبدو أن أعمال الخداع والتمويه التي نفذها حالت دون تمكن استخبارات الجيش الإسلامي من اكتشاف تلك الكمائن. يقول في ذلك أحد عناصر استخبارات رسول الله ﷺ: «يا رسول الله إني انطلقت من بين أيديكم

على جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظلعنها ونسائها ونعمها في وادي حنين»⁵⁸.

كان الجزء العلني من الخطة هو الإصرار على جعل النساء في الخلف على ظهور الإبل كأخر صف في قوة المشاة والأبناء والمواشي خلف قوة المشاة الهوازنية التي كان قد عسكر بها في مكان يقال له «أوطاس» وذلك لتحقيق دافع الاستبسال في المعركة والذود عن العرض والمال على حد زعمه، رغم معارضة أحد المحاربين القدامى له، والذي قال: "راعى ضأن ما له وللحرب؟ وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك"⁵⁹. يبدو أن «مالك» كان يهدف بذلك الوادي وجعله عند نزول الوادي يكمل مسيره متجهاً في هجومه إلى القوة الرئيسية في أقصى الوادي. وثانيهما إعطاء الانطباع بضخامة تعداد قوة الجيش الهوازني ليقوع الرهبة في قلوب الجيش الاسلامي.⁶⁰ عندها يتحقق عنصر المفاجأة بإمطار جيش المسلمين بالسهم، وهجوم الفرسان من كل جانب للقضاء على كل من تمكن من دخول الوادي من قوة اسلامية، مما سيجعل البقية تتقهقر وتفر من أرض المعركة إلى حيث أتت. وإن تحقق ذلك يكون قد أحكم خطته لتحقيق النصر.

كان الرسول ﷺ يرصد تحركات «مالك بن عوف» وحشود عساكره عن كثب. ولمعرفة الموقف على نحو أفضل، بعث رسول الله ﷺ أحد عناصره لاستطلاع الموقف الذي بدوره تمكن من اختراق صفوف العدو، والحصول على معلومات خطيرة. ومما أورده هذا العنصر الاستخباري من معلومات حساسة أن تعداد الجيش الهوازني كان عشرين ألف حامل للسيف وأن وقت المعركة تم تحديده في الصباح الباكر حيث سيبدأ الهجوم الكاسح على جيش المسلمين. وهنا أعد المسلمون خطتهم الحربية وفقاً لما ورد لهم من



مخطط تصوري لغزوة حنين يوضح بعض كمان وأماكن تركز المشركين في أعلى الوادي

معلومات عن جيش الكفار.⁶¹

كان تعداد الجيش الإسلامي آنذاك اثني عشر ألف مجاهد، منهم عشرة آلاف جندي كانوا قد قدموا من «المدينة» وألفان انضموا إليهم من أهل «مكة». فإلى جانب قوة المشاة الإسلامية، كان سلاح الفرسان يتكون من رجال قبيلة «بني سليم» بقيادة «خالد بن الوليد»، وكان الجيش ذا تسليح جيد، فممنهم من كانوا مجهزين بسلاحهم عند «فتح مكة» أما الآخرون فقد اقتنوا أسلحتهم وعتادهم من تجار السلاح بـ «مكة»، قبل تحرك الحملة العسكرية إلى «وادي حنين».⁶²

عند وصول الجيش الإسلامي إلى «وادي حنين»، وفي غلس الصبح، عقد ﷺ الرايات، وصف أرتال المشاة وحصنهم على القتال وبشرهم بالفتح، ثم انحدر الجند لـ «وادي حنين» في مقدمتهم «خيالة بني سليم»، وعندما تمكن الجزء الأكبر من الجيش الإسلامي من النزول إلى «وادي حنين» اذ بـ «كتائب هوازن» تخرج من كمائنهما وتهاجمهم في وقت واحد. ولم يرد في كتب التاريخ والسير حسب علمنا ما يشير إلى بعث فرق استطلاع بوقت كاف قبل المعركة، أو رجال الكشافة والعيون، لكشف الأخطار قبل انحدار الجيش الإسلامي لـ «وادي حنين»، مما نتج عنه تلك المفاجأة لمقدمة أرتال المشاة وجانبيها، وقد أخل ذلك بتوازن الجيش الإسلامي، وأربكه وعمت الفوضى، حيث انكشفت خيول المقدمة التي تراجعت ثم تبعها بعض مقاتلي أهل «مكة» من الطلقاء. وأخذت الجموع تبحث عن مسالك آمنة للخروج من الوادي، فاتجهت إلى الممر الذي قدمت منه، إلا أنه كان مكتظاً بمؤخرة الجيش الإسلامي الذي كان لا يزال ينحدر إلى الوادي. ويبدو أنها تكتلت القوى العسكرية والركائب عند مدخل الوادي في اتجاهين متضادين ولم تجد القوات المتقهقرة طريقاً سالكاً للخروج منه. وفي ظل هذا الموقف المباغت

انحاز رسول الله ﷺ مع بعض من أصحابه على رأس تل الى يمين الوادي، وأمر بمناداة قادة جيشه المتقهقر ليعودوا حوله، وهنا بدأ الالتفاف يعود حول رسول الله ﷺ شيئاً فشيئاً بعد أن اطمأن الجميع أن القائد لا يزال حياً. وأخذ يبث روح الجهاد فيهم، فهاجموا العدو ببسالة، وأخذ القتال يشتد، وازداد عداد المهاجمين العائدين للقتال، واستعاد المسلمون زمام الأمور وهنا قال رسول الله ﷺ كلمته الشهيرة « الان حمي الوطيس ».⁶³ في إشارة إلى حمى القتال وميلان الكفة لصالح المسلمين.

لم يمض بعض الوقت حتى تقهقر العدو، وفر من أرض المعركة وكتب النصر للمسلمين. يصف الله ذلك في محكم تنزيله قائلاً ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾⁶⁴. فثبت رسول الله ﷺ عندما انكشف عنه جيشه، وفي ذلك الارتباك المخيف، أنزل الله السكينة على نبيه ﷺ وجيشه وأمدهم بجند لم يروها، فاشتدت عزائمهم وأخذوا في الالتفاف حوله وبدأ جيش الكفر في التقهقر والهروب من حيث أتوا. فتابع الرسول الكريم ﷺ فلول «هوزان» و«ثقيف» الى «الطائف»، جاعلاً «خالد بن الوليد» في مقدمته، وأخذ الأدلاء يسلكون به الطريق إلى «الطائف». فوجدوا أن رجال «ثقيف» و«مالك بن عوف» قد تحصنوا خلف أسوار «المدينة»، فحاصروهم خمسة عشر يوماً، ثم فصل العودة إلى «مكة»، وهناك لحق به «مالك بن عوف» مسلماً، فرد عليه أهله وماله وأكرمه بمائة من الإبل.⁶⁵

لقد كان الإعجاب بالنفس، والاعتداد بالكثرة، والإحساس بالتفوق العددي من قبل أفراد جيش المسلمين وهم في الطريق إلى المعركة، من أهم الأسباب التي أدت إلى وقوع الهزيمة الأولى. وقد وصف الله ذلك في كتابه حيث قال : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا

وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٦٦﴾. إن عدم مبالاة المسلمين بخصمهم، وإحساسهم بالنصر مسبقاً، جعلهم يغفلون تقديم العيون وفتح الاستطلاع لموقع المعركة قبل الشروع بالهجوم. إن عدم رصد العيون لموقع كمائن «ابن عوف»، وعدم تحليل دوافع خطته جيداً، لاسيما في أسباب زجه بالنساء والذرياري خلف جيشه، كادت أن تسفر عن عواقب وخيمة.

من الملاحظ أن خطة «ابن عوف» في بادئ الأمر قد نجحت، ولكنها ما لبثت أن تحولت ضده. إذ كان للتوقيت، واحتلال المواقع الاستراتيجية مسبقاً، والقيام بنصب الكمائن، واستخدام فنون التمويه والخداع دور بارز في انكشاف جيش المسلمين وإجبارهم على التقهقر. إلا أن عدم الأخذ في الاعتبار وجود طريق مفتوح يسلكه الفارون من جند الجيش الإسلامي عند مباغته كتائب الكفار له، وعدم احتساب الوقت الكافي لولوج كامل أفراد الجيش للوادي ليصبح طريق القدام سالكاً للعودة، جعل الجيش الإسلامي يصطدم ببعضه ويتكدس أمام مدخل الوادي. في ظل هذا الواقع واستجابة لنداء رسول الله ﷺ عاود المسلمون تنظيم صفوفهم ومهاجمة العدو والقتال بضراوة. لقد نجحت خطة التمويه والخداع للكفار في إيهاام المسلمين بكثرة تعداد جيشهم وتمكنوا من إخفاء كمائنهم. يقول «الواقدي» عن ذلك في «كتاب المغازي»:

"لما انتهينا إلى «وادي حنين» - وهو واد من أودية تهامة له مضائق وشعاب - فاستقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من السواد والكثرة قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذريائهم ثم صفوا صفوفاً. فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم فلما

تحدرونا فى الوادي، فبيننا نحن فيه غلس الصبح إن شعرنا
إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه
فحملوا حملةً واحدةً⁶⁷

ويبدو مما تقدم أن «مالك بن عوف» قد زج بكامل قواته في المعركة ولم يستبق قوة احتياطية يمكن من خلالها تعزيز استمرار القوات المهاجمة، أو مهاجمة القوات المتكتلة أمام مدخل الوادي مستغلاً بذلك حالة الارتباك التي أحدثتها الكتائب الكامنة في اعتقاد منه أن الهجوم الكثيف والمباغت سيهزم المسلمين ويجبرهم على الفرار، وأن أمد المعركة لن يطول، ولكن الله أنجز وعده لنبيه ﷺ، فرغم إحكام العدو لمعظم عناصر خطته العسكرية، إلا أن الله مكن المسلمين منهم وأظهرهم عليهم.

الفصل الخامس

المهارات والفنون الاستخبارية

5.1: المهارات الاستخبارية في عهد النبوة

لقد تميز الرسول ﷺ عن سائر البشر بصفات حميدة لا حصر لها، منها الصبر والثبات وتحمل المشاق مهما عظمت، رغم ما كان يلاقيه من «قريش» من عدوانية وأذى، فهناك الحرب النفسية التي شنّها كفار «قريش» ضده في جميع مراحل الدعوة، ألا أن الآيات القرآنية في هذه الفترة كانت تشد من أزره وتأمّره بالتحمل والتجمل بالصبر فقد قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾¹ وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾². لقد كان الرسول ﷺ في المرحلة السرية شديد الحذر عند الدعوة للدين الجديد بين سكان «قريش» وغيرهم من المشركين من عبدة الأصنام في «مكة». فكان حريصاً كل الحرص على التثبت من موثوقية من يعرض عليهم الإسلام ومن ولائهم وصدق إسلامهم بعد ذلك. أي إن منهج السرية القصوى كان السمة الرئيسية التي تميزت بها أساليب المحاولات الأولى للدعوة إلى الله وعرض الدين الجديد على المنتخبين لذلك. ولكن مع مرور الوقت ومع تزايد أعداد الصحابة والأنصار وتماشياً مع المرحلة التالية في الدعوة، شرع الرسول ﷺ وعلى نحو تدريجي بتغيير صبغة أعماله وخططه، فأخذ يرفع غطاء السرية الكثيف الذي كان يتحرك خلفه خاصة بعد نزول أمر الله جل وعلا بالجهر بالدعوة حين أمره تعالى بقوله في الآية الكريمة: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾³ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾⁴، وهنا خرج الرسول ﷺ بدعوته من مرحلة السر إلى العلن. وما إن فعل ذلك ﷺ حتى سكن الرعب قلوب القرشيين، وهالهم جرأة المسلمين ونجاحاتهم الأولية في نشر الدعوة في ربوع «مكة»، وقدرتهم في الفوز وكسب العديد من شباب «قريش» وشيبيهم، وبعض من نساءهم.

لقد أغضب ذلك القرشيين الذي فشلوا رغم قسوتهم في إسكات صوت الحق، فلجأ سادة المؤسسة القرشية القوية إلى نوع جديد من أساليب الحرب النفسية بهدف استئصال ما اعتبروه خطراً جسيماً يهدد كياناتهم ويدمر معتقداتهم. فعمدوا إلى ما يمكن تسميته في عصرنا الحديث بـ«الحرب الإعلامية» كوسيلة لمواجهة الرسول الكريم ﷺ وإجهاض دعوته، في ظن منهم أن شن حملة تشويه متواصلة ضد رسول الله ﷺ وصحبه قد تسكت الصوت الجديد وتُبعد أفراد المجتمع القرشي عن صاحب الدعوة. لذلك أخذت أسننتهم تلوك الأكاذيب والأراجيف ضد المسلمين فيما قام بعض الشعراء من المشركين بتدبيج القصائد التي تهجو الرسول ﷺ وتقذح فيه، وتحرص أهل «مكة» على الوقوف بوجه الدعوة الإسلامية ووأدها في مهدها.

كان القرشيون ينشطون بممارسة هذه الحرب الإعلامية والنفسية أثناء موسم الحج حين كانت جموع الناس تهبط على «مكة» من أنحاء الجزيرة كافة لأداء مناسك الحج ومزاولة أعمال التجارة في الوقت ذاته. ولم يكن الحجاج والزوار والتجار هم الوحيدين الذين استهدفتهم «قريش»، بل كان الجميع مستهدفين، فأهل «مكة» وسكان التخوم المجاورة لها وأفراد القبائل البدوية المتنقلة كانوا على حد سواء هدفاً لهذه الحملة الشعواء التي كانت تحذر الجميع من الوقوع في دائرة السحر والافتتان بأقوال الرسول ﷺ. ولهذا فقد كال القرشيون الافتراءات والتهم ضد الرسول ﷺ⁴، ولم تكن تلك الحملات عشوائية بل كانت مدروسة ومخططاً لها بإتقان، فوحدوا ماكانوا يتهمون به من الصفات التي ألصقوها به مثل قول الشعر أو الجنون أو الشعوذة والسحر ليستقروا على وصفه بأنه ساحر يفرق بين المرء وأبيه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.⁵ وقد أسهم في حملة الكراهية ضد الرسول ﷺ هذه، بعض أفراد عائلته الأقربون، بمن فيهم عمه «أبو لهب» وزوجته، والذي لا زال يدعون عليه المسلمون بالخسران إلى يومنا هذا عندما يتلون آيات سورة

المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥)﴾.⁶

وبالرغم من فظاعة هذا كله إلا أن هذه الحرب الإعلامية والنفسية ضد الرسول ﷺ لم تؤت ثماراً ظاهرة بل فشلت فشلاً ذريعاً، فتعداد المسلمين أخذ في الازدياد رغم ضراوة الحملات المحمومة التي كانت تثير الضغائن ضد المسلمين وتنشر الأكاذيب والافتراءات المهينة ضدهم.⁷ وإزاء هذا الفشل الذريع الذي منيت به كل محاولاتهم تلك، تصاعدت ضراوة المؤسسة المكية شراسة ودموية. فلم يكن شيء يرضيهم ويوقف الخطر الذي يهدد كيانهم ويدمر معتقداتهم، سوى التخلص جسدياً من الرسول ﷺ.⁸

ولمواجهة هذا التحول الكبير في الأحداث، وبالرعاية الربانية التي قادت الرسول ﷺ أن يبتكر استراتيجية جديدة تضمن بقاءه واستمرار الدعوة إلى دين الإسلام. فكان أفضل الخيارات المتاحة أمامه هو أن يهجر «مكة» ويتجه صوب يثرب التي كانت آنذاك مركزاً تجارياً مهماً يقطنه خليط من اليهود وعبداء الأوثان. وكان أمام الرسول الكريم ﷺ خيارات أخرى بديلة للهجرة كالذهاب إلى إحدى قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة العربية أو المضي إلى «الطائف» أو «الحبشة» أو «بلاد الشام» أو «فارس» أو «بلاد الروم» إلا أنه اختار «يثرب» وفضلها على غيرها. لقد كانت «يثرب» خياراً استراتيجياً بكل امتياز، ليس فقط لكونها ستصبح ملاذاً آمناً للمسلمين، لا سيما وأنه قد ظفر في مواسم الحج السابقة بعدد من أهالي «المدينة» الذين آمنوا برسالته وقبلوا الإسلام ديناً لهم، وبايعوه ودعوه ووعدوه النصر والحماية عند قدومه إليهم، بل أيضاً لكونها قريبة نسبياً في المسافة من «مكة» مركز الوثنية لـ «قريش» آنذاك ومهبط أفئدة الناس عامة والتي كان لابد من مراقبتها والسيطرة عليها واستبدال الوثنية فيها بالإسلام ونشر عقيدة التوحيد. وإلى

جانب كل ذلك فإن تميز موقعها بكونه على طريق القوافل التجارية سيمكنه من فرض حصار اقتصادي على أعداء الإسلام، ذلك كون «قريش» وأهل «مكة» يعتمدون اقتصاديًا وفي المقام الأول على ريع التجارة وما يقدمونه لحجاج «مكة» من خدمات. وقد أتاح موقع «المدينة» للرسول الكريم ﷺ أيضاً الالتقاء بشريحة أكبر من الناس للتعريف بالإسلام، لاسيما أفراد تلك القوافل التي تعبر «المدينة» متجهة إلى «مكة» مما زاد من أعداد معتنقي دين الإسلام وسرعة انتشاره. كما ساعد تعرّف هذه القوافل على الرسول ﷺ عن قرب والاستماع لقول الحق في التنفيذ المسبق لمضامين الحرب الإعلامية التي شنتها «قريش» ضده واستهدفت بها كل من يفد إليها، فأبطلت حرب «قريش» الإعلامية حتى قبل أن تدرك مسامع تلك القوافل.

وفي تخطيطه للخروج من «مكة»، كشف الرسول ﷺ عن حس أمني عال. فبعد أن علم من جبريل ومن عيونه المنتشرين في «مكة» بأن «قريشاً» تريد التخلص منه، أعد خطة دقيقة للخروج سراً، فاستعد للهجرة واتخذ بعض الإجراءات التمويهية لذلك، حيث واصل الرسول ﷺ عمله اليومي على نحو اعتيادي، كأن شيئاً لم يتغير في جدول نشاطه اليومي. ولكنه زار بيت «أبي بكر» في وقت على غير المعتاد، وأبلغه بأمر هجرته، ووافق الصديق الصدوق على صحبته له. وكان الرسول ﷺ في الوقت نفسه يبحث سراً عن أدلاء ليستعين بهم كي يرشدوه إلى أفضل الطرق عبر الصحراء إلى «يثرب».⁹ واختار جملين قويين كان قد جهزهما «أبو بكر» لهذا الشأن، واستعداداً للسفر عبر الصحراء كان عليه أيضاً أن يتزود بالمؤن كالماء والغذاء، وحتى لا يثير شكوك جواسيس «قريش» التي لا شك في أنها باتت تراقبه عن كثب فقد أوكلها تجهيز ذلك إلى ابنتي «أبي بكر» -رضي الله عنه- «عائشة» و«أسماء» رضي الله عنهما. وعندما جن الليل، خرج الرسول ﷺ من بيته قبل أن تتمكن الزمرة التي كلفت بقتله، من أن تمتد يدها الآثمة إليه.¹⁰

خرج رسول الله ﷺ في أول الليل، وقد أحاط الرُّصد من «قريش» بداره ينتظرون انتصاف الليل وهم نَوْمُ الأعين، فخرج ﷺ وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩). وأخذ النبي ﷺ بيده الشريفة قبضة من تراب، فرمى بها على رؤوسهم، فما شعر القوم به حتى تجاوزهم، ومضى إلى غار ثور.¹¹

٢٥ : البيوت الآمنة : دار الأرقم

سبقت الإشارة إلى ان السنوات الثلاث الأولى من تاريخ الدعوة الإسلامية تميزت بالتكتم والسرية والحذر الشديد. فقد أملت تلك الظروف الجائرة آنذاك على الرسول ﷺ وأصحابه، بل على سائر المسلمين أن لا يجاهروا بإسلامهم وأن يخفوا اعتناقهم الدين الجديد حتى عن أفراد عائلاتهم التزاماً بتعاليم الرسول ﷺ.¹² ومما لا شك فيه فإن القرار الخاص بالتكتم كان قد اتُخذ مراعاة للمصالح الإستراتيجية العليا للإسلام على المدى البعيد لا سيما أن الموت والتعذيب كان في انتظار كل قرشي يكشف سر اعتناقه الإسلام.

ولكن ما إن تمكن المسلمون من إيجاد موطئ قدم لهم في «مكة» حتى تم التخلي عن هذا الغطاء الكثيف من السرية. ولا بد من أن نشير في هذا السياق إلى أن اضطهاد «قريش» للمسلمين ومطاردتهم وانتقامهم منهم، بلغ من الغلاظة والشدة حداً دفع بعض المسلمين إلى مواصلة التستر والتكتم حتى بعد فترة السنوات الثلاث من العمل السري. وكان هؤلاء ينزلون إلى أماكن بعيدة أو إلى الجبال والوديان حول «مكة» كي يصلوا لله دون خوف في أجواء آمنة.¹³ ولا يغيب عن بالنا أيضاً أن القوة الجسدية والقدرة على كتم السر كانت من أبرز الصفات في الرجال الذين كلفهم الرسول ﷺ بالدعوة إلى الدين الجديد واجتذاب المؤازرين والأصدقاء والأنصار الجدد.

وهكذا فإن التزام الرسول ﷺ بالسرية المشددة والمواراة والإخفاء، كان من اللبنيات الأولى التي كانت ضرورة حتمية لنشر العقيدة الجديدة آنذاك ومن ثم النهوض بالأمة وبناء الدولة الإسلامية. وبعد بدء الدعوة بوقت قصير، وحين كان المسلمون لا يزالون يكافحون ويصارعون من هم أقوى منهم وأغنى وأكثر عدداً، شعر الرسول ﷺ بحاجة ملحة إلى إقامة «بيت آمن» لأصحابه. ولكي يتحاشى الانكشاف والاضطهاد لأصحابه، اضطر الرسول ﷺ إلى الاجتماع بهم في أوقات وأماكن متفرقة، وفي وحدات صغيرة العدد أو ما قد يطلق عليها بمفهومنا الحديث خلايا صغيرة.¹⁴ وهكذا وقع اختيار الرسول ﷺ على بيت يملكه أحد المسلمين الجدد، ليكون مقراً يلتقي فيه بأولئك الذين استجابوا لله ورسوله. وتعود ملكية هذا البيت الذي يقع على سفح جبل الصفا لـ «الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي»، وهو عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عرو بن مخزوم ويكنى بأبي عبد الله الذي دخل الإسلام فتى يافعاً. تميز هذا البيت عن سواه -الذي كان المسلمون يتوجهون إليه متنكرين أحياناً- بجميع خصائص البيت الآمن المثالي الذي شهد إسلام عدد كبير من السابقين الأولين. يقول ابن عبد البر «وفي دار الأرقم ابن أبي الأرقم هذا كان النبي ﷺ مستخفياً من «قريش» بـ «مكة» يدعو الناس فيها إلى الإسلام، في أول الإسلام حتى خرج عنها وكانت داره بـ «مكة» على الصفا، فأسلم فيها جماعة كثيرة وهو صاحب حلف الفضول».¹⁵ كما كان يسمى «المختبأ» لأن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يختبئون فيه إلى بداءت «المرحلة العلنية» حينها خرج منه رسول الله ﷺ بصفين من أصحابه كان في مقدمة أحدهما «عمر بن الخطاب» والآخر «حمزة بن عبدالمطلب» رضي الله عنهما متجهين إلى الكعبة الشريفة التي كان المسلمون لا يجرؤون بالخروج إليها.¹⁶

ورغم عدم توفر أية تفاصيل دقيقة في مصادر التاريخ الإسلامي أو غيرها عن مالك البيت الذي كان من أوائل من استجابوا لدعوة الرسول ﷺ.¹⁷ إلا أن

معظم المؤرخين يقدرّون بأنه كان شابًا يافعًا -بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين- عندما أسلم وانضم إلى أول «مجموعة سرية» مسلمة. ويعتقد أن هذا الشاب الذي ينحدر من «قبيلة بني مخزوم» الواسعة النفوذ، والسطوة والتي كانت إحدى أبواب المسجد الحرام تسمى بها بباب بني مخزوم كان سابع رجل يعتنق الإسلام. وكان هذا البيت الذي ذاع صيته الآن يحتل موقعًا مميزًا في «مكة»، على سفوح جبل الصفا المطل على الكعبة.

كانت «دار الأرقم» في حي أو منطقة راقية لا يسكنها إلا من كانت لهم مكانة مرموقة، أو وجهة سامقة في المجتمع.¹⁸ وقد أدى هذا البيت الأمن دورًا حيويًا بالغ الخطورة لأنه احتضن الرسول ﷺ وأصحابه ووفر له بيئة آمنة يمكنهم فيها تلقي تعاليم الرسول ﷺ وقراءة القرآن وإقامة الصلاة أي أن «بيت الأرقم» كان مركزًا لتعلم الإسلام ونشر الدعوة الإسلامية في مرحلة عصيبة من التاريخ. وقد قضى الرسول ﷺ وأصحابه الأوائل الكثير من أوقاته هناك وإن لم يتخذه مسكنًا له. فكان أصحابه يأتون إليه، ليتعلموا أحكام القرآن ومبادئ الدين الأخرى. وهناك كان المسلمون يؤدون صلاة الجماعة، لا يخافون أن يداهم أي مشرك أو يعكّر عليهم صفو خلوتهم أو حلقته أي غريب أو خصم أو متطفل. وكان بإمكان الذين يرغبون في الاستزادة من العلم أن يأتوا إلى هذا البيت ليطرحوا تساؤلاتهم أو ليتحدثوا مع الرسول ﷺ عن الصعوبات أو المشاكل التي تعترض سبيلهم في «مكة».¹⁹

إن اختيار «دار الأرقم» كمركز سري لاجتماع المسلمين يشير إلى عظم قدرات المصطفى ﷺ كمخطّط بارع، واستراتيجي محنك، وإلى جانب كل ذلك فإنه كان أيضًا يتمتع بحسّ أمني مرهف، ولو أن الرسول ﷺ أسمى من أن يكون بحاجة إلى أدلة مادية لإثبات ذلك. ويمكن إجمال الأسباب التي تقف وراء اختيار الرسول ﷺ لهذا الدار ليكون مقرًا سرّيًا للمسلمين بما يأتي:

أولاً: كان البيت ملكاً لشخص لم يكن أحد يعرف أنه مسلم حيث أسلم وأخفى إسلامه. ولذلك كان من المستبعد أن تشك «قريش» في أن صاحب الدعوة الجديدة سيقضي وقتاً هنالك لأي سبب كان، ناهيك عن استعماله منبراً سرّياً لنشر الإسلام من خلال أحاديثه ومناقشاته ومداولاته مع أصحابه.

ثانياً: كان «الأرقم بن أبي الأرقم» شاباً يافعاً يعيش في ترف وبحبوبة وبالتالي فإنه لم يكن يثير الشكوك بأنه يستضيف دعوة ربانية كتلك التي كان محمد ﷺ يقودها والتي ما لبثت أن زلزلت الأرض تحت أقدام المشركين وعبدة الأصنام في وقت قياسي.

ثالثاً: كان أهل «قريش» يعرفون أن هناك تنافساً موروثاً يصل حد العداوة، بين «قبيلة الأرقم» «بني مخزوم»، وقبيلة الرسول ﷺ «بني هاشم» وقد دامت هذه المنافسة لعقود طويلة، فقد كان كل منهما يسعى لأن تكون له اليد العليا على إدارة شئون المجتمع القرشي. وبسبب هذا التنافس القبلي الموروث، استبعد القرشيون كل البعد أن يكون الأرقم أو غيره من بني مخزوم قد أقبلوا على الدين الجديد. فشكوك «قريش» لم تكن متجهة لأولئك الذين كانوا ينافسون «بني هاشم» بل نحو أهل بيت النبوة وعائلة النبي ﷺ نفسه، و«أبي بكر» تحديداً، فهؤلاء كانوا موضع شك وريبة، لا غيرهم. ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن المنطقة التي يقع الدار فيها كان يسكنها بنو مخزوم، فإذا افترضنا أن «قريشاً» اكتشفت البيت وهاجمته فإن «مخزوماً» بأكملها كانت ستنهض بالسلاح ضد المعتدي. فوفق تقاليد القبائل التي كان معظم العرب لا يزالون يعملون بها، فإن أي اعتداء على أحد أفراد القبيلة أو أحد ضيوفها، يمثل اعتداءً على القبيلة بأكملها.

رابعًا: كان البيت قريبًا نسبيًا من الكعبة، وكان موقعه هذا مهم جدًا من الناحية اللوجستية، فهذا الموقع المركزي يَسَّرَ كثيرًا من التواصل مع الرسول ﷺ ومن التشاور معه، وتسَلَّمَ التعاليم منه وبالتالي من تثبتت إيمان أولئك الذين كانوا ينهلون على نحو مباشر من المعين النبوي الطاهر.

خامسًا: كان على أي شخص يريد الكعبة أو يريد الحج إلى «مكة»، أن يمر بذلك البيت. وقد مَكَّنَ هذا الأمر الرسول ﷺ وأصحابه من الاختلاط بالناس بسلاسة ويسر، ومكن من الدخول والخروج منه دون إثارة شكوك أهل «مكة». ويشار إلى أنه طوال الفترة التي اتَّخَذَ فيها دار الأرقم بيتًا آمنًا، لم تكن «قريش» تفتن أبدًا إلى ما كان يحدث فيه.

3.5: الوقت والاتصالات

كان للحقائق الجغرافية والتضاريس الأرضية والظروف المناخية في شبه جزيرة العرب أثر كبير على العمل الاستخباري العربي في عهد الرسول ﷺ. فقد كانت تلك العوامل تؤثر على نحو مباشر في مستوى الأداء المهني للعيون والرواد والكشافة وغيرهم من العاملين في الحقل الاستخباري بصفة عامة. كما أثَّرت تلك العوامل أيضًا على وسائل الاتصال وأساليبها وفرصت أنماطًا خاصة من وسائل النقل التي كان عليها أن تتماشى وطبيعة المحيط الذي كان المسلمون الأوائل يعيشون فيه. وإذا ما تأملنا الظروف الطبيعية لجزيرة العرب فباستثناء جبال السروات التي تمتد من عمق الجزيرة في الشمال إلى الجنوب في اليمن، يمكن القول إن طبوغرافية الجزيرة العربية السائدة ليست سوى أراض صحراوية حارقة قاحلة تمتد عبر الآفاق. وقد تصل درجات الحرارة أحيانًا في الربع الخالي بل في معظم الجزيرة العربية 55 درجة مئوية في أيام الصيف الطوال. ورغم هذه الحقيقة المعروفة المسلم بها وإزاء هذه

الندرة القاتلة للمطر وهذا القحط المائي فلا بد من الإقرار أيضًا أن المطر يكاد ينهمر طوال السنة على بعض المرتفعات الوعرة في السلاسل الشاهقة والأجراف الهاوية والوديان السحيقة، خاصة على سلسلة جبال الحجاز وأجزاء من منحدرات تهامة. وإلى جانب التحدي الأعظم الذي تمثله الحرارة التي لا تطاق في الصحارى والهضاب فهناك أيضًا تحديات جغرافية كبرى لا تقل تأثيرًا في مستوى الأداء الاستخباري. فقد كان على العيون ورجال العمل السري عمومًا، بل وعلى الجيوش والقوافل التجارية والمسافرين تحمل هذه المشاق وتجاوز المعوقات المتمثلة في وعورة العبور من خلال المرتفعات وضيق مسالك المشاة المتعرجة في الجبال، ونقص العلامات الظاهرة في الصحارى المترامية الأرجاء. وهكذا يمكن القول إن ندرة الماء وتفاقم الحرارة وتنوع الطبيعة الجغرافية واختلاف التضاريس كان من أبرز العوائق التي واجهت رجال الاستخبارات القدامى بل كل أولئك الساعين إلى عبور الرقاع الشاسعة من الرمال أو اجتياز الممرات الجبلية الشاهقة لإيصال معلومة سرية أو موافاة عاصمة الإسلام «المدينة المنورة» بما يستجد من أمور وتطورات ذات صلة بأمن الدولة الناشئة وأحوال المسلمين.

ولا بد أن نستذكر هنا أن المميزات المهمة التي كانت الحاضرة الإسلامية الأولى «المدينة المنورة» تتسم بها أنها تقع على مفترق الطريق الذي يربط الشمال بالجنوب والغرب. وكانت «المدينة» أيضًا قريبة من خطوط القوافل البرية المتجهة نحو «مكة» و«سوريا». وهذا يعني أن من يريد الوصول إلى «مكة» كان عليه إما أن يسلك الطريق الساحلي الطويل، في الغرب على ساحل البحر الأحمر، أو أن يختار الطريق الأسهل وهو طريق القوافل الصحراوي الذي كان يلامس تخوم «المدينة». وعلى أية حال فإن رجال الاستخبارات في تلك الفترة كانوا يستخدمون الخيول والجمال كوسيلة مفضلة للاتصال ونقل الأوامر والتعليمات أو التقارير السرية التي قد يبعث

بها العيون والوكلاء المنتشرون في بقاع كثيرة من أرض الجزيرة.

يعود تاريخ استخدام الحيوانات البرية كالجمال والخيول لأغراض التنقل والحمل والاتصالات إلى أزمنة غابرة سبقت الإسلام بقرون. إذ إن من المعتقد أن الآشوريين والمصريين القدامى كانوا أول من استخدم تلك الحيوانات كوسائل لنقل الرسائل في جهاز البريد البدائي لتلك الأيام. وفي القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية دخلت الخدمة حيوانات أخرى كالحمير والبغال والثيران، فيما اعتمدت أساليب أخرى جديدة لنقل المراسلات كالحمام الزاجل، الذي كان يكثر استخدامه أيام الحروب.²⁰ وكانت الرسائل في بعض الأحيان تُنقل بأيدي المراسلين أي دون اللجوء إلى أي وسيلة للنقل، وقد يقوم بالمهمة السرية رجل واحد أو أكثر. وحينها يصار إلى ما يعرف بأسلوب التتابع من رجل إلى آخر حتى يتم تبليغ الرسائل إلى الشخص أو الجهة المعنية. وكان هذا الأسلوب النادر استخدامه نسبياً يُعتمد في القضايا بالغة الحساسية.

كان عبور الأراضي الصحراوية القاحلة يجبر المراسلين والعيون وغيرهم على التنقل اثناء الليل، والخلود إلى الراحة في النهار لا سيما في أشهر القيظ تحاشياً للعطش والإرهاق الذي يسببه لهيب الشمس الحارقة. وإلى جانب السهولة النسبية للتنقل في الصحارى ليلاً مقارنة بالسير اثناء ساعات النهار فثمة أمر آخر أكثر أهمية. فمن أبرز الفوائد المتوخاة من التنقل ليلاً في الصحارى أن الأدلاء وغيرهم من قاطعي الصحراء كانوا يهتدون بالنجوم والأبراج والكواكب التي يمكن رؤيتها جلية في سماء الليل وذلك لتحديد الأماكن والجهات الأربعة، وبالتالي لتحديد اتجاه سفرهم عبر الصحراء. والواقع أن افتقار العرب الأولين إلى الخرائط وإلى المعلومات الجغرافية الدقيقة حول الصحارى الشاسعة جعلهم يفضلون السفر ليلاً عبر الصحراء. ولهذا فإن المراسلات والاتصالات التي تتم ليلاً كانت تشكل عاملاً

مهما لضمان سرية المهمات والعمليات الاستخباراتية. وعلينا أن نتذكر في هذا السياق أن إحدى خصائص الحياة البدوية في الصحراء أن البدو -وعلى الرغم من كل ما هو معروف عن كرمهم وطيبة قلوبهم- فإنهم في الواقع منغلزون على أنفسهم اجتماعياً. وقد لا يستلطفون الغرب بينهم إذا ما كان فضولياً وأكثر من السؤال عن الأمكنة والوجهات. فإن من شأن ذلك بطبيعة الحال أن يثير الريبة، لا سيما عندما يتكلم السائل بلهجة تختلف عن اللهجة السائدة في المنطقة. وإذا ما اكتشف البدو الهوية الحقيقية لأحد الجواسيس فإن ذلك في الغالب قد يؤدي إلى مصادرة ما يملكه وأحياناً إلى قتله.²¹

كانت المدة التي يستغرقها نقل رسالة من «المدينة» إلى «مكة» على الأقدام تبلغ عشرة أيام تقريباً. أما القوافل التجارية فكانت تستغرق ضعف هذا الوقت لأنها تتطلب طرقاً أوسع لنقل حمولتها من البضائع والماء والعلف، بينما كانت الجيوش تستغرق فترات أطول من ذلك بكثير. فالمقاتلون كانوا بحاجة إلى الإكثار من التوقف للنوم والراحة لا حباً بالراحة لذاتها بل ليكونوا أكثر جاهزية من الناحية البدنية لخوض المعارك. ولهذا السبب تحديداً، كان القادة أنفسهم حريصين كل الحرص على عدم إرهاق تشكيلاتهم العسكرية بالتنقل والحركة التي قد تؤثر سلباً على قدراتهم القتالية. وفضلاً عن هذا وذاك فكان من المألوف أن الجيوش لا تغامر بالتقدم ولا تتحرك من مواقعها إلا بعد ورود تقارير الكشافة والوحدات المتقدمة كالطلائع.²²

وكان الجمل أفضل وأشهر وسيلة للترحال ونقل الحمولات في صحارى الجزيرة. فالجمل كما هو معلوم سهل الرعاية، شديد التحمل، ويتمتع بلياقة بدنية عالية تمكنه من الصبر على مشاق السفر في الرمال القاحلة بفضل سنامه الذي يخزن الدهون ورموشه الطويلة التي تحمي عينيه وسيقانه الطويلة التي تبعده عن حرارة الرمال، التي يتمكن الجمل من السير عليها بسهولة،

بسبب سعة خُفه وليونته، التي تيسر له حمل الأثقال. ومما يجعل الجمل الحيوان المفضل للركوب والحمولة عبر الصحراء هو القدرة الفريدة الفائقة على خزن الماء في جسده. فبفضل هذه الميزة الاستثنائية بات في مقدور الجيوش والقوافل والأفراد على حد سواء أن يقطعوا مسافات طويلة ولأيام عديدة دون الانشغال بأمر توفير الماء لهذه الحيوانات الصبورة.²³

لكن الحاجة كانت تشتد لاستخدام الخيول العربية زمن الحروب نظراً لما تتمتع به من خصائص بدنية تجعلها الوسيلة المفضلة للركوب والحمل والكر والفر. فالخيول العربية مشهود لها بالتوافر على كافة الخصال التي يتمناها الفرسان عموماً من رشاقة، وسرعة، وخفة وزن، وصغر حجم. وكان رجال الاتصالات يفضلون الخيول العربية، ويكثر من استخدامها كلما سمحت الظروف الطبيعية بذلك. فالسفر بالحصان كان يستغرق ثلث الوقت المعتاد الذي يتطلبه نقل الرسائل بواسطة الجمل لا سيما إن كان من يمتطي الحصان فارساً حمكاً له دراية واسعة بمسالك الصحراء، والطرق القصيرة عبرها. ولا غرابة أن يستفيد من ذلك -وعلى نحو خاص- الأدباء والطلّاع والكشاف.

ومن الأمثلة على السرعة الفائقة التي يتمكن فيها الفرسان آنذاك من نقل بعض الخطابات والرسائل المهمة ما ذكره «الواقدي» في كتاب «المغازي» الذي أشار فيه إلى أن أحد العيون أو ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلحات الاستخبارات الحديثة «وكيل تأثير» تمكن في أحلك الظروف آنذاك من إرسال رسالة هامة من «مكة» إلى «المدينة» بأقل من ثلث المدة التي تقتضيها مدة السفر المعهودة بين هاتين المدينتين. وكانت الرسالة على جانب كبير من الخطورة لأنها كانت تحمل تحذيراً إلى المسلمين من أن جيشاً من «قريش» قوامه بضعة آلاف مقاتل تم تعبئته لشن هجوم كاسح على «المدينة». وبدلاً من الأيام العشرة التي كانت تستغرقها

هذه الرسائل في العادة، يؤكد «الواقدي» أن ناقل الرسالة أوصل رسالته الخطيرة تلك بمدة زمنية قصيرة جداً لم تتجاوز ثلاثة أيام فقط. بقي أن نعلم أن هذه الرسالة لم ينقلها راكب عادي، بل فارس مجرب ذو مهارة عالية، ملم بطرق المنطقة الصعبة، ومسالك دروب الصحراء الرملية، ومدرّب على اقتفاء الأثر والاهتداء بالنجوم في سماء ليلها البهيم.²⁴

ومن الأمور البديهية أن يسعى المسؤولون في كل زمان ومكان إلى تحسين وسائل الاتصال وتطويرها بينهم وبين وكلائهم أو الشبكات السرية العاملة المنتشرة هنا وهناك في بقاع العالم. هكذا كان الحال مع القيادة في المرحلة الجهرية للدعوة، ومرحلة تكوين نواة الدولة الإسلامية خاصة إبان الفترة التي فرض المسلمون فيها العقوبات الاقتصادية على «مكة»، والتي شهدت اصطيات العديد من القوافل التجارية التي كانت متوجهة إلى «مكة» أو إلى غيرها من الأماكن. وبغية كسب الوقت وتحسين الأداء، لجأت القيادة الإسلامية إلى الاستعانة بأفراد القبائل التي تعيش قريباً من الخطوط التجارية، وتكليف مراسلين محليين يكونون في العادة على دراية واسعة بالمناطق التي يسكنونها وبما يجاورها. وكثيراً ما كان المسلمون الأوائل يلجأون إلى أسلوب التناوب أو التتابع في نقل الرسائل، أي تكليف أكثر من شخص واحد بالمهمة. وهذا يعني أن الرسالة الواحدة يتتابع على حملها عدة أشخاص إلى مسافات محددة يتم الاتفاق عليها سلفاً حتى تصل في خاتمة المطاف إلى الجهة المطلوبة. ورغم محاسن هذا الأسلوب ونجاعته في تحقيق السرعة في نقل البريد إلا أن كثرة الناقلين وتعدددهم واختلاف مشاربهم لم يكن أمراً مستساغاً من الناحية السرية. لذلك لم يكن هذا الأسلوب هو الوحيد الذي كان معتمداً لدى القيادات الإسلامية الأولى، الحريصة على عدم انكشاف مضامين الرسائل السرية أو غيرها من الخطابات. ونتيجة لذلك فقد ظل العمل متواصلاً بكلا النظامين - نظام الفارس الواحد ونظام التتابع.²⁵

ولم يكن معظم الرسل على اطلاع بمضامين الرسائل التي كانوا ينقلونها، والتي كانت تكتب في الغالب الأعم بلغة مشفرة أو بأسلوب يشوبه الإبهام المقصود والغموض المتعمد. وقد تفنن العرب القدامى في استعمال الرسائل المشفرة من خلال تأليفهم للنصوص المرجوزة أو المنثورة. وهنا تكون نية الرسالة مستترة لا يفهمها إلا المستلم لها عادة. ولا يخفى أن هذه الوسيلة كانت ولو إلى درجة محدودة أكثر أمناً من الخطابات الصريحة لإيصال المعلومات الحساسة أو تبادلها، سواء أكانت تلك الخطابات شخصية أم ذات صلة بأسرار الدولة. فاستعمال اللغة الغامضة في الرسائل من شأنه أن يضمن بقاء المحتوى خافياً على الأطراف غير المخولة بقراءتها حتى لو قُدِّر أن حامل الرسالة بدّل ولائه أو هرب، بسبب صعوبات غير متوقعة، أمثال التعذيب، أو القبض أو الحصار.²⁶

وبخلاف نصوص الوثائق المشفرة أو المرجوزة كان العرب الأوائل يستعملون أيضاً الرسائل الشفوية التي ينقلها أشخاص مشهود لهم بقوة الذاكرة والخصائص البدنية الممتازة ويتقنون إلى جانب كل ذلك لهجات أهل الجزيرة. وكانت الرسائل الشفوية تؤلف عادة عندما لا تكون وسائل الكتابة متوفرة، أو عندما يكون المستلم لا يعرف القراءة. ومثالاً على هذا التواصل الشفوي يمكن رؤيته في مهمة بعث بها رسول الله ﷺ باثنين من أصحابه هما: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، وإن شئت قلت اثنين من «عناصره الأمنية»، إلى يهود «بني قريظة» للتأكد عما إذا كان اليهود لا يزالون ملتزمين بالعهد الذي بينهم وبينه ﷺ للدفاع عن «المدينة»، أو أنهم نقضوه. وعندما رجعا من المهمة التي أرسلهما النبي ﷺ من أجلها، حيث طلب منهما أن لا يبلغاه الرد علناً على مسمع من قواته، وأن يلحنا له في القول، ولا يذكرنا ذلك لمن لا صلة له بالأمر. وعندما عادا أبلغاه كلمات مشفرة لا يكاد يفهم منها شيء حيث قالوا: «عضل والقارة» في إشارة إلى أنهم يريدون الغدر كما غدر بخبيب وأصحاب

الرجيع الذي سبق ذكرهم. ثم لم يزيدا على ذلك شيئاً وجلسا. وكان هذا الكلام المشفر تدبيراً وقائياً لابد منه لتجنيب القوات المسلمة التأثير النفسي للأخبار السيئة.²⁷ ثم كشف الرسول ﷺ لأصحابه عن الأمر وما خفي عليهم بعد ذلك، وأن «بني قريظة» قد نقضت العهد فعلاً.

ومن الوسائل الأخرى لنقل الرسائل الشفوية ما كان يقوم به بعض العملاء أو الحراس الذين كانوا ينفذون مهامهم على نحو مشابه لما كان «منادي المدينة» يقوم به في الأيام الخوالي حين يتم الإعلان في الأسواق والطرق والأماكن العامة عن وقوع أمر جلل أو لإذاعة خبر فقدان شخص أو وصول بضاعة أو غير ذلك. فهؤلاء أي العملاء أو الحراس كانوا يصرخون برسائل مشفرة تتكرر من شخص إلى آخر حتى تصل الرسالة في آخر الأمر إلى صاحب الشأن أو القرار. وقد استعملت هذه الطريقة في أيام الأزمات لاسيما عندما تكون تضاريس الأرض وعرة ويصعب عبورها. فلكي تتغلب على تحديات التضاريس، كانت «قريش» تلجأ إلى وضع الأرصاد على رؤوس الجبال حول «مكة» وعلى الطريق الجبلي المؤدي إليها كي تسهل مراقبة العدو.

وعندما قرر الرسول ﷺ، بعد ست سنوات من الهجرة إلى «المدينة»، الرجوع إلى مسقط رأسه كي يؤدي العمرة توقع أن تمنعه «قريش» من دخولها لذلك أرسل أحد عيونه «عنصر جمع معلومات» لجمع المعلومات عن الحالة العامة هناك ويأتي بالأنباء عن استعدادات «قريش» ونواياها. وبالفعل جاء ذلك العنصر بأخبار تفيد بأن «قريشاً» كانت تعتمد أسلوب المناداة بالتتابع، كي تراقب كل تحرك للرسول ﷺ عندما كان يقترب من «مكة». ولضمان أن المستهدف لا يغيب عن نظرهم، أي الرسول ﷺ عندما يقترب من «مكة»، وضع عشرة مخبرين تحت قيادة الحكم بن عبد مناف عند نقاط تشرف على الطريق المؤدية إلى «مكة». وبذلك استطاعوا أن ينقلوا تفاصيل تقدم قافلة الرسول

ﷺ، حيث بدأوا من مكان بعيد عن «مكة»، هو جبل وزر، وحتى مقر قيادة الاستخبارات في مكان يدعى بلدح في «مكة».²⁸

وقد استخدمت المرأة في بعض الأحيان لنقل رسائل سرية نظراً لأن المرأة تتمتع ببعض «الامتيازات الأمنية» التي لا يتوافر عليها الرجل لاسيما أن شريعة الإسلام كانت توصي المؤمنين أن يرفقوا بالقوارير. وإلى جانب ذلك ينبغي أن نستذكر أنه باستثناء الوجه والكفين في الصلاة، فإن بقية جسد المرأة يعد «عورة» في الإسلام، وبالتالي كان عليها أن تغطي كل جسدها على نحو مناسب وتخفيه عن الجميع سوى الزوج والأطفال. وكان هذا الوشاح أو الغطاء الذي يرتديه النساء لحجب أنفسهن عن الرجال في الخارج، يستغل أحياناً لحمل الرسائل السرية. وقد يكون أشهر مثال على ذلك قصة الجاسوسة «سارة» التي كانت تحترف الغناء قبل الدعوة الإسلامية. وللوقوف على تفاصيل أوفى مما سبق أن أوردناه نقرأ في «الرحيق المختوم» ما يلي:

"رغم تحسن العلاقة بين «مكة» و«المدينة» بعد صلح الحديبية، فقد نقصت «قريش» معاهدة السلام التي مدتها عشر سنوات. فكانت «قريش» أغارت عدة غارات على أحد حلفاء المسلمين، «قبيلة خزاعة». وعندما سمع الرسول ﷺ بالهجمات، أمر رجاله على الفور بأن يستعدوا للحرب. ثم دعا الله وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن «قريش» حتى نبغتها في بلادها).²⁹ وبينما المسلمون يnehون استعداداتهم لهجوم عام على «قريش»، جاءت امرأة تدعى سارة، إلى الرسول ﷺ واستغاثت به، قائلة إنها تمر بأوقات عصيبة وتحتاج إلى المأكل والملبس. فحث الرسول ﷺ بعضاً من أتباعه بأن يتولوا الأمر وأن يعطوها ما يعينها على سفرها إلى بيتها في «مكة». ولكنها ما أن تركت الرسول ﷺ، إذا بأحد

من المسلمين يكلمها. فقد طلب منها «حاطب بن أبي بلتعة»، الذي أعطاها مالاً، أن تحمل له رسالة إلى «مكة». ونصحها بأن تسلك طريقاً غير معهودة وحذرهما ألا تخبر أحداً عن الرسالة. وكان «حاطب» كتب في الرسالة المختومة إلى أهل «مكة» "أن محمداً قادم يريدكم، فاحذورا".³⁰

وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، وقد أطلع الله على هذا السر، بعث بثلاثة رجال ليحولوا بينها وبين إيصالها، كان فيهم «علي بن أبي طالب» و«الزبير بن العوام». وتمكن هؤلاء من اللحاق بالمرأة والعثور عليها. وفي الحال طلبوا الرسالة منها. لكن «سارة» أصرت على أنها لا تعرف شيئاً عما يقولون. ثم هدها الرجال فقالوا «والله لتخرجن الكتاب أو لنجرّدنك». وعندما رأت «سارة» الإصرار منهم، أخرجت الرسالة التي كانت تخفيها في قرون شعرها.³¹

وعند العودة الى مقر رسول الله ﷺ واجهوا «حاطباً» بالأدلة واتهمه «عمر بن الخطاب» بأنه لم يعص مشيئة الخالق فحسب بل خان الرسول ﷺ والمؤمنين أيضاً. وكعقوبة مناسبة للجريمة، طالب «عمر» بأن يقطع رأسه، ولكن الرسول ﷺ غفر له بسبب ماضيه الجهادي، وتضحياته في سبيل الإسلام حيث قال لـ «عمر» رداً على ما طالب به: "ألم يشهد «حاطب» بدرًا؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، أو قال «لقد غفرت لك». وعند ذاك ذرفت عينا «عمر» وقال «الله ورسوله أعلم».³²

وقد استعمل العرب الأوائل أدوات متعددة ومواد مختلفة لتحضير خطاباتهم السرية. ومن أشهر مواد الكتابة الجلود وسيقان الخيزران، بينما كانت الأقلام الخشبية تنحت من عدة أنواع من الخشب الصلب، لا سيما من شجر الزيتون والتوت. وفي الوقت الذي كان الورق معروفاً ومستعملاً في

الأيام الأولى للإسلام، فإن العرب الأوائل استعملوا أيضاً الرقاع من أنواع مختلفة، وقطع الخشب والعظام، لاسيما عظمة الكتف الواسعة للجمال، أو سعف النخيل وألواح الحجر الأبيض.³³

وكان القلم الأداة الأكثر استعمالاً في التحرير. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم عدة مرات. وكان القلم يصنع من قطعة خشب صغيرة طولها يتراوح في العادة ما بين 10 إلى 15 سنتمتراً، حيث يتم تهذيبها وتشذيبها حتى تكون حافتها نحيفة حادة. وكان هذا القلم البدائي رخيص الثمن وسهل الاستعمال ويستهلك القليل من الحبر الذي كان حينذاك سلعة نادرة باهظة الثمن لا يمكن التفريط بها.³⁴

وفي المراسلات الاستخبارية كانت الوثائق الورقية تكتب بنية الإخفاء والمواراة. وكان المبعوثون والرسول السريون لا يألون جهداً في إخفاء رسائلهم تحت أغطية أو أغلفة مختلفة أو حتى داخل غمد الخنجر أو السيف أو يخبئون رسائلهم داخل العصا أو أي شيء يحمله المسافر في الصحراء سواء أكان ما يحمله في يده أم على ظهر الجمل أو الجواد. ولكي يتحاشى افترصاح أمره، فقد يلجأ العميل إلى إخفاء رسائله في سرج الحصان، أو يطويها فيخفيها داخل ظفيرة شعر طويلة، أو حتى بين ثنايا عقاله أو ملابسه أو غمد سيفه.

ومع مرور الوقت واتساع رقعة الدولة الإسلامية التي ترامت أطرافها شرقاً وغرباً وبكل الاتجاهات، شهدت وسائل الاتصال والاستخبارات نمواً وتطوراً ملحوظين. ففي جانب سرعة تمرير المراسلات وضمنان تسلم الرد عليها بسرعة، وتحقيق الاتصال بأقصر فترة زمنية بين مقرات وأمصار الدولة، سواء في «دمشق» خلال الحكم الأموي، أو في «بغداد» خلال العهد العباسي، وصولاً إلى «اسطنبول» في فترة الامبراطورية العثمانية، فقد التفتت

القيادات عبر العصور إلى الأهمية التي تنطوي عليها الاتصالات السريعة بين المركز والأطراف لا سيما إبان الأزمات وزمن الحرب. فالاتصالات السريعة كانت من ضرورات الحكم ودعائمه، وبدونها لا يستتب الأمن، ولا يتم متابعة سياسة الدولة أو فرض القانون، ومراقبة الأقاليم والتخوم الواسعة التابعة لدولة المركز. ومن خلال تحسين سبل الاتصال والبريد وتطوير طرق المواصلات أيضاً فقد أصبح من الممكن التدقيق في العديد من القضايا الأساسية بالنسبة للدولة كالتثبت من جمع الضرائب وهويات دافعيها ومن مداخيلهم والإشراف على حجم المنتجات الزراعية والواردات والصادرات والتجارة الدولية على وجه العموم. أي أن تحسين وتطوير طرق الاتصال والتراسل أدى إلى رفد خزينة الدولة بالكثير من العوائد التي لم تكن لتعرف على وجه التحديد والدقة لو لم يلتفت إلى هذا الجانب اللوجستي المهم.

وبسبب هذا التطور الذي أشرنا إليه أصبحت سلاطات بعض الخيول المشهورة بالسرعة والرشاقة سلعة مطلوبة أكثر من ذي قبل، وكذا الحال مع البغال التي كثر استخدامها في هذا المجال. فتم استيراد سلاطات أكثر خفة وسرعة من الخيول العربية، من بلاد فارس ومن آسيا الصغرى. وأصبح الحصان لاحقاً وسيلة النقل الرئيسة للعاملين في حقل الاستخبارات. ومع التطور العمراني وتحسن وسائل بناء الطرق أخذت العربات التي تجرها الخيول، تستعمل بشكل أكبر في نقل الناس والبضائع والبريد. فيما أصبح الحمام الزاجل يستعمل أيضاً في نقل الرسائل السرية. وقد لا يعرف كثيرون أن كلمة الزاجل مشتقة من الفعل الثلاثي زجل ومعنى الزاجل هو «الرامي» أو «المرسل» أو «الباعث».

وعلى أية حال كان العرب الأولون يقومون ببناء أبراج خاصة للحمام الزاجل حتى تستطيع الهبوط عليها، ومن ثم يتم تجميع الرسائل التي تحملها،

أو تحميلها رسائل أخرى إلى وجهات معينة. وكان يعتمد إلى تمويه وإخفاء هذه الرسائل بعناية كبيرة حول جسمها، أو تحت جناحيها خشية ملاحظتها، أو وقوعها في أيدي من لا يعينهم الأمر.

ويمكن ملاحظة أن البريد كان معروفاً عند عرب الجاهلية والإسلام حيث ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: "إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم"³⁵ وقد اهتم به الخلفاء الراشدون وفي عهد الأمويين خصص له ديوان وكان من مهامه التجسس.³⁶ وقد قسّم البريد آنذاك إلى ثلاثة أقسام، البريد البري وهو الرئيسي حيث أنشئت له محطات للبريد وخصص له من الدواب الخيل والبغال. أما البريد البحري فكان فقط للمدن الواقعة بمحاذاة السواحل البحرية التي يصعب الوصول إليها بالطرق البرية العادية، ويتم التواصل معها عبر مراكب خاصة سريعة. وقد اعتنى العرب أيضاً بالبريد الجوي وأولوا بعض أنواع الطيور اهتماماً خاصاً لا سيما الحمام الزاجل وكان أوج استخدامات الزاجل في العصر الفاطمي.³⁷

٣٤٣: الكتابة المشفرة Encryption

كانت الرسائل التي تتضمن معلومات حساسة أو سرية تنقل شفويّاً بين الأطراف المعنية بها. وكانت أحياناً تنقل ملحونة³⁸ أو جلية وعلى أشكال مختلفة من أهمها الشعر والعبارات القصيره جداً والأمثال العربية القديمة. ثم طور هذا الأسلوب بعد توفر مواد الكتابة وأدواتها واستخدمت الرسائل المكتوبة لتمرير المعلومات الحساسة والسرية. ولمنع اعتراض هذه الرسائل وكشف محتواها كان ولا بد من إيجاد وسيلة تحمي بها تلك المعلومات السرية. فابتكر أسلوب «الكتابة المشفرة» أو ما يطلق عليه مصطلح التشفير (Encryption). ويعود اكتشاف أول دليل كسر للشفرة إلى العلماء العرب في القرن التاسع

الميلادي.³⁹ ونعني بالكتابة المشفرة ترميز النصوص المكتوبة وإعدادها بهيئة يستحيل معها فهم النص المكتوب أو استجلاء معانيه اللهم إلا لمن لهم إلمام بسر هذه الرموز أو الهيئة المعتمدة في كتابة الخطاب المشفر. وقد تطورت فنون الكتابة المشفرة مع مرور الوقت، نظراً لاتساع حاجة الدولة الإسلامية المتنامية الأطراف إلى حماية أسرارها وصيانة مؤسساتها، وإدارة شؤونها وتنظيم خدماتها، مما أدى إلى تطوير المهارات الإدارية للعاملين في قطاع الدولة ومنها البريد والاستخبارات. ويتضح مما ورد في كتب التاريخ والسير الذاتية المتوفرة لدينا أن العاملين في حقل الاستخبارات كانوا يمارسون مهامهم غالباً تحت مظلة ديوان الخليفة. لهذا تميزوا عن سواهم بالحظوة لديه فأحيطوا برعاية خاصة، مما جعل لهم جانباً كبيراً من الأهمية والنفوذ.⁴⁰ ومنذ القدم تعددت الوسائل التي يلجأ إليها العاملون في حقل الاستخبارات للتواصل فيما بينهم، فمنها استخدام الرسائل الشفوية المشفرة أي «الملحونة» ومنها الرسائل المكتوبة المشفرة، ولاحقاً الكتابة السرية.

كانت الجمل الشفوية القصيرة المشفرة تفي بالغرض وفقاً للموقف التي يضطر إلى استخدامها فيه، وكان المنافقون أو ما يمكن أن نطلق عليهم «عملاء أعداء الإسلام» يستخدمون هذا اللون من الحديث إلا أن الله سبحانه وتعالى فضحهم لنبيه فقال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾⁴¹ ولحن القول هنا يعني معرفة معناه ومقصده الباطني وليس الظاهري.⁴² وفي مرحلة بناء الدولة أيضاً نجد أن الرسول ﷺ عندما بعث السَّعْدَيْنِ إلى «بني قريظة» بعد أن تواترت له المعلومات التي تفيد بنقضهم للعهد قال: "إِنْ أَصَبْتُمَاهُمْ عَلَى الْعَهْدِ فَأَعْلِنَا ذَلِكَ وَإِنْ أَصَبْتُمَاهُمْ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَالْحَنَّا لِي لَحْنًا أَعْرِفَهُ وَلَا تَفُتَّا فِي أَعْضَادِ الْمُسْلِمِينَ".⁴³ وعندما عادوا قالوا له بشفرة مرمزه «عضل والقارة»⁴⁴ مشيرين له بأنهما نقضوا العهد كنقض عهد عضل والقارة. ولم يقتصر العرب على هذين الأسلوبين النمطيين بل كان هناك أسلوب ثالث غير نمطي والذي استخدم

فيه بعض فنون الشعر لإيصال الرسائل والتعليمات ومنها قول الشاعر الكلابي منشداً للقتال:

"ولقد لحت لكم لكيما تفهموا ووحيت وحيأ ليس بالمرتاب"⁴⁵

ورغم قدم هذا الأسلوب وشيوع استخدامه في العصر الجاهلي والمرحلة المحمدية إلا أنه لا يزال يستفاد منه حتى وقتنا الحاضر. وقد التفت الأمريكيون مؤخراً إلى هذا الأسلوب الذي يبدو أنه لا يزال مستعملاً في أكثر من منطقة حول العالم. فقد بلغت مخاوف الأمريكيين من احتمال لجوء التنظيمات المتشددة لهذا الأسلوب حداً جعلهم يتثبتون من سلامة النصوص التي يتداولها المعتقلون في سجونها، لا سيما في معتقل «غوانتانامو، Guantanamo». وقد فرض السجانون هناك رقابة مشددة جداً بعد اكتشاف حرس المعسكر بعض الأبيات الشعرية المكتوبة على أكواب الشاي التي كان النزلاء يستخدمونها للتواصل فيما بينهم. وفي الحال تمت مصادرة هذه الأكواب حسب ما أوردته صحيفه «الاندبندنت، The Independent» اللندنية خوفاً من أن تكون العبارات المكتوبة تتضمن رسائل سرية مشفرة. فالشعر بالنسبة للجيش الأمريكي يمثل مجازفة قد تعرض الإجراءات الأمنية المشددة إلى خروقات هم في غنى عنها وفق معايير وزارة الدفاع، ذلك أن أخشى ما كان يخشاه «البنتاغون» هو استخدام الصور البلاغية والمحسنات البديعية لنقل رسائل مشفرة إلى التنظيمات المسلحة في الخارج.⁴⁶

ويحفظ لنا التاريخ العربي العديد من الأمثلة التي تم فيها تبادل الرسائل السرية بين أطراف لم تكن اتفقت حتى على شفرة سرية بينها. ومن أبرز هذه الأمثلة القصة الشعبية المعروفة عن المهلهل الزير سالم التي توارثتها الأجيال، والتي وردت إلينا في عدة روايات بل في عدة أجناس أدبية. وتحدث تلك القصة عن رجل مسن كان طلب، بعد عمر طويل، من ابن أخيه أن يساعده

كي يسافر عبر الصحراء فيستمتع بالمناظر الطبيعية ويجدد بعض شبابه بالفضاءات المفتوحة والهواء النقي. يستجيب ابن الأخ على الفور وحتى يكمل أسباب الراحة لعمه أثناء السفر، أمر اثنين من عبيده بأن يُلبّيا للزير سالم كل ما يطلبه ويبتغيه. ويبدأ الثلاثة الرحلة عبر الصحراء متوقفين عند هذه الواحة أو تلك، وبعد فترة من الزمن شعر العبدان بالإرهاق التام بعد أن أعياهما الحل والترحال، حتى لم يعد بمستطاعهما تحمل المشقة أبداً. لذلك اتفق هذان الرجلان على قتل العجوز والتخلص منه وإلى الأبد.⁴⁷ بيد أن العجوز لم يكن غافلاً عن ما كان يدور في خلد العبدین فقد شعر هو الآخر أنهما سئما من خدمته وتلبية احتياجاته وأنهما أخذا يتآمران على قتله. لذلك رجاها أن يلبيها طلباً عزيزاً على نفسه وهو نقل وصيته الأخيرة إلى كل من ابن أخيه وإلى أخته حيث أنه بات يشعر بدنو أجله في الصحراء. وطلب منهما أن يتأكدا من أن رسالته تُنقل حرفياً وكما يمليه عليهما بالضبط كي لا يسيء أحد فهمها. وهكذا قضى يوماً كاملاً يقرأ عليهم الرسالة ذات الجملة الواحدة مراراً وتكراراً حتى حفظاها عن ظهر قلب. ثم تعهدا بأن يوصلا هذه الرسالة إلى ابن أخيه وإلى شقيقته وكما أملاها عليهما بالضبط والتي كان نصها:

من مبلغ الاقوام إن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

في تلك الليلة اقدم العبدان على قتل العجوز، ثم دفناه. وقفلا راجعين إلى مولاها لإبلاغه بخبر موت عمه. وقاما أيضاً بتلاوة الرسالة التي أملاها عليهما العجوز المجنى عليه. وحيث أن ابن أخيه لم يفهم من مضمون الرسالة شيئاً طلب أخته «يمامة» المساعدة، وكانت من أكثر العقول المتنورة بين العرب. وحالما سمعت الرسالة ذات الجملة الواحدة أيقنت أن هذه الجملة أو البيت الشعري مشتق من قصيدة قديمة. ولم تمض لحظات حتى فكت يمامة طلاسماً اللغز، وعرفت معنى الرسالة السرية ومغزاها. فأخذت يمامة تولول وتلطم خديها، وقد تملكها الحزن الشديد. ثم أخذت تقول: « كان عمي يفهم الشعر

ولا يقول أبياتا مجتزأة منقوصة الكلمات عديمة المعنى». وما أن استذكرت النص الاصيلي للبيت الشعري المنقوص حتى تمكنت من الوقوف على الحقيقة واستنباط الأدلة الدامغة على قيام العبدین بقتل أخيها العجوز. ثم قرأت البيت صحيحاً لا كما قاله العبدان:

من مبلغ الأقسام أن مهلهلا أضحي قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

وكما هو واضح من النص المذكور أعلاه فإن كلماته تضمنت أكثر من رسالة: الأولى خبر مقتل العجوز في الصحراء، والثانية تضمنت تحديد نوع الجزاء الذي ينبغي أن يناله القاتلان. وعلى أية حال تمضي الرواية إلى أن العبدین قد اعترفا بجرمهما بعد إلقاء القبض عليهما ومحاكمتهما وقد دفعا حياتهما ثمنا لخيانتهما. وهكذا بفضل النباهة والحنكة استطاع هذا الشيخ العجوز أن يشفر رسالته، وأن يُعرّف بقاتليه، وأن يرتب أمر الانتقام منهما حتى قبل وقوع الجريمة.⁴⁸

5.5: الأمن والاستخبارات المضادة

كان النسيج الاجتماعي المدني بيثرب عند قدوم النبي ﷺ يتكون من المهاجرين والأنصار والمشركون من قبائل الأوس والخزرج وقبائل اليهود. وكان بين الأوس والخزرج حروب طاحنة لم تهدأ إلا بعد «حرب بعاث»، بعد أن اتفقت هاتان القبيلتان على أن يُنصب «عبد الله ابن أبي» ملكاً عليهما الذي رأى في قدوم النبي ﷺ للمدينة سلباً لملكه. فكان هو وأعوانه يكيدون لرسول الله ﷺ ولربما كانوا يتخذون بعض الأحداث وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم لتنفيذ خططهم.⁴⁹ وفي الطرف الآخر رأت القبائل اليهودية في الإسلام، ديناً منافساً لدينهم وخطرأ عليهم فتصدوا له بكل قوة وانبروا له بالكيد والتآمر.

وبالرغم من ذلك فقد بدأ الرسول ﷺ عند وصوله بوضع اللبنة الأولى لتكوين نواة مجتمع إسلامي متماسك ينبذ الفرقة ويوحد الكلمة. فأخا بين الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار وأبرم العهود والمواثيق مع اليهود مؤسساً بذلك دعائم كيان جديد لمجتمع الأمة الإسلامية في «المدينة». على أن البنية الاجتماعية في «المدينة» تعرضت إلى العديد من التحديات بل إلى الاهتزاز والتخلخل في ظل وجود القبائل اليهودية الحاقدة على ظهور نبي من العرب وكراهية «عبد الله ابن أبي» ومن ساندته لقدوم النبي ﷺ للمدينة. وكذلك لوجود بعض المشركين من قبائل «المدينة» الذين كانوا يضمرون الكراهية للرسول ﷺ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليه. وفي مثل هذه الأجواء المشحونة فإن التوجس والريبة والشائعات وجدت أرضها الخصبة آنذاك. وقد حذر الرسول ﷺ المسلمين مراراً من الريبة والشائعات والأخبار غير المسندة التي يتناقلها الناس. فيقول ﷺ «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».⁵⁰ ولكن الأمر كان مختلفاً جداً عندما كان يتعلق بأمن الدولة أو المصلحة العامة. فعلى صعيد الجبهة الداخلية في «المدينة» التي كانت شغل المنافقين واليهود الشاغل، كان لابد من التصدي لما يهددها. وحتى يكون ملماً بما يحدث خارج «المدينة»، وحتى ينشر الإسلام ويعزز موقفه في الجزيرة وما بعدها، كان لابد من توفير الأمن وإيجاد شبكة من العيون تجلب خبر كل ما يهدد أمن الدولة الفتية.

بعد أن وردت من «قريش» رسائل تهديد للمهاجرين بالاستئصال والإبادة، كان لابد من أن يكون للقيادة رجال أمن يحرسونها، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلاً حتى نزل «والله يعصمك من الناس»⁵¹ وكان من أهل الصفة ممن كانوا معنيين بحراسة رسول الله ﷺ، كما كانت هناك أحياناً دوريات تجوب «المدينة» لا سيما في أيام الحروب

لإشاعة الأمن ومعرفة تحركات الأعداء واليهود المناهضة للمسلمين وقد رصد لهم ذلك في معركة الخندق كما رأينا.

على الصعيد الخارجي ولدرء الأخطار عن «المدينة» أوجد الرسول ﷺ شبكة من العيون تخدم هذا الدين الحنيف وتتفانى في سبيله وتضحي من أجله. ونعني هنا شبكة العيون الاستخبارية ذلك الجمع من العناصر البشرية المنتشرة في «مكة» وباقي قبائل وهجر الجزيرة العربية ممن كانوا قد أسلموا وكنتموا إسلامهم وأبقوا في مواقعهم ليكونوا روافد للمعلومات عن كل ما يشكل خطراً على المسلمين، وكان إلى جانب هؤلاء «الوكلاء» المكتومين عدد من المتعاونين الآخرين الذين لسيوا على دين الإسلام، وأعداد أخرى من الذين كانوا مكلفين بمهمات الأمن والمراقبة والاستطلاع. ومن المتطوعين المتحمسين الذين كانوا يقدمون خدمات أمنية واستخبارية جليلة، لا سيما إبان السنوات الأولى من الدعوة. فهؤلاء كانوا يعملون بسرية تامة كـ «وكلاء متمرزين» «Agent in Place» مناطق مختلفة من الجزيرة. وكانوا يجهدون في جمع المعلومات عن طريق المعاينة الشخصية وما يردهم من ثقاتهم. ولم تكن المعلومات التي يستجمعونها قاصرة على شئون الحرب فحسب بل كانت تتعداها إلى الاستخبارات الاستراتيجية، كالأنشطة السياسية والاجتماعية والعسكرية والأمنية والاقتصادية، بما في ذلك تحركات القوافل، وطرق سيرها، وعالم الأسواق والتجارة، وموارد المياه ومناطق الكلاً والرعي، ومشاعر الناس عموماً إزاء زعمائهم وقادتهم، ومدى استعداد هذه القبيلة أو تلك لتقبل الدين الجديد والعيش في ظل تعاليم الإسلام.

وهنا يبرز الدور الخطير الذي نهض به المتعاونون الأوائل من الذين أمدوا الرسول ﷺ بمعلومات كان الرسول ﷺ والمسلمون عموماً في أمس الحاجة إليها. وأول من تشرف بهذه المهمة من كان مسئولاً عن أهم محطة

استخبارية للرسول ﷺ إن جاز التعبير خارج «المدينة»، ونقصد بذلك «مكة» المكرمة. أما الشخص الذي كان يقوم بتلك المهمة الشاقة فكان «العباس» عم الرسول ﷺ الذي آمن بالدين الجديد لكنه لم يشهر إسلامه. وإذا صنفنا العباس ضمن «الوكلاء» صح لنا أن نصفه على أنه «وكيل تأثير» الذي أبدى مهارة استثنائية في عمله، لا سيما في نقله رسالة خطيرة إلى الرسول ﷺ في وقت قياسي، وقد ذكرنا القصة في موضع سابق. علمًا بأن «ابن سعد» في طبقاته، يذكر «ابن عباس» رضي الله عنه ضمن الصحابة الذين «أسلموا قديمًا ولم يشهدوا بدرًا».⁵²

وكان العديد من العيون منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية، منهم من كان ضمن سكان المدن، وآخرون بين أفراد القبائل المتنقلة في الصحراء، أو القاطنة على طرق التجارة الدولية كقبيلة خزاعة القوية.⁵³ ومن أبرز من أرسلهم الرسول ﷺ في مهمات تحسسية هو «حسيل بن نيرة». الذي كان يجب أرجاء الجزيرة ليجمع المعلومات من مصادر متنوعة ومتعددة عن الأوضاع العامة للقبائل المختلفة وعن زعمائها.⁵⁴ وكان هذا الرجل دليل النبي ﷺ إلى خيبر. كذلك كان هو الذي قدم على رسول الله ﷺ من الجنب فأخبره أن جمعاً من غطفان بالجنب. فبعث رسول الله ﷺ حينئذ «بشر بن سعد» ومعه ثلاثمائة من المسلمين إلى «الجنب» فلقوهم بيمين وخيار.⁵⁵ من جهة أخرى، وقبل غزو المسلمين بلاد فارس وبينزنطة بوقت طويل، أرسل الرسول ﷺ عيوناً إلى عمق مناطقهم.⁵⁶

كانت الشهور الأولى في «المدينة» على وجه التحديد صعبة على الرسول ﷺ وعلى الذين هاجروا معه من «مكة». فكان محمد ﷺ يحذر ما كانت «قريش» تحيك له من مكائد ودسائس خبيثة. فقيادة «قريش» لم يتوقفوا لحظة واحدة عن مواصلة سعيهم للانقضاض على الرسول ﷺ وأتباعه وتصفيتهم جسدياً.

من هنا كان لزاماً على المسلمين أن يراقبوا الأوضاع في «مكة» عن كثب حتى يكونوا مستعدين لأية تحركات عندهم. ولهذه الأسباب كان الرسول ﷺ قد بعث بسرية تجمع له الأخبار، وتزوده بتقارير مفصلة عن تحركات القرشيين ومخططاتهم وكانت تلك السرية تدعى «سرية النخلة» التي كانت قد كلفت بمهمات استطلاعية عن «قريش».⁵⁷

وفي معرض الحديث عن «الاستخبارات» و «الاستخبارات المضادة» ينبغي أن نستذكر أن الغرض الأساس من الأمن ومكافحة التجسس «الاستخبارات المضادة» هو تنفيذ إستراتيجيات معدة سلفاً، وخطط محددة مرسومة تهدف أساساً إلى تضليل الأعداء وحماية الأمن العام، وخلق أية مخططات خبيثة لهم، وفي الجانب الحربي منه ما قاله الرسول ﷺ في هذا الإطار: «إن الحرب خدعة». فمعظم المعلقين يذكرون هذا الحديث للتدليل على أهمية الدور الذي يلعبه العين في خدمة قضايا الدولة الإسلامية. فيؤكد «العسقلاني» على سبيل المثال أن «الحرب الطيبة هي التي تكون فيها الحاجة إلى الخداع أكثر منها إلى القتال. وفي الوقت الذي تكون المواجهات محفوفة بالأخطار، فإن النصر يمكن تحقيقه من خلال الخداع ودون الإنكشاف للخطر».⁵⁸ وبالمثل فإنه بالنسبة للعين، فإن أهمية هذا الحديث تكمن في أنه ينصح «باستعمال الخداع في الحرب كلما تسنى ذلك، ثم يقاتل إذا فشل في ذلك». بمعنى آخر، فإن استعمال السلاح يجب أن «يكون آخر خيار».⁵⁹

سرية و الكتمان

كانت السرية -منذ بزوغ فجر الإسلام- أساساً ومنهجاً لاستراتيجية الرسول ﷺ طويلة المدى. فقد حرص ﷺ على تطبيقها في جميع مناحي الدعوة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما اتخذته من إجراءات في السنوات الثلاث الأولى من

البعثة النبوية الشريفة، والتي تعرف في التاريخ الإسلامي بالمرحلة السرية للدعوة. فخلال تلك السنوات الحرجة، كانت تحركات الرسول المصطفى ﷺ وأداؤه لواجباته الدينية أو اتصالاته بأصحابه تتم بسرية تامة وبكتمان شديد. بل استمر ذلك حتى في المرحلة العلنية، حين بدأ الرسول ﷺ يجهر بدعوة الناس إلى اعتناق دين الإسلام، كان فيها لا يتخلى عن أخذ الحيطة والحذر فيما يتعلق ببعض المعاملات أو العمليات التي تتطلب التزام السرية والكتمان.

وفي «المدينة» بعد الهجرة ولكي يستبق أية محاولة لتسريب المعلومات، ويكون مطلعاً على الدوام على مخططات عملاء الأعداء، كان الرسول ﷺ يبعث بالعيون والكشافاة إلى كل أنحاء المناطق المحيطة بـ «المدينة». وباستثناء دعوته إلى عبادة إله واحد، ودعوته العرب إلى حظيرة الإسلام، فإن معظم تحركات الرسول ﷺ ونشاطاته على المستوى الشخصي والعام، كانت ملبوسة بالكتمان والسرية. ويروى أنه كان يشجع المسلمين على الدوام على التزام السرية في الأمور التي تستحق التكتّم. من ذلك ما ذكره «ابن عبد البر» من الخبر المروي عن رسول الله ﷺ: «من أسر إلى أخيه سرّاً لم يحل له أن يفشيه عليه».⁶⁰ ومن أقوال عمر في هذا المقام، وكان صحابياً جليلاً يتسنى بسنة الرسول ﷺ: «من كتم سره كان الخيار بيده».⁶¹ ويقول ﷺ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود».⁶² وهي أحاديث أو آثار تشهد على تفضيله للتستر عموماً. أما بالنسبة لقضايا الأمن فإن الرسول ﷺ كان يعتبر الالتزام بالسرية فيها، شرطاً واجباً لا مناص من الالتزام به.

ومن الأمثلة المبكرة لإصرار الرسول ﷺ على السرية نجده في موقفه الذي اتخذه بعد وصول بعثة من حلفائه من «بني خزاعة» إلى «المدينة»، والتي شكت إليه أن «قريشاً» نقضت عهد الحديبية. فأخبرت الرسول ﷺ أن «قريشاً» ناصرت «بني بكر» على «بني خزاعة» في نزاع وقع بين القبيلتين،

وتحملت «خزاعة» خسائر كبيرة جراء هذا الاعتداء. وهكذا وبوقوع هذا الاعتداء على حليف من حلفاء الرسول ﷺ نقضت «قريش» نص الاتفاق أي معاهدة الحديبية. وعندما انتهى اجتماعه ببعثة «خزاعة» طلب من الرجال أن ينفصوا سراً، ودون إثارة الانتباه. فكان يحذر من أن تعلم «قريش» بأن المسلمين يعلمون بأمر مخالفتها لشروط الاتفاق. وعليه فإن جهلهم بالأمر سيحرمهم فرصة الاستعداد لمواجهة محتملة مع المسلمين.⁶³ وبعد أن علم «أبو سفيان» بخطورة موقفه حاول أن يستدرك الأمر بأن زار «المدينة» بنفسه ليسترحم الرسول ﷺ في الخطأ الذي وقعت فيه «قريش»، بل وطلب توسط بعض المقربين لرسول ﷺ في هذا الأمر لعل النبي ﷺ يسامح «قريشاً» على ما فعلت، ولكن الرسول ﷺ رده رداً قوياً حاسماً، ورجع «أبو سفيان» إلى «مكة» لا يدري ماذا يخبيء الرسول ﷺ له ولـ «قريش».

وعزم النبي ﷺ السير إلى «مكة»، ولكنه وحتى يخفي تحركات جيشه ، أمر بأن يسير الجيش من منتصف الليل وحتى الفجر، فيكون ذلك لهم غطاء يخفيهم عن عيون «قريش» وحلفائها، وهو بذلك يخفي تحركات جيش وصل قوامه إلى عشرة آلاف مقاتل.⁶⁴ وكان الرسول ﷺ يحرص على تذكير من يمكن أن نسّمهم بوكلائه السريين، ألا يتفوهوا خطأً بأية كلمة تنم عن طبيعة مهماتهم أو وجهاتهم السرية. بمعنى آخر أن السرية أصبحت مبدأ من المبادئ الأساسية التي يجب الالتزام بها.

وكان ﷺ في معظم الأحيان يميز ويكرم من ينجز ما يوكل إليه ويؤدي المهمات الصعاب للإسلام، بأن يخلع عليه ألقاباً تشجيعية مشرفة تشجّد من همته وتعتزف بمنجزاته. من ذلك تسميته لـ «خالد بن الوليد» بـ «سيف الله المسلول» مثلاً. أما في «الأداء السري» فإن قصة «الزبير بن العوام» ذات دلالة واضحة:

وكما في الصحيحين عن «جابر بن عبد الله» رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب قال «الزبير»⁶⁵ أنا. ثم قال من يأتيني بخبر القوم قال «الزبير» أنا، فقال النبي ﷺ إن لكل نبي حوارياً وحواري «الزبير». والحواري هو: الناصر المخلص.⁶⁶

يتضح لنا من ذلك أن الرسول ﷺ كان يعلق، وفي كل تعاملاته، أهمية كبرى على السرية. ذلك أن أي تحرك غير محسوب منه ﷺ قد يعرض مصيره ومصير أصحابه إلى الخطر. من هنا كان يحمي ويحرص شديد أصغر التفاصيل حتى لا تستغل وتُستعمل ضده. من ذلك أنه في ليلة «غزوة بدر»، وبينما الرسول ﷺ وبعض من أصحابه في طريقهم لمعاينة جيش «قريش» قبل اللقاء بهم، إذ هم برجل عجوز. فأوقفه الرسول ﷺ وسأله عن نفسه. ودار حوار ذكره بعض أهل السير كما يلي:

«من الرجل؟ - بلى من أنتم؟ - فأخبرنا ونخبرك. - فسلوا عما شئتم. - أخبرنا عن «قريش»؟ - بلغني أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من «مكة»، فإن كان الذي أخبرني صادقاً فإنهم بجانب هذا الوادي. - فأخبرنا عن محمد وأصحابه. - خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صادقاً فهم بجانب هذا الوادي. - فمن أنتم؟ - نحن من ماء».

ولقد أدى هذا الجواب الغامض من رسول الله ﷺ «نحن من ماء» غرضه على ما يبدو، فقد لوَّح الرجل بيده جهة العراق وقال: من ماء العراق.⁶⁷ أي إنكم إذاً من ماء العراق. ولربما أن الرسول ﷺ لم يقصد ماء العراق كما فسره ذلك الرجل ولكنه قصد أنه (خُلِقَ من ماء). كما ورد في آيات القرآن الكريم ﴿من ماء مَّاء مَّهين﴾.⁶⁸

ولضمان السرية عمد إلى المواراة في تحركات الجيش، فكان الرسول ﷺ يأمر جيشه أحياناً بالتجمع عند مكان معين لكي يستعد لعملية عسكرية أو هجوم وشيك. ثم في المكان المحدد كان يصدر أوامره ويخبر قادة الميدان ورؤساء المجموعات فقط، بوجهتهم الدقيقة ومهماتهم. ومن ذلك أنه حين كان يستعد لمعركة مؤتة، أمر الرسول ﷺ جيشه بالالتقاء بمكان يدعى الجرف، فاتجه الجيش برمته هنالك وانتظر أوامره. وعندما اجتمع الرسول ﷺ مع قادة الجيش بعد ذلك، فصل لهم التفاصيل التكتيكية، فأخبرهم أن:

زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة، فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم.⁶⁹

وإلى جانب المواراة، كان الرسول ﷺ يلجأ في بعض الأحيان إلى اعتماد التمويه والخداع لهزيمة أعدائه. فإلى جانب اتفاقه ضمناً في المبدأ العام مع فيلسوف العلوم الحربية «سن تزو، Sun Tzu»، على أن "كل الحروب قائمة على الخداع"⁷⁰ فإن الرسول ﷺ نفسه صرح بالحرف الواحد بأن «الحرب خدعة».⁷¹ ولخداع خصومه وأخذهم على حين غرة، كان الرسول ﷺ يأمر جيشه بأن يسلك طريقاً متعرجة إلى هدفه. فعلى سبيل المثال، في حملة «بني لحيان»، أعلمهم بأن وجهته «سوريا»، وأمر قواته بالفعل بالتحرك نحو «سوريا»، ولكن سرعان ما أمرهم بالرجوع جهة «مكة»، نحو هدفهم الحقيقي أرض «بني لحيان»، الذين أخذوا على حين غرة وفروا إلى الجبال.⁷²

مثال آخر على أساليب التمويه عند رسول الله ﷺ، أنه في ليلة زهابه لفتح «مكة»، بعث بسرية من ثمانية رجال تحت قيادة «قتادة بن الربيع» إلى «إضم»، على مقربة من «المدينة»، ليصرف الأنظار عن هدفه الأساسي وذلك عندما كان

الجيش المسلم، وقوامه عشرة آلاف رجل، يجري استعداداته النهائية للتوجه لفتح «مكة»، وقد اتخذ الرسول ﷺ كل احتياطاته حتى لا تصل أخبار الهجوم الوشيك إلى «قريش»، فيداهم «مكة» على حين غرة. واستعد القادة في ساعة الصفر ليصدر لهم أوامره، وطلب منهم توخي الحذر الشديد والالتزام بأقصى درجات السرية. ولضمان أن «قريشاً» لا تفتن إلى مخططاته ﷺ العسكرية، تم وضع حزام أمني حول «المدينة» وفرض «تعتيم اعلامي» عليها. وقبل إصدار الأوامر بالتحرك بليلة لم يكن يُسمح لأحد بمغدرتها أو دخولها. وقبل التحرك مباشرة، وعندما طلب من زوجته «عائشة» أن تعد له طعاماً للسفر، كان يحذر من أن يكشف وجهته حتى لها. ثم طلب منها ألا تفوه لأحد بأمر السفر. ولم يكن أحد سوى «أبي بكر» رضي الله عنه، مستشار النبي ﷺ وخاصته وأبي زوجته، يعلم بخطط فتح «مكة»، حيث اضطر «أبو بكر» نفسه أن يستعلم عن الأمر من الرسول ﷺ قبل أن يأمر بالتحرك بيوم:

"أبو بكر: يا رسول الله أردت سفراً؟ الرسول: نعم. أبو بكر: أفأتجهز؟ الرسول: نعم. أبو بكر: وأين تري يا رسول الله؟ الرسول: «قريشاً»، وأخف ذلك يا أبا بكر. فظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام وظان يظن ثقيفاً، وظان يظن «هوازن»⁷³.

وكان الالتزام بمبدأ «التكتم والسرية» يتخذ أشكالا عدة. فقد استخدم المسلمون كلمات السر للثبوت من هوية من يخاطبهم أو لتأمين الخروج أو الدخول الآمن إلى أية منطقة محظورة. وإلى جانب كل ذلك كانت كلمات السر من أساليب التوثق والسرية لكل لواء من ألوية الجيش. ولضمان أعلى درجات الأمن، كانت هذه الكلمات المتفق عليها مسبقاً تُستبدل باستمرار. وهي عبارة عن كلمات أو إشارات يتم الاستعانة بها وقت الحاجة الملحة إما لتوحيد الصفوف على كلمة سواء، أو لشحذ الهمم، أو لتأكيد الهوية.

ومن بين كلمات السر التي استعملها «خالد بن الوليد»، أبرز أبطال حروب الردة، كلمة «أموت» وتعني «أقتل».⁷⁴ أما في «غزوة حنين» فكانت كلمة السر التي استعملها جيش الرسول ﷺ لإحياء الروح فيه بعد أن تولى وكاد يهزم تماماً، هي «أهل البقرة» و «الخير كله».⁷⁵ وفي «بدر» كانت كلمة السر، والتي تبوأ الآن مكانة بين المسلمين عظيمة، هي «أحد، أحد».⁷⁶ وكلمتان وردتنا عبر التاريخ هي كلمة «عبدالله» استعملها لواء الأنصار وكلمة «عبدالرحمن» استعملها لواء المهاجرين.⁷⁷ من كلمات السر المشهورة أيضاً التي استعملتها جيوش المسلمين كلمة «الله أكبر». فهذه الكلمة التي تردد من المنابر كل يوم عدة مرات لا يسمعا مسلم إلا عرف أن صاحبها مسلم. واستعملت بفاعلية كبيرة عندما أرسل الخليفة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه قوات إضافية لمساندة جيش «أبو عبيدة بن الجراح» الذي كان يقود حملة المسلمين ضد البيزنطيين. ولم يتعرف الجيشان المسلمان على بعضهما إلا عندما سُمعت صرخة «الله أكبر» عند الجانبين.⁷⁸

وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد الرسول ﷺ ينصحون أصحابهم بالسرية ويشيرون على القادة وأولي الأمر في الولايات كافة بضرورة التستر على نقاط ضعفهم والعمل على تحين الفرص المناسبة والالتزام التام بالتكتم في معاملاتهم واتصالاتهم حتى تكون لهم الأفضلية العسكرية، فعندما أرسل «عمر بن الخطاب» «عبيد بن مسعود الثقفي» لقيادة حملة ضد الفرس في العراق، كانت نصيحته له بأن «احفظ لسانك ولا تفش سرك». فالذين يحفظون سرهم محصنون ولا يؤخذون على حين غرة ولا يجدون ما يسوؤهم».⁷⁹

كان «معاوية بن أبي سفيان» (661-680) يلجأ إلى التكتم كثيراً في إدارة شؤون الدولة. فمن مقولاته المشهورة: «ما أفشيت سري إلى أحد إلا أعقبني طول الندم، وشدة الأسف، ولا أودعته جوانح صدري فحكمته بين أضلاعي،

إلا أكسبني مجداً وذكراً، وسناء ورفعة».⁸⁰ مقولة أفضل منها في هذا الإطار هي نصيحته العامة بأن «ما كنت كاتم من عدوك فلا تظهر عليه صديقك».⁸¹ ويقول الجاحظ في هذا الشأن :

«يقال لكاتم سره، من كتمانته إحدى فضيلتين: الظفر بحاجته والسلامة من شره، فمن أحسن فليحمد الله وله المنة عليه، ومن أساء فليستغفر الله. وقال بعضهم: كتمانك سرّك يعقبك السلامة، وإفشاؤك سرّك يعقبك الندامة، والصبر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشائه. وقال بعضهم: ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه، ويمكن عدوه من نفسه بإظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه، ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن إلا نفسه إن لم يستقم له.

كما يضيف الجاحظ ما قالته العرب عن كتمان السر في ذكره هذه الأبيات:

صن السر بالكتمان يرضك غبه

فقد يظهر السر المضيع فتندم
ولا تفشين سرّاً إلى غير أهله
فيظهر خرق السر من حيث يكتم
وما زلت في الكتمان حتى كأنني
برجع جواب السائل عن أعجم
لنسلم من قول الوشاة وتسلمي
سلمت وهل حي على الدهر يسلم»⁸²

5.7 : الرشوة والخداع وأساليب التنظيل

لسنا نجافي الحقيقة إن قلنا أن الرشاوى والعطايا والعمولات، كانت تستعمل منذ قدم الزمان للحصول على الخدمات الخاصة، وتسهيل المعاملات، سواء أكانت تلك المعاملات أو الخدمات مشروعة أم غير مشروعة. وفي الجزيرة العربية كما في غيرها من بقاع الأرض، كان سكان الصحارى والمدن على حد سواء يستخدمون هذه الأساليب الفعالة جداً لتحقيق أغراض معينة، وكوسائل للتأثير على صنع القرار أو على سلوك مسؤول أو شخص يشغل موقعاً مهماً. ويمكن القول بأن معظم العمليات السرية تدخل فيها الرشوة بشكل أو بآخر وذلك من خلال تزويد المصدر بالمال أو الهدايا العينية أو سد احتياجات محددة أو تنفيذ خدمات موعودة.⁸³

فعندما أدركت «قريش» بأن المهاجرين من المسلمين من «مكة»، الذين وصلوا الحبشة، مُنحوا ملاذاً آمناً هنالك حتى يمارسوا دينهم دون مضايقة أو تدخل من لدن أصحاب البلاد الكرماء،⁸⁴ خافوا مما قد يخبيء لهم المستقبل لو سُمح لهم بالازدهار والنمو. من هنا قرروا التقدم إلى النجاشي، ملك الحبشة، حتى يقنعه بإخراج المسلمين وتسليمهم إلى «مكة». وفي هذا السبيل أرسل القرشيون بعثة عالية المستوى تتألف من «عمرو بن العاص» و «عبدالله بن أبي ربيعة».⁸⁵ وقبل انطلاقهم إلى الحبشة، جمع القرشيون مجموعة جذابة من الهدايا للنجاشي ولكل مستشار من مستشاريه. وطلبوا من البعثة أن تقدم الهدايا لرجال البلاط الملكي قبل أن يصلوا إلى الملك نفسه. وفي اجتماعهم مع مستشاري الملك، شرح لهم الرجلان طبيعة مهمتهم وأكدوا بأن الذين وصلوا حديثاً من «مكة» خانوا دين آبائهم ويدعون إلى دين غريب لا يعرفه أحد، وأضافوا أن هذا الدين يناقض ما عليه الحبشة من المسيحية. وادعى المبعوثان أنهما كلّفا من لدن قادة القبائل التي ينتمي

إليها هؤلاء المارقون حتى يعيدوهم معهم. وطلب الرجلان أيضاً من حاشية الملك أن يعينوهما في هذه المهمة من خلال حث النجاشي على الموافقة على طلب «قريش». وعندما تقابل المبعوثان مع الملك نفسه، قدما له هدايا «مكة» وأخبراه بأن مجموعة من الجاهلين والغلمان المشاغبيين جاءوا إلى بلادهم. وأكدوا له بأنهما جاءا نيابة عن أكابر القوم في «مكة» وزعمائها بل نيابة أيضاً عن آباء الهاريين وأقاربهم وزعماء قبائلهم. وأخبراه أيضاً بأن الذين بعثوهم يعلمون جيداً خبث وخداع هؤلاء المارقين. واتفق رجال الملك جميعاً على أنه من الأفضل أن يعيدوا هؤلاء الهابطين على أرض الحبشة حديثاً، إلى أرض الجزيرة. ولكن الملك رفض طلبهم، قائلاً بأنه لن يرد أبداً من جاء يطلب حمايته. ولكنه أكد للمبعوثين بأنهم إن كانوا كما قالوا بالفعل، فإنه سيسلمهم لـ «قريش»، ولكن لو أثبت المهاجرون بأنهم ليسوا كما يدعي مبعوث «قريش»، فإنه سيرحب بإقامتهم على أرضه.

وبعد أن فشل المبعوثان في تحقيق أهدافهما، رغم العطايا الغالية التي قدماها للملك ورجاله، لجأ المبعوثان إلى خطة غدر بديلة. فقبل الوصول إلى الحبشة كانا قد درسا شخصية الملك النجاشي وتعرفا على طباعه الشخصية، ونقاط ضعفه، فعلما أنه وقبل كل شيء آخر كان رجلاً صالحاً ملتزماً بالديانة المسيحية. فلو أنهما استطاعا أن يقنعا بأن هؤلاء المهاجرين يعتقدون في دينهم بما يخالف ويسيء إلى العقيدة المسيحية، فإنه بالتأكيد سيغضب منهم ويأمر بترحيلهم. من هنا قررا أن يطلبوا مقابلة الملك للمرة الثانية، حيث أخبراه بأن المسلمين يقولون كلاماً يسيء لـ «عيسى بن مريم» عليه السلام، وللتأكد من ذلك فإنه بإمكانه أن يرسل في طلبهم، ويستفسر منهم بنفسه. وهنا استدعى الملك المسلمين إلى بلاطه وطلب منهم أن يشرحوا له تعاليم دينهم. وهنا قام «جعفر بن أبي طالب» وخاطب الملك هكذا:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل

الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار،
ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا
رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى
الله لنوحده ونعبده».⁸⁶

هنا، وقد أخذت النجاشي الرغبة بالتعرف على المزيد عن هذا الدين
الجديد، فطلب الملك من «جعفر» أن يقرأ عليه بعضاً من آيات القرآن الكريم،
فاستجاب له «جعفر بن أبي طالب» رضي الله عنه على الفور، وقرأ عليه آيات
من سورة «الروم والعنكبوت والكهف»، فطلب منه الملك تلاوة المزيد من
الآيات، ثم سأله عن ما يقولون في «عيسى بن مريم»؟ فأجابه «جعفر» قائلاً:
(نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها
إلى مريم العذراء البتول). فرد النجاشي قائلاً:

إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة،
انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون يخاطب
«عمرو بن العاص» وصاحبه..... ثم قال للمسلمين: اذهبوا
فأنتم شُيُومٌ بأرضي.⁸⁷

ويشار في هذا الصدد إلى أن «عمرو بن العاص» الذي قاد هذه البعثة
كان يشتهر بفراسته ودهائه وحنكته، ليس كفارس محارب فقط بل كمحاور
سياسي خبير أيضاً. ولكن رغم هذه السمعة وهذه الخبرة فقد باءت مهمته
بالفشل الذريع. ولأنه بطبيعته عصامي، فقد أعد خطة غدر بديلة لتضليل
المسلمين المهاجرين إلى الحبشة بهدف إعادتهم من تلقاء أنفسهم. فبمجرد
رجوعه إلى «مكة» قام بحملة تضليل معلوماتية مدروسة، سرب من خلالها
معلومات مغلوبة تستهدف المسلمين المهاجرين، وتتمحور حول أن جميع
أهل «مكة» قد اعتنقوا الإسلام، وباتت الحياة مزدهرة لمحمد ﷺ وأصحابه.
وعندما وصلت هذه الشائعة، بفضل مناورات قريش، إلى أرض الحبشة، تلقاها

المهاجرون بفرح كبير، وأقفلوا راجعين إلى «مكة» على الفور. وعند وصولهم إلى ديارهم اكتشفوا حقيقة الوضع ولكن بعد فوات الأوان. فمن تمكن من الرجوع إلى أفريقيا نجا، ومن أخذ منهم على حين غرة، ناله ما ناله أذى، ودفع الثمن غالياً لوقوعه فريسة لخداع القرشيين.⁸⁸

٣.٤: الاستخبارات العسكرية

يسعى القائد العسكري المحنك دائماً إلى حجب معلومات قواته الحقيقية عن العدو مستخدماً الطرق والوسائل كافة لتحقيق ذلك. أي أنه يسعى في كثير من الأوقات إلى ممارسة أساليب التضليل والخداع، وبث المعلومات المغلوطة بهدف التشويش على الخصوم الذين يسعون في المقابل جاهدين للحصول على أية معلومات تتصل بتعداد القوات التي يحاربونها ونوعية تسليحها ومدى جاهزيتها وما إلى ذلك من تفاصيل مهمة. فمن الأهمية القصوى لأي قائد عسكري أن يتناسب تعداد قواته المشاركة في أي معركة مع تعداد قوات الخصم، ليصبح نجاح الغزوة أو المعركة متكافئة العدد، معتمداً على القدرات القتالية للقوة ونوع تسليحها بالإضافة إلى ما تمتلكه من معلومات تكتيكية وطوبوغرافية عن تضاريس أرض المعركة، وتوظيف ذلك لصالح قواته لتحقيق الانتصار. إن تسخير كافة الموارد والخبرات اللازمة لانجاح أي حملة عسكرية لا يكفي إن لم يكن هناك معلومات استخبارية دقيقة يتحرك القائد بقواته على ضوئها ويرسم خططه وفقاً لها.

وتتحدث كتب السير والمغازي للعهد النبوي عن بعض تفاصيل تلك الغزوات والمعارك التي خاضها رسول الله ﷺ في جميع مراحل الدعوه. وفيها نجد أنه لأهمية الاستخبارات العسكرية فقد عمد رسول الله ﷺ إلى العمل على جمع المعلومات واستطلاع أرض المعركة ومراقبة العدو عند الانسحاب.

وبالرغم من تطور استراتيجياتها وبشكل مطرد خلال مراحل الدعوة المحمدية، إلا أنه قد أنتج ذلك الإيفاد المتكرر للطلّاع والربايا والكشافة والأدلاء، إبقاء العدو القرشي وغيره تحت الملاحظة والرقابة المستمرة وتحقيق الحماية اللازمة للحدود المتاخمة للمدينة من أي اعتداء. إن التمرس في أنشطة المراقبة المكثفة ضد العدو لابد لها أن تتطور مع الزمن وتبتكر لها أساليب جديدة يتمكن الجيش الإسلامي من خلالها خداع العدو وتضليله. كما لابد أن تؤدي أساليب الخداع المطورة هذه إلى حرمان الخصوم من معرفة اهتمامات القادة وإلى إخفاء نواياهم، وعدم معرفة تعداد القوة العسكرية، ونوع تسليح القوة ومدى جاهزيتها.

لقد أظهرت الغزوات النبوية العبقريّة لرسول الله ﷺ في تمكنه وتطبيقه وتطويره للعمل الاستخباري بنشاطاته المختلفة وذلك من خلال استخدامه الأمثل للمصادر البشرية والجواسيس والاستفادة من معلومات الأسرى والمساجين، وتطبيق مبادئ السريّة، والكتمان، والتورية في مقاصد الحملات العسكرية، إلى جانب تطبيقه لعنصر الأمن ومكافحة التجسس، وحرمان الخصم من أي امتيازات قد يحصل عليها للفوز في المعركة أو الغزوة. لقد نوقش ذلك في فصول الكتاب وباستفاضة. ولكن يجدر التنويه هنا إلى أن الرسول الكريم ﷺ قد تعامل مع جواسيس العدو، الذين ينكشفون له كالمنافقين، فأبقاهم تحت الملاحظة المستمرة كـ «عبد الله بن أبي» ومن معه، أما الجواسيس الذين يلقي القبض عليهم في الغزوات أو المعارك أو داخل «المدينة»، فيتم عادة استجوابهم وعرض الإسلام عليهم ونادراً ما يتم قتلهم. ولم يكن الإجراء الأخير مستغرباً في تلك الحقبة من الزمن، لا سيما بعد أن نزلت آيات الأمر بالقتال. فمن يعتنق الإسلام إما يلحق بجماعته أو يبقى في «المدينة» مع أصحاب رسول الله ﷺ، وقليل منهم من تم توجيهه وفقاً لأهمية موقعه بين قبيلته لخدمته الدين الحنيف أو يطلب منه الانضطلاع بموقف معين

يصب نتاجه في مصلحة الإسلام. لانبالغ هنا عندما نجد أن عبقرية رسول الله ﷺ قد وجهت بعضاً منهم بالبقاء في أماكنهم وإحاطة ذلك بستر من السرية والكتمان، فعمل بعضهم كعين لصالح المسلمين، ولنا في «العباس بن عبد المطلب» مثال يوضح هذا النوع من العيون.

إن العيون المتمرسنة آنذاك تستطيع قبل أي معركة أو غزوة أن تستطلع القوات الغازية، وتقدر تعداد قواتها، وتعطي تقييماً أقرب للواقع وذلك من خلال استدلالات مستمدة من تطورات الموقف على الأرض التي تقوم برصدها، ومن تلك الموشرات عدد الركائب التي يمتطونها أو الماشية التي ينحرونها لوجبات أفراد قوتهم العسكرية، وقد رأينا ذلك التقييم من قبل المسلمين في أحداث معركة بدر ومعركة أحد. كما أن الوقوف على استعداد وجاهزية السرايا للغزوات أو للتصدي لأي اعتداء قد يكون وشيكاً أو قادماً للمدينة، يمكن ملاحظته في بعض ما دُوِّنَ في كتب المغازي «كغزوة السويق» التي قام فيها «أبو سفيان» وهو على أطراف «المدينة» من قتل بعض المسلمين ثم ولى هارباً خوفاً من أن تدركه سرايا رسول الله ﷺ.

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى أن العيون والجواسيس في عهد النبوة لم يكونوا يعملون لمراقبة أشخاص بعينهم على قدر ما كانوا موزعين بين القبائل المنتشرة في الجزيرة العربية لدرء المخاطر عن الدولة الفتية في «المدينة». وبصفة عامة يمكن أن نلاحظ أن ممارسة الأنشطة الاستخبارية في العهد النبوي بكل مراحله قد تدرجت في التطور والاتقان. فانتقلت من ممارسات بسيطة تعتمد على الملاحظة لتحركات العدو وطرق سيره ونقل أخباره وصفيّاً مع إعطاء التوقعات المحتملة نحو ذلك إلى تكثيف لأعمال الكشافة، والرياء، والعيون، وتحليل المواقف السياسية والعسكرية واستغلالها لتنفيذ أنسب الحلول والإجراءات التي تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين. إن دراسة

هذه التكتيكات الاستخبارية وأنشطتها المبينة في كتب التاريخ والمغازي التي تعد من المصادر الغنية الوافية يمكن أن تزود القادة العسكريين وصناع السياسة على حد سواء بمعلومات جمة وعلى مدى العصور القادمة.

الفصل السادس

مصادر

المعلومات البشرية

٦.١.٣ أهمية المصادر البشرية

منذ الأزل ومصادر المعلومات يشكلون العمود الفقري لأي عمل استخباري في السلم والحرب. وقد أدرك أهميتهم المفكرين والاستراتيجيين والقادة العسكريين والسياسيين، فأولوهم قدر من العناية والاهتمام واستعانوا بقدراتهم لتحقيق الإنجازات. يذكر المفكر الصيني «سون تزو» في كتابه «فن الحرب» الذي ظهر قبل 2000 سنة وهو أقدم كتاب عسكري ومرجعاً للاستراتيجيات والوسائل العسكرية - وقد أفرد أحد فصوله للحديث عن «توظيف الجواسيس» حيث يبدأه بجملة تقول « ما يجعل حكومة ذكية وجيش حكيم يتغلب على حكومة أخرى، ويحرز عليها انتصارات رائعة، إلا المعرفة المسبقة والتي يتم التحصل عليها من الناس ، الناس الذين لهم دراية بوضع العدو» ثم يستمر المفكر الصيني في مناقشة الأصناف الخمسة للجواسيس، والخمس وسائل المختلفة التي يستطيع القائد من خلالها معرفة قوة موقف ونويا العدو.¹

والعرب، كبقية شعوب العالم، أدرك الأوائل منهم أهمية مصادر المعلومات البشرية فاعتنوا بهم ووظفوهم وصنفوهم واستخدموهم لتوفير "المعرفة المسبقة ، Foreknowledge" ² وذلك لدرء المخاطر وديمومة البقاء.³ ويمكن تصنيف مصادر المعلومات البشرية، السرية منها أو العلنية، سواء في العصر الذي سبق ظهور الإسلام أو في العهد النبوي، وفقاً لطبيعة عملها أو المكان الذي شغلته أو القبيلة التي تنتمي إليها أو نوع القيادة التي ترتبط بها. وإبان العهد النبوي في «المدينة» كان من بين هذه المصادر «العيون» التي لها ارتباط مباشر بالقيادة النبوية، تتلقى منها الأوامر والتوجيهات، وترفع له ما يتوفر لديها من تقارير واستنتاجات. وقد تم استعراض ذلك في

الفصول السابقة بشيء من التفصيل. وبدراسة خارطة توزيع تلك المصادر، نجد أنها لم تكن تقتصر على موقع جغرافي معين أو قبيلة بحد ذاتها، بل إنها كانت منتشرة لتغطي معظم شبه الجزيرة العربية وما حولها. ورغم ورود العديد من الأسماء التي تبين ارتباطها الوثيق بهذا العمل إلا أن الكثير منها ظل مجهول الاسم والانتماء، وبقي في كنف الكتمان الشديد، فلم يشر له من بعيد أو من قريب، ذلك أن الكتمان والسرية كانت ولا تزال الصبغة الدامغة للعمل السري. أما المصادر التي ورد ذكرها في الأدبيات العربية، فنجد أنها كانت موزعة في تشكيلتها والتي تشبه الخلايا الصغيرة العدد يربطها دافع العقيدة الدينية أو الأحلاف القبلية، أو على شكل عناصر منفردة أو مزروعة في مواقع مستهدفه.

على أن العناصر الرسمية العلنية لم تكن من ناحية الأهمية الأمنية تقل أهمية عن تلك العناصر السرية. فالسفراء والوفود والدعاة والتجار كانوا من أهم تلك المصادر البشرية التي توفر المعلومات الهامة والموثوق بها. والتراث العربي الإسلامي مليء بمثل هذه الممارسات والأنشطة الاستخبارية التي زودت مستخدميها بأهم المعلومات، ووفرت لهم أسس بناء القرار السليم. وقد نقلت لنا كتب التراث العربي روايات ومواقف مختلفة لتؤكد ممارساتهم لأنشطة كهذه، لا سيما ما دونته كتب التاريخ والسير، التي بينت أهمية الدور الذي اضطلعت به المصادر العلنية في القدرة على تجنيد الأتباع، ونقل الرسائل السرية، وتمرير المعلومات، واستخلاصها، واستغلال المنشقين لتحقيق الأهداف الاستخبارية المرسومة. وسنحاول فيما يلي التعرف على أبرز سمات التقسيمات الإدارية أو بواكير «الهيكل التنظيمي» العام للعمل الاستخباري الإسلامي في أوائل نشأته.

2.6: العناصر الرسمية في المدينة

يقصد بها هنا العناصر الرسمية التي كانت تعمل تحت إشراف وتوجيه مباشر من رسول الله ﷺ في «المدينة»، وتعد هذه العناصر العاملة العمود الفقري لأنشطة الاستخبارات، لكونها تتعامل على نحو مباشر مع المعلومات المستجدة وتتلقى من القائد التوجيهات والتعليمات نحوها وتنفذها. وقد اهتم الرسول ﷺ بالأمن والاستخبارات وكان على علم بما يدور في «المدينة» وخارجها، وما السرايا التي كان يبعثها فتفاجئ من كانوا يعدون العدة لمهاجمة «المدينة» وتأخذهم على حين بغيته قبل أن ينطلقوا إلا أكبر دليل على ذلك. فعظم قدراته الاستخبارية لا تقدر، وكثرة انتشار مصادره في أنحاء الجزيرة واليمن ومصر والحبشة وبلاد الشام جعلته على علم تام بما يحاك نحو الإسلام والمسلمين. وبسبب الضرورات الأمنية فقد أبقى رسول الله ﷺ دائرة ضيقة جداً من أصحابه على اطلاع عن كذب بالمستجدات الأمنية وتطوراتها. وكان يوكل لبعض عناصر تلك الدائرة الضيقة مهمة البحث والتحري والتحقق عند وروده معلومات من مصادره السرية أو عند ورودها من مخبر ما للتأكد من صحتها، كما كان يبعث بالعناصر للتتبع والمراقبة أو لرصد تحركات الخصوم أو معرفة نواياهم.

1.2.6: عناصر استخبارات المقر الرئيسي بالمدينة

كثيراً ما كان الرسول ﷺ يشرف بنفسه على تقديم الطلائع في الغزوات ويرسل فرق الكشافة لاستطلاع مواقع المعارك وتقييم الجيوش الغازية قبل ملاقاتها، وذلك لتحليل معلوماتها واتخاذ القرارات اللازمة وفقاً لها. وكان رسول الله ﷺ كما أسلفنا يحيط بعض كبار الصحابة بشيء مما يردده من معلومات إلا أنه لا يطلب الشورى والرأي إلا في الأمور الحربية. ويمكن القول

أن الرسول ﷺ كان أول من عمل وطبق القاعدة الاستخبارية المعروفة في عصرنا هذا «الحاجة للمعرفة، الحاجة للوصول». فقد كان لا يطلع أحداً على المعلومات إلا من اقتضت الحاجة الأمنية والضرورة العملية لاطلاعه عليها. وكانت الدائرة المطلعة ضيقة جداً.

ويستدل من دراسة كتب المغازي والسير أن «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه- كان الأقرب والأكثر اطلاعاً على المعلومات وإبداء الرأي في كثير مما يعني العيون. فكان -رضي الله عنه- ملازماً رسول الله ﷺ وملمأً إلى حد كبير بأمور الأمن والاستخبارات على نحو خاص. ومما أنيط به الإشراف على الحرس عند الاستعداد لأهم المعارك وذلك في «فتح مكة» و«فتح خيبر».⁴ ولا بد من الإشارة إلى أن ما ورد من التفاصيل في كتب المغازي والسير ليؤكد كثرة اطلاعه ومتابعته لقضايا الأمن. كما كان لـ «علي بن أبي طالب» وكبار الصحابة رضي الله عنهم أدوار مهمة في تنفيذ العمليات الاستخبارية السرية.⁵ وكانت أسماء المنافقين موكلة لـ «حذيفة بن اليمان»⁶ والذي يشابه في مهامه أعمال ما قد يطلق عليه في عصرنا هذا (مكافحة الجاسوسية). أما قراءة الرسائل والمكاتبات السرية والمراسلات والترجمة فكان مسندة لـ «أبي بن كعب» و«زيد بن ثابت». فالأول كان مختصاً بالمكاتبات العربية⁷ والثاني بالأعجمية⁸.

لم تشر المصادر الأدبية التي اطلعنا عليها إلى ارتباط أي من العيون بغير رسول الله ﷺ إلا ما ندر. ومن ذلك أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه كان له من يزوده بالمعلومات الاستخبارية على نحو مباشر كما تبين ذلك حين أبلغ «ابن الخطاب» -رضي الله عنه- عن نقض «بني قريظة» للعهد وما ورد على لسانه نفسه بأنه كان له صاحب من عوالي «المدينة» يأتيه بالخبر.⁹ أما عناصر العمليات المرتبطين برسول الله ﷺ مباشرة، والذين كلفوا

بعمليات سرية أو باستطلاع أو تأكيد معلومات أو تأثير على اتخاذ قرار أو رصد ومراقبة فكان منهم: «الزبير بن العوام» و«عاصم بن ثابت الأنصاري» و«جابر بن عبد الله» و«أبو عبيدة بن الجراح» و«سعد بن أبي وقاص» و«طلحة بن عبد الله» و«عمار بن ياسر» و«عبد الله بن أبي بكر» و«بسبس بن الزغباء» و«عدي بن الزغباء» و«سعيد بن زيد» و«بسر بن سفيان الخزاعي» و«عبد الله بن أبي حدر الأسلمي» و«طلحة بن عبد الله» و«خبیب بن هدي الأنصاري» و«جبلۃ بن عامر البلوي» و«غالب بن عبد الله الليثي» و«عمر بن أمية» و«حسيل بن نويرة الأشجعي» و«مؤنس بن فضالة» و«أنس بن فضالة» و«عبد الله بن جحش» و«عبد الله بن مسعود».

2.2.6: السفراء والدعاة وعمال الزكاة

كان السفراء والدعاة وعمال الصدقات منذ قدم الزمان من أهم المصادر البشرية التي تشكل المعلومات الهامة الموثوق بها. ويوفر الغطاء الرسمي الذي تعمل تحته هذه الفئة فرصاً مميزة للوصول إلى أدق المعلومات وأهمها دون إثارة الريبة والشك في البيئة التي يعملون فيها. وتتميز معلومات السفراء والدعاة عن الدول التي يبعثون إليها أو يعبرون من خلالها أثناء مزاولتهم لمهامهم بقربها من الواقع. وبالرغم من القيود التي عادة ما تفرض عليهم وتحد من حركتهم، إلا أنهم غالباً ما يتمكنون من تحاشيها والإفلات منها، ليحصلوا على معلومات تعنى بالجوانب العامة للدولة كالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والعسكرية. ومن الطبيعي أن وجودهم في تلك الدول يوفر لهم فرصاً واسعة للاختلاط بالعامّة والوصول أحياناً لمن لهم دراية مباشرة بما يحدث خلف الكواليس وفي دهاليز السياسة وذلك ممن هم على اطلاع تام من عليّة القوم وأصحاب القرار. أن فرصاً كهذه تتيح لهم الوقوف على كم لا يستهان به من المعلومات العميقة التي تعينهم على فهم الواقع الحقيقي الذي يعيشه ذلك المجتمع ونقاط ضعفه وقوته.

وليس الدعاة وعمال الزكاة أقل شأنًا في تلك المهام من زملائهم السفراء بل إن إيجابية غطاء الدعاة وعمال الزكاة أكثر فعالية، ذلك أن هؤلاء يستطيعون التنقل بين مكونات المجتمع وشرائحه المختلفة، والتعرف على المؤثرين فيه، وأصحاب النفوذ، والقادرين على الوصول لمتخذي القرار وبناء الروابط وعقد الصلات معهم، التي عادة ما تكون نتائجها إيجابية خاصة عند الحاجة لها. ومن مهامهم أيضًا رصد ما قد يكون مخالف للعقيدة بين القبائل التي يمرون بها، ومن أمثال ذلك ما قام به عامل الزكاة على قبائل «بني مالك» «سنان بن أبي سنان» عندما كتب لرسول الله ﷺ عن ادعاء «طليحة الأسدي» النبوة.¹⁰ لقد تميز العهد النبوي في «المدينة» بكثرة بعث عمال الصدقات والدعاة والسفراء إلى أنحاء شتى لأغراض عده منها جلب الزكاة أو تفقيه الناس في الدين وإرسال كتب التبليغ والدعوة إلى الدين الإسلامي.¹¹

كان أول سفير في الإسلام بعثه رسول الله ﷺ إلى يثرب هو «مصعب ابن عمير»¹² رضي الله عنه وكان ذلك بعد أن تمت بيعة العقبة الأولى وانتهاء موسم الحج. وكانت مهمته تتمحور حول تثقيف المسلمين بأمور الدين، والقيام بنشر الإسلام بين أهل يثرب.¹³ يصف «المباركفوري» في كتابه «الرحيق المختوم» كيف استطاع ذلك السفير المحنك أن يكسب إسلام «سعد بن معاذ» سيد الأوس وكافة قبيلته، فيقول:

"من أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن «أسعد بن زرارة» خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها «بئر مرق»، واجتمع إليهما رجال من المسلمين و«سعد بن معاذ» و«أسيد بن حنير» سيدا قومهما من «بني عبد الأشهل» يومئذ على الشرك فلما سمعا بذلك

قال «سعد» لـ «أسيد»: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانهما عن أن يأتيا دارينا،.... فأخذ «أسيد» حربته وأقبل إليهما، فلما رآه «أسعد» قال لـ «مصعب»: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال «مصعب»: إن يجلس أكلمه. وجاء «أسيد» فوقف عليهما متشتماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له «مصعب»: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه «مصعب» بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن «سعد بن معاذ» ثم أخذ حربته وانصرف إلى «سعد» في قومه، وهم جلوس في ناديهم. فقال «سعد»: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف «أسيد» على النادي قال له «سعد»: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.... فقام «سعد» مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لـ «أسعد بن زرارة»: والله يا «أبا أمامة»، لولا ما بيني وبينك

من القرابة ما رُمّت هذا منى، تغشانا في دارنا بما نكره؟
 فقال «مصعب» لـ «سعد بن معاذ»: أو تقعد فتسمع؟
 فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال:
 قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس. فعرض عليه الإسلام،
 وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن
 يتكلم، في إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟
 قالوا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم
 تصلى ركعتين. ففعل ذلك. ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى
 قومه، فلما رآوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي
 ذهب به. فلما وقف عليهم قال: يا «بنى عبد الأشهل»، كيف
 تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا
 نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى
 تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا
 مسلماً ومسلمة... وأقام «مصعب» في بيت «أسعد بن زرارة»
 يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار
 إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.¹⁴

ولما كانت المهمة الربانية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ تقتضي
 القضاء على الشرك ونشر الإسلام في العالم بأسره فقد توسع ﷺ في ابتعاث
 السفراء ليبشروا بالإسلام دون أن يخص قبائل أو أقواماً عن سواهم في
 الجزيرة العربية وخارجها. ومن أصحاب رسول الله ﷺ الذين ابتعثهم «خالد
 بن الوليد» رضي الله عنه الذي أرسله إلى أهل همدان ليدعوهم إلى الإسلام
 فمكث فيهم ستة أشهر فلم يجيبوه. فأعقبه بعد ذلك بـ «علي بن أبي طالب»
 رضي الله عنه فدعاهم للإسلام فأسلموا جميعاً.¹⁵ وقد أسلم كثير من القبائل
 على أيدي سفراء بعثهم رسول الله ﷺ لهذا الغرض.

ولم يكن الدور الذي يضطلع به السفير آنذاك يقتصر على العمل السياسي أو العسكري أو أنه كان بمثابة جسر أو همزة وصل بين القادة من خلال حمل الرسائل ونقل الهدايا أو التحذيرات والإبلاغ عن نوايا زعماء الدول التي يُعتمدون فيها، بل كان سفراء الدولة الإسلامية ينهضون بمهام وواجبات أخرى كثيرة. فالدعوة إلى اعتناق دين الإسلام وتمير الرسائل الشفوية التطمينية ورسائل أخرى سرية لفئة معينة من الأتباع والأعوان هي بعض ما كان يلقي على عاتقهم. فقد كان «عثمان بن عفان» رضي الله عنه من أوائل الرسل الذين بعثهم رسول الله ﷺ إلى قريش، وكان ذلك في صلح الحديبية حين بعثه وقال له «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بـ «مكة» مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بـ «مكة»، حتى لا يستخفي فيها أحد بالإيمان».¹⁶ وفي الجانب الآخر، كان سفراء النبي ﷺ يأتون له بالأخبار فيبلغونه كيف عوملوا من قبل من وفدوا إليه، فالاحتفاء بالسفير والاهتمام به دليل على ما يتمتع به قائد دولته من حظوة لدى الجهة المستضيفة ورغبتها في تطوير العلاقات بينهما. ففي كتاب لرسول الله ﷺ بعثه إلى حاكم البحرين «المنذر بن ساوي»، أوضح فيه له ثناء رسل نبي الله عليه قائلًا « وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً».¹⁷

وكان للدول والامبراطوريات الأجنبية نصيب من بعث السفراء الذين أوفدهم النبي ﷺ لدعوة زعماء تلك الدول والامبراطوريات إلى الإسلام. فبعث «دحية بن خليفة الكلبي»، إلى «قيصر» ملك الروم. وبعث «عبدالله بن حذافة السهمي» إلى «كسرى» ملك الفرس. وبعث «عمرو بن أمية الضمري» إلى «النجاشي» ملك الحبشة، وبعث «حاطب بن أبي بلتعة» إلى «المقوقس» ملك الإسكندرية.¹⁸ وبعث «عمرو بن العاص السهمي»، إلى «جيفر» و«عياد ابني الجلندي الأزديين» ملكي عمان، وبعث «سليط بن عمرو أحد بني عامر بن

لؤي» إلى «ثمامة بن أثال»، و«هوزة بن علي الحنفيين»، ملكي اليمامة. وبعث «العلاء بن الحضرمي» إلى «المنذر بن ساوى العبدي» ملك البحرين، وبعث «شجاع بن وهب الأسدي» إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك دولة الغساسنة في تخوم الشام، كما بعث «شجاع بن وهب» إلى «جبله بن الأيهم الغساني»، وبعث «المهاجر ابن أبي أمية المخزومي» إلى «الحارث بن عبد كلال الحميري» ملك اليمن.¹⁹

٦.٣.٣ شبكة المعلومات السرية

كان العيون وما زالوا - بصرف النظر عن مسمياتهم الحديثة - من أهم الموارد المعلوماتية البشرية السرية "Humint" التي يجب البحث عنها بدقة واستهدافها وتجنيدها، إن أراد الحاكم أو القائد تحقيق الاستقرار أو الظفر بأعدائه وتحقيق الانتصارات عليهم. ولم يغفل العرب دور العيون وأهميتهم منذ القدم، -وكما أوردنا فيما تقدم- فإن العيون كانت تؤدي دوراً عظيم الأهمية في توفير المعلومات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، مما مكن زعماء القبائل آنذاك من معرفة ما قد يحدث لقبائلهم وحساب النتائج مسبقاً واتخاذ القرارات المدروسة المناسبة لتحقيق الانتصارات على الخصوم فضلاً عن الاستفادة منها في النواحي الاقتصادية. أن توفر المعلومات الدقيقة في الظروف الصعبة لاسيما في أيام الحروب والغزوات، ترجح كفة المتحصل عليها عند قيامه باستغلالها وتوظيفها لصالحه وذلك من خلال اتخاذ القرارات المبنية على الحقائق وليس على أسس الظن والتخمين. فتحقيق النجاح المنشود من قبل أي قائد، يتطلب منه الاطلاع والاستنارة نحو ما يتخذه من قرارات بما يتوفر من معلومات ذات مصداقية ترده من مصادره البشرية المنتقاة بعناية. وكما أشرنا سابقاً فإن تلك المصادر الموثوقة زودت المسلمين الأوائل، إبان المرحلة السرية من الدعوة الإسلامية في «مكة» والتي اتصفت بالكتمان والسرية، بمعلومات

دقيقة، لاسيما في إطار الكشف عن مؤامرات ومكائد قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه.²⁰ لقد ساعد اعتناق العديد من قاطني «مكة» للدين الإسلامي في استمرار تدفق المعلومات الجارية عن كل ما يحدث في «مكة». ولقد شكل هؤلاء الرواد المسلمون وغيرهم من المصادر البشرية المختلفة رافداً معلوماتياً مهماً لدولة «المدينة»، مكنها من البقاء باستمرار على معرفة دائمة بتحركات الأعداء والخصوم والعلم بنواياهم مسبقاً، مما ساعد في إجهاض مخططاتهم والقضاء عليها بأقل الخسائر الممكنة.

1.3.6: المصادر السرية في مكة

كان عماد المصادر السرية لجهاز استخبارات «المدينة» أولئك العناصر الذين أسلموا ولم يستطيعوا الهجرة من «مكة» أو الذين أسلموا وأخفوا إسلامهم، أو فضّل رسول الله ﷺ بقاءهم في «مكة». وكان على رأس هذه المجموعة عم رسول الله ﷺ «العباس بن عبد المطلب» الذي لم يقتصر عمله على إفادة رسول الله ﷺ بالمعلومات الهامة والآنية فقط،²¹ بل كان عضواً مؤثراً في دار الندوة، المقر الرئيسي لاجتماعات كبار زعماء قريش، وكان بمثابة ما يمكن أن يطلق عليه في عصرنا هذا «وكيل تأثير». ليس لكونه فقط من «بنو هاشم» ذي المكانة الاجتماعية المتميزة، بل لكونه يمثل ثقلاً اقتصادياً في «قريش». كما هيأت له طبيعته المسالمة قبولاً لمشاركته زعماء «قريش» في الاجتماعات والتخطيط وإبداء المشورة بدار الندوة.

ويظهر أن هذه المواصفات قد أهلت عم الرسول ﷺ أيضاً ليؤثر في القرارات الصادرة عن دار الندوة ضد «دولة المدينة». فقد كان «العباس» ذا حصافة فائقة وشخصية اجتماعية مرموقة مكنته من إخفاء علاقته بالنبي ﷺ ومن صرف الانتباه إلى ميوله تجاه عترته. وكان قد أسلم وأخفى إسلامه وقد أبلغ رسول الله ﷺ عن اعتزامه الهجرة إلا أنه رد عليه: «إن مقامك مجاهد

حسن»²². وقد تبين أهمية دور «العباس بن عبد المطلب» ليس فقط كوكيل تأثير على قرارات «قريش» في دار الندوة وغيرها، بل أيضًا كمصدر معلومات نافذ لرسول الله ﷺ عندما قام في أحلك الظروف بدور «الإنذار المبكر» عن تحرك «قريش» لغزو المدينة مما نتج عنه حقن دماء المسلمين، وإلحاق الذل والهزيمة بـ«قريش». وتمثل ذلك في بعثه «حامل رسائل» بمعلومات لرسول الله ﷺ في «المدينة» كانت عاجلة جداً مع شخص غفاري اشترط عليه أن يوصلها في غضون ثلاثة أيام، وكان مفادها اعتزام قريش غزو «المدينة»،²³ التي تعرف في «كتب المغازي» والسير بـ«غزوة الخندق».

ولم يكن «أبو الفضل» كما كان يلقيه رسول الله ﷺ الوحيد الذي أسلم سراً، فقد أسلم أيضًا «نعيم بن مسعود الأشجعي»²⁴ وكنتم إسلامه، واستطاع بذلك أن يلعب هو أيضًا دورًا مؤثرًا في «غزوة الخندق» عندما أدار مكيمة محكمة تمكن من خلالها من إحداث الواقعة بين يهود «بنو النضير» و«قريش» و«غطفان» مما جعله «عميل تأثير» بامتياز. فقد استطاع أن يؤثر في قرارات الأعداء، وأسهم ببراعة بالتلاعب بهم وتغليب كفة المسلمين عليهم. كما ناقشنا في حالة أخرى استخدام «سليط بن النعمان الأسلمي» لمهاراته في الاستدراج مقتنصًا معلومات تهم «استخبارات المدينة» وذلك عند منادمته لبعض من رجال «غطفان» و«يهود المدينة» حلفاء قريش²⁵.

ولم يقتصر هذا الدور الاستخباري على الرجال فقط فكان من النساء ممن أسهمن في توفير المعلومات الاستخبارية كـ«أم شريك» الدوسية²⁶ و«أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط»²⁷. لقد تمكنت هذه الفئة من المصادر، من التحرك في أنحاء «مكة» بحرية وأمان، وذلك لعدم معرفة «قريش» باعتناقهم لدين الإسلام، مما ساهم في تمرير المعلومات المهمة لـ«استخبارات المدينة» في الوقت المناسب.

وتضم هذه الفئة من المصادر أولئك المستضعفين الذين بقوا في «مكة» بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى «المدينة» وهم الذين شاع إسلامهم لكنهم لم يجدوا طريقاً للهجرة والحق برسول الله ﷺ وصحبه حيث قال تعالى عنهم: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾²⁸ وكانت قريش تكيل لهم أصناف العذاب والتنكيل، لا شيء إلا لأنهم نبذوا دينهم الوثني ولحقوا بركب المسلمين. ومن هؤلاء «عبدالله بن أبي بكر الصديق» و«عامر بن أبي فهيرة» و«صهيب الرومي» و«سهل بن بيضاء» و«سلمة بن هشام» و«خباب بن الأثر» و«الوليد بن الوليد المخزومي» و«عمار بن ياسر» و«عياش بن أبي ربيعة المخزومي» و«أبو جندل بن سهيل السهمي»²⁹ و«عبدالله بن نعيم النحام العدوي». ومما زاد الأمر سوءاً على بعض من هؤلاء، أنهم لا يملكون حريتهم ويقوا رهن العبودية المفروضة عليهم من قريش. وبالرغم من ذلك استطاعوا أن يتواصلوا خفية مع «المدينة». وقد مكنتهم ظروف البقاء في «مكة»، من معرفة كثير من المعلومات عن مخططات قريش، كأوقات تحركات قوافل الشتاء والصيف والتي كانت على جانب كبير من الأهمية لـ «استخبارات المدينة».

ويشير «ابن سعد» في كتابه «الطبقات الكبرى» أن «غزوة ذي العشيرة» التي خرج فيها رسول الله ﷺ مع مائة وخمسين رجلاً من أصحابه "ليعترض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها من «مكة»³⁰. لقد كان لمعلومات مصادر «مكة» بالغ الأثر في فرض الحصار الاقتصادي على «مكة» الذي أنهك قريش وركع قادتها فيما بعد. فقد تمكنت تلك المصادر من رصد زيارات سادة اليهود الذين يقدمون إلى «مكة» ليؤلبوا زعماء «قريش» ويحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ في «المدينة». ولم يقتصر دعم هذا النفر المؤمن للمسلمين على توفير المعلومات السرية فحسب، بل قدموا الدعم اللوجستي لبعض العمليات السرية التي نفذها

عناصر المسلمون في «مكة»³¹. لقد ساهمت طبيعة أعمال العبودية التي امتتها البعض منهم في منازل كبار قادة «قريش» من الوصول إلى أدق المعلومات عما يحاك ضد المسلمين في «المدينة». وهذا ما يفسر بوضوح بقاء «استخبارات المدينة» على علم بتحركات قوافل «قريش»، وكل شاردة ووارده تحدث في ربوع «مكة»³².

2.3.6: مصادر من القبائل المجاورة لمكة والمدينة

قام رسول الله ﷺ بإبرام «موادعة» بينه وبين القبائل التي تقع على الطرق المؤدية من «مكة» إلى «المدينة»، ومنها خزاعه وجهينة وأسلم. من هذه الأحلاف ما بقي سراً ومنه ما تم توثيقه وبان للعلن. وقد شكلت العيون السرية التابعة لرسول الله ﷺ بين هذه القبائل رافداً معلوماتياً مهماً. ومن هذه القبائل:

1.2.3.6: قبيلة خزاعة

قبيلة خزاعة هي إحدى القبائل العربية المنتشرة على الدرب المؤدي لـ«يثرب»³³ وكان لها حلف قديم مع «بنو هاشم»³⁴ بقي واستمر مع ظهور دعوة رسول الله ﷺ فشكّل رافداً استخبارياً مهماً. وكان الحلف المبرم مع «عبد المطلب بن هاشم» ينص على نصرة «عبد المطلب» وأبنائه، وقد أورد نصه «البلاذري» في كتابه «أنساب الأشراف»:

"باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه «عبد المطلب بن هاشم»، ورجالات «عمرو بن ربيعة» من «خزاعة» ومن معهم من «أسلم» و«مالك ابني أقصى بن حارثة»، تحالفوا على التناصر والمؤاساة ما بلّ بحر صوفة، حلفاً جامعاً غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب. وتعاهدوا وتعاهدوا أوكد عهد وأوثق عقد، لا يُنقض ولا يُنكث، ما أشرقت شمس على ثبير، وحن



أهم القبائل العربية عند ظهور الإسلام

بفلاة بعير، وما قام الأخشبان، وعمّر بـ «مكة» إنسان، حلف
أبد لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شداً، وظلام الليل
سداً. وإن «عبد المطلب» وولده ومن معهم دون سائر «بني
النضر بن كنانة»، ورجال خزاعة، متكافئون متضافرون
متعاونون. فعلى «عبد المطلب» النصرة لهم ممن تابعه على
كل طالب وتر، في بر أو بحر أو سهل أو وعر. وعلى خزاعة
النصرة لـ «عبد المطلب» وولده ومن معهم على جميع
العرب، في شرق أو غرب، أو حزن أو سهب. وجعلوا الله على
ذلك كفيلاً، وكفى به حميلاً. هذا حلف «عبد المطلب بن
هاشم» لـ «خزاعة»، إذ قدم عليه سراتهم وأهل الرأي، غائبهم
مقر بما قضى عليهم شاهدهم، أن بيننا وبينك عهد الله
وعقوده ما لا ينسى أبداً ولا يأتي بلداً، اليد واحدة، والنصر
واحد ما أشرف ثبير وثبت حراء وما بل بحر صوفه، لا
يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجدداً أبداً أبد الدهر سرمد.³⁵

ومما يظهر أهمية وقيمة المعلومات التي وردت من مصادر تنتسب لقبيلة
«خزاعة»، فأحد زعمائها «عمرو بن سالم الخزاعي» قدم معلومات هامه لرسول
الله ﷺ عن توجه جيش قريش لغزو «المدينة». ³⁶ كما قام آخر من الخزاعيين
وهو «معبد الخزاعي» بدور مهم في حمراء الأسد استطاع ان يجعل «أبا
سفيان» يتخذ قراراً بالعودة إلى «مكة». ³⁷ كما قام بنفس الدور من خلال
التخذيّل والفتّ في ع ضد «أبي سفيان» لمنع حدوث معركة «بدر الموعد»، ³⁸
المعركة التي هدد «أبو سفيان» بشنها انتقاماً لمن قتل في معركة «بدر
الكبرى». "ودعا رسول الله ﷺ «بسر بن سفيان» من «ذي الحليفة» فأرسله
عيناً له، إن «قريشاً» قد بلغها أنني أريد العمرة فخير لي خبرهم ثم القني بما
يكون منهم" ³⁹ كما كان دليله إلى «تبوك» «علقمة بن الفغواء الخزاعي». ⁴⁰

2.2.3.6: قبيلة جهينة

كانت «قبيلة جهينة» تقطن مناطق شاسعة على امتداد الطريق البري الممتد من «المدينة» إلى «مكة» بما في ذلك المناطق الساحلية، وقد مكنتها هذه الميزة المهمة من النهوض بدور استراتيجي مهم فيما يتصل بأعمال الرصد الاستخباري والتعاون السري ضد القرشيين. وتشير كتب التاريخ إلى أن أول تعاون لها مع استخبارات «المدينة» كان في أحداث سرية «حمزة بن عبد المطلب» حين كانت تستعد لمهاجمة مجموعة الحماية الخاصة بقافلة «قريش» التجارية على طريق الساحل إلى «مكة». فقد تدخل سيد قبيلة جهينة «مجدي بن عمرو» بروية وحكمة وحال دون وقوع منازلة بين أفراد السرية ورجال الحماية. وقد كان لهذا الموقف الأثر الكبير لدى رسول الله ﷺ الذي أثني على القبيلة وعلى زعيمها «مجدي بن عمرو» عند قدوم وفد منها إلى «المدينة».⁴¹

وضمن أحداث معركة بدر الكبرى كان لخمسـة من قبائل جهينة دور في القيام بالتحري ورصد المعلومات عن قافلة «أبو سفيان» التجارية العائدة من الشام وأولئك الرجال هم: «كشد الجهني» و«بسبس بن عمرو الجهني» و«عدي بن أبي الزغباء الجهني» و«ابن الأريقط الجهني».⁴² ومن المهم الإشارة إلى أن «مجدي الجهني» الذي كان قد منع الاقتتال مع سرية حمزة أدلى لـ «أبي سفيان» بمعلومات عن مكان مناخ بعيري عيني رسول الله ﷺ، مما أدى إلى تبديل طريق قافلة قريش التجارية ونجاتها. ويمكن وصفه في هذه الحالة بأنه كان «عميلاً مزدوجاً» يعمل لصالح المسلمين وعدوهم «أبي سفيان»، أو لربما رضح في هذه الحالة لتهديد «أبي سفيان» إذا كان خاطبه قائلاً «لئن كتمتـنا عدونا لا يصلحك رجل من قريش ما بل بحر صوفه»⁴³ ففضل الإدلاء بما لديه.

3.2.3.6: قبيلة ضمرة

تقع مضارب قبيلة ضمرة على الطريق الجنوبي بين «مكة» و«المدينة» وهي أقرب إلى «المدينة» من «مكة» وقد توصل النبي ﷺ إلى اتفاق مع زعيم هذه القبيلة «مخشي بن عمرو».⁴⁴ وقد تم توثيق هذا الاتفاق كتابياً وورد في النص:

(هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بل بحر صوفة وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه).⁴⁵

وبهذا الاتفاق المفتوح الواسع فقد ضمن النبي ﷺ نصرته هذه القبيلة حين يتعرض المسلمون إلى أي خطر وبأي شكل من الأشكال، وضمن الاتفاق أيضاً، ولو أن ذلك لم يرد في النص حرفياً، الإبلاغ عن أي عمل تجسسي ضد المسلمين أيضاً. ويتجلى التزام «بني ضمرة» بذلك عندما أبلغ «سفيان الضمري» رسول الله ﷺ عن موقع قريش قبيل غزوة بدر.⁴⁶ وإلى جانب «أبي سفيان الضمري» فقد شارك «عمرو بن أمية الضمري» في العديد من العمليات السرية الاستخبارية ثم أوكلت إليه فيما بعد مهمة المبعوث الخاص لرسول الله ﷺ إلى النجاشي في الحبشة.⁴⁷

4.2.3.6: قبيلة أسلم

تقع مضارب قبيلة أسلم على الطريق التجاري بين «مكة» و«المدينة» وقد بادرت منذ أوائل الهجرة بالتعاون المعلوماتي مع رسول الله ﷺ. ولدى مرور النبي محمد ﷺ على القبيلة حين هاجر للمدينة ولما دعاهم النبي ﷺ للإسلام استجاب له عدد منهم فيما أتمت بقية القبيلة إسلامها في السنة الثانية

للهجرة.⁴⁸ ومن أشهر من ورد ذكره من هذه القبيلة هو «أبو تميم الأسلمي»، عندما بعث غلامه «مسعود بن هنيذة» إلى رسول الله ﷺ عشية معركة أحد ليخبره عن قدوم جيش قريش لغزو المسلمين بـ «المدينة» مبيناً العتاد والعدة والخيول والسلاح.⁴⁹ كما شارك عدد من بني أسلم في العمل الاستخباري وأدوا دوراً هاماً في حمراء الأسد حيث تتبعوا الجيش القرشي المنصرف إلى «مكة» وواصلوا مراقبته للتأكد من وجهته والتثبت من أن ذلك الانسحاب كان حقيقياً ولم يكن من باب الالتفاف أو الخديعة. وقد شارك آخرون منهم في جلب المعلومات لرسول الله ﷺ مثل «ناحية الأسلمي» في صلح الحديبية و«بريدة بن الحبيب» في غزوة بني المصطلق⁵⁰، و«أبي حذرد الأسلمي» في غزوة حنين⁵¹ وسرية الغابة⁵². كما كان «سلمة ابن الأكوع» في عملية سرية ضمن سرية «أبي بكر الصديق» إلى وادي القرى وأسهم أيضاً في غزوة ذي قرد.⁵³

5.2.3.6: قبيلة غطفان

تسكن قبيلة «غطفان» مضارب متفرقة تقع شمال يثرب، ومنها ما هو قرب «خيبر»، وقد أدت عيونها الاستخبارية أدواراً ذات أهمية حيوية لنواة دولة الإسلام بـ «المدينة». ولا تكمن أهمية القبيلة في كونها تشرف على الطريق المؤدي للمدينة من بلاد الشام فحسب بل لقربها وتحالفها مع «يهود خيبر» الذين كانوا يشكلون خطراً على الإسلام لكثرة نقضهم للعهود المبرمة مع المسلمين.⁵⁴ ومن أشهر من تعامل مع رسول الله ﷺ من «غطفان» «نعيم بن مسعود» الذي كان قد قدم «المدينة» قبل إسلامه فنزل على «كنانة ابن أبي الحقيق» أحد زعماء «يهود بني النضير» فشرب معهم الخمر، وسامرهم وعلم منهم "بخروج صفوان بن أمية في عيره وما معهم من الأموال، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره".⁵⁵ وقد لعب دوراً مؤثراً قبل إسلامه في منع وقوع «غزوة بدر الآخرة» من خلال تخذيل «أبي سفيان» وترهيبه من المسلمين

عندما قدم إلى «مكة» وأخبر «أبا سفيان» بقوله: "ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع، وقد تجلب إليه حلفاء «الأوس» من «بلي وجهينة» وغيرهم، فتركت «المدينة» أمس وهي كالرمانة.⁵⁶ وكان قد استخدمه «أبو سفيان» في ترهيب المسلمين من خلال أغرائه بالمال فعاد إلى «المدينة» حاملاً أخباراً تفتّ في عضد المسلمين قائلاً:

"خرجت معتمراً إلى «مكة». فقالوا: لك علمٌ بـ «أبي سفيان»؟ قال: نعم، تركت «أبا سفيان» قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، فهو جاء فيما لا قبل لكم به، فأقيموا ولا تخرجوا فإنهم قد أتوكم في داركم وقراركم، فلن يفلت منكم إلا الشريد، وقتلت سراتكم وأصاب محمداً في نفسه ما أصابه من الجراح. فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض، بئس الرأي رأيتم لأنفسكم وهو موسم يجتمع فيه الناس والله ما أرى أن يفلت منكم أحد! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول ﷺ حتى رعبهم وكره إليهم الخروج، حتى نطقوا بتصديق قول «نعيم»، أو من نطق منهم.⁵⁷

وفي معركة الخندق وقبل أن يشيع إسلام «نعيم بن مسعود الأشجعي» فقد أدى هذا الرجل دوراً استخبارياً عظيماً تمثل في التخاذيل بين الأحزاب. ولم يكن «نعيم بن مسعود هو الأشجعي» الوحيد الذي كان يعمل مع استخبارات «المدينة» فهناك آخرون مثل «خارجة بن حسيل الأشجعي» الذي نقل معلومات عن محاولة قائد «يهود خيبر» «أسير بن زرام» إبرام تحالف مع غطفان ضد رسول الله ﷺ.⁵⁸

وهناك أشجعي آخر يدعى «حسيل بن نويرة» الذي عمل دليلاً لرسول

الله ﷺ إلى خيبر حيث زوده بمعلومات حساسة عند قدومه إليه قائلاً: "تركت جمعاً من «غطفان» بالجانب، قد بعث إليهم «عيننة» يقول لهم: إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم. فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعاً، وهم يريدونك أو بعض أطرافك"⁵⁹ وقد أشار «الواقدي» إلى أنه بعد أن قتلت «بنو قريظة» ذهب «حسيل» إلى «يهود بني النضير» و«يهود خيبر» جالسين في ناديهم فأبلغهم بمقتل «بني قريظة» وزودهم بكامل تفاصيل ما حدث لهم. ويبدو من الرواية أن «حسيلاً» كان يعمل إما عميلاً مزدوجاً أو أنه كان بائع معلومات لمن يتلقفها منه. أما «حسيل بن خازجة» و«عبد الله بن نعيم» فقد كانا دليلين لرسول الله ﷺ.⁶⁰

6.2.3.6: مصادر من القبائل اليهودية:

(بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير).

استطاع النبي ﷺ أن يخترق المجتمع اليهودي مباشرة من خلال تجنيد يهود منهم، أو عبر عملاء آخرين يثق اليهود بهم، أو بواسطة من كانت لهم رابط قري أو صلة أرحام معهم. وقد لا نجد تفاصيل كل هذه العمليات أو نتعرف على أسماء العملاء من داخل المجتمع اليهودي نظراً لخطورة الأمر وحساسيته ولأن هؤلاء العملاء كانوا تحت غطاء من السرية والكتمان الشديدين. إلا أن هناك بعض الإشارات الأدبية التي تفيد بأن عملاء قد أبلغوا رسول الله ﷺ عن مؤامرات اليهود ضده دون الإتيان بأسمائهم. ففي «غزوة الخندق» نجد أن أحد مصادر رسول الله ﷺ والذي لم يذكر اسمه قد أبلغه عن قدوم «حيي بن أخطب»⁶¹ إلى «يهود بني قريظة» يسألهم نقض العهد الذي أبرموه مع رسول الله ﷺ ويطلب أن "يكونوا معهم عليه فامتنعوا من ذلك ثم أجابوا إليه وبلغ ذلك النبي ﷺ".⁶² وهناك امرأة من «بني النضير» لم يذكر اسمها أيضاً قد مررت بمعلومات غاية في الخطورة إلى رسول الله ﷺ عن طريق قريب لها أبلغها أن توصل رسالة إلى رسول الله ﷺ مفادها

اعتزام «يهود بنو النضير» الغدر برسول الله ﷺ من خلال اغتياله عند قدومه إليهم.⁶³ كما قامت امرأة من «بنو النضير» بالدلالة على مكان منام «أبي رافع اليهودي» الذي نفذت ضده سرية من مسلمي الخزرج عملية استخبارية سرية تخلصت فيها منه.⁶⁴ كما علم رسول الله ﷺ من مصادره أن «أبا الحقيق» كان قد دس مسكاً فيه مال كثير وحلي لـ «حيي بن أخطب» عندما أجلوا «بنو النضير» وقد أودعه لدى «كنانة الربيع».⁶⁵

3.3.6: مصادر من التجار والمتجولين

يعد التجار والمتجولون من المصادر الثرية التي تمتاز بنقل المعلومات الحديثة عن الجهات التي يقدمون منها. فكما كان للمسلمين مصادر من أنحاء مختلفة تنقل لهم الأخبار، كان أعداء الإسلام في الشام يتلقفون من يفد إليهم من تجار أو رحالة باحثين عن أخبار دولة الإسلام بـ «المدينة». فعندما قدم «أبو سفيان» إلى الشام في رحلة الصيف لغرض التجارة، وكان قد ورد «هرقل» عظيم الروم معلومات وفيرة عن ظهور نبي في «مكة» فوقع الرعب في قلبه، فما كان منه إلا أن تحين فرصة قدوم تجار قريش فاستدعاهم ليستجلي حقيقة ما لديهم من معلومات، وكان من بين الذين استدعوا «أبو سفيان»، وفي ذلك يقول «المباركفوري» في «الرحيق المكتوم»:

"روي البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، كانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآء فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال «أبو سفيان»: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن

هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يآثروا على كذباً لكذبت عليه. ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آباءه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها قال: ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: (اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم)، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.⁶⁶

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آباءه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: فلو كان من آباءه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع

الرسول. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسول لا تغدر. وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً وبينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام.⁶⁷

لم يكن تجار قريش الوحيدين في نقل المعلومات فقد كانت التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية وجنوبها مركزاً للتجارة والتبادل التجاري وكانت معيشة سكان أهل «مكة» كغيرهم تعتمد في المقام الأول على التجارة سواء من الحبشة في الشتاء أو إلى بلاد الشام في الصيف مروراً بيثرب. وقد ازدهرت هذه التجارة حتى أصبح أهل «مكة» متمرسين بالتجارة يقدم إليهم من جميع أرجاء الجزيرة لغرض العمرة والاتجار معهم. كان من بين هذه الوفود التجارية القادمة إليهم الأنباط الذين كانوا يمتنون التجارة والتنقل من أجلها في بلاد العرب.⁶⁸ ومن الطبيعي أن يكون من بين هؤلاء من كان يرصد ويتسقط الأخبار ويحملها عند عودته إلى «المقوقس» عظيم مصر

«جريج بن منى». ويبدو أن رسول الله ﷺ كان محط اهتمام «المقوقس»، فكان يتابع أخبار النبي ﷺ في «مكة» وما لقيه من قومه، وما شنته «قريش» ضده من حملة تضليل إعلامية خبيثة بهدف النيل منه ﷺ، وإيذائه وذمه، من خلال اتهامه تارة بالجنون وأخرى بالسحر والكهانة. ويتضح مدى علم «المقوقس» وتواتر المعلومات لديه عن حقيقة دعوة رسول الله ﷺ في ثنانيا رده على سفير رسول الله ﷺ «حاطب بن أبي بلتعة»، عندما قدم عليه بكتاب منه حيث قال:

"إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.⁶⁹"

وقد أدى التجار دوراً كبيراً في نشر دين الإسلام وإقناع الكثير من المشركين باعتناق الدين الجديد وهو ما أسهم وعلى نحو متصاعد في ازدياد عدد من نبذوا الشرك والكفر واتخذوا من الإسلام ديناً. فهذا «منتقد بن حيان» من «عبد القيس» الذي كان يتردد على «المدينة» لأغراض التجارة وعندما علم بالإسلام وأسلم، عاد بكتاب من رسول الله ﷺ إلى قومه فأسلموا. وهناك تجار وسفراء آخرون كثر بعثهم رسول الله ﷺ إلى جميع الأرجاء⁷⁰ لينشروا الدين الإسلامي.⁷¹

وكان للأنباط في شمال الحجاز شان كبير في التجارة مع «المدينة» آنذاك. فكانوا يفدون للاتجار «بالدرمك والزيت.... وكانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم»⁷². وقد بلغ المسلمين عن طريقهم أن "هرقل قد هيا جيشاً عرمرماً قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.⁷³"

وكان الأنباط بدورهم يتسقطون الأخبار عن المسلمين وأحوالهم وتحركاتهم، وينقلون ما يردهم من معلومات إلى هرقل واستخباراته، ويذكر «كعب بن مالك»، وهو ممن غضب عليهم رسول الله ﷺ لتخلفهم عن غزوة تبوك، قائلاً: "فبينما أنا أمشي بالسوق فإذا نبطي من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالسوق، يسأل عني يقول: من يدلي علي «كعب بن مالك»؟ فجعل الناس يشيرون له، فدفعت إلى كتاباً من «الحارث بن أبي شمر» ملك غسان أو قال من «جبل بن الأيهم» في سرقة من حرير، فإذا في كتابه: أما بعد، فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك.⁷⁴

ويبين المؤرخ العسكري «محمود شيت خطاب» في كتابه (الرسول القائد) مدى دراية استخبارات الروم وحلفائهم من العرب «الغساسنة» بتحركات المسلمين، ونواياهم، حيث كانوا من خلال علاقاتهم بالتجار «الأنباط» الذين كانوا يجوبون ديار المسلمين على اطلاع شبه تام بما يجري في ديارهم. ولولا تلك العيون المنتشرة هناك لما تناهى إليهم علم غضب رسول الله ﷺ على أحد صحابته «كعب بن مالك»، وما كانوا ليبعثوا له برسالة يؤلبونه فيها على رسول الله ﷺ ويعرضون عليه الانشقاق، والعمل لصالحهم. وهذا ما يشير إلى رصدتهم لمسألة تفصيلية كتلك مما يدل على قدرة مخابراتهم على الوصول إلى المعلومات التي لها تأثير على الموقف العسكري آنذاك.⁷⁵

4.3.6: الأسرع والسجاء

يشكل الأسرى والمقبوض عليهم قبل أو أثناء الحملات العسكرية أو الغزوات أو نتيجة الإستسلام عند الهزيمة في المعركة، مصدراً معلوماتياً مهماً. وغالباً ما يكون التركيز فيه على استجلاء معلومات عن مواقع العدو

ونواياه والوضع العسكري له. ويأتي القبض على هؤلاء أما نتيجة لتقدم الرواد والطلائع أمام الحملة العسكرية أو بالصدفة أو محصلة للجهد الاستخباري والأمني الذي يبذل لهذا الغرض بعينه. وعلى الرغم من أهمية الأسرى والسجناء باعتبارهم من الموارد المعلوماتية المباشرة إلا أن هناك عدداً من المشاكل التي تصاحب مثل هذا النوع من المصادر، كتعمد اختلاق المعلومات «الكاذبة» والتخيل والخداع والتضليل المتعمد أو مجرد الإدلاء بمعلومات غير دقيقة نتيجة ضعف مستوى اطلاع المقبوض عليه أو نقص في كفاءة المستجوب وفشل أساليب الاستجواب المطبقة.⁷⁶

وكما هي الحال عند الأقوام التي سبقت العرب الأوائل عبر العصور السحيقة، تنتهي الغزوات في معظم الأحيان بأسر بعض المقاتلين وغيرهم من رجال العدو بل إن بعضاً من العيون أو الربايا والطلائع يتم القبض عليهم حتى قبل بدء الغزوات أو الأعمال الحربية. وكان من الدارج أن يقوم المنتصر بسبي النساء والذراري ويغنم الأموال والممتلكات. وما يهمنا في ذلك هو المعلومات التي يملكها المقبوض عليهم، ومساهمتهم في التعريف بقوة الخصم ومواطن ضعفه ومقاصده ونواياه.

وقد أوضحنا في الفصل الأول من الكتاب إسهامات العيون والطلائع والربايا والرواد والأدلاء الذين يتم القبض عليهم في الغزوات قبل فجر الإسلام.⁷⁷ وعلى السواء فإن المسلمين الأوائل تمكنوا أيضاً وأثناء حملاتهم العسكرية من القبض على من أدلوا لهم بمعلومات بالغة الأهمية، بنوا عليها تكتيكهم العسكري واطلعوا منهم على وضع الروح المعنوية لسرايا الخصم وعساكره. ومن ذلك ما قامت به سرية «علي بن أبي طالب» قبل «معركة بدر» عندما قامت بأسر ثلاثة من الغلمان -يسار وأسلم وأبو رافع- وهم سقاة ماء لجيش قريش. ورغم أن الاستجواب المبدئي لهم كان عنيفاً جعل المستجوبين

يدلون بمعلومات كاذبة. إلا أن الاستجواب الأمثل قام به رسول الله ﷺ عرف من خلاله أين يعسكر جيش قريش، وكم قوة الجيش العدديّة، ومن كان فيه من القادة، ومن رفض المشاركة في تلك الحملة، وغير ذلك من معلومات حساسة. وفي «غزوة بني المصطلق» ألقى القبض على جاسوس لـ «الحارث بن ضرار» كان قد بعثه لجلب أخبار سرية رسول الله ﷺ وعند استجوابه من قبل القائد المحنك «عمر بن الخطاب»، أفاد قائلاً: "أنا رجل من «بني المصطلق»، تركت «الحارث بن أبي ضرار» قد جمع لكم الجموع، وتجلب إليه ناسٌ كثير، وبعثني إليكم لآتيه بخبركم وهل تحركتم من «المدينة». ⁷⁸ كما ألقى «علي بن أبي طالب» القبض على عين لبني سعد في الهمج وذلك عندما بعثه رسول الله ﷺ في مائة رجل إلى حي سعد بفدك حينما وردته معلومات عن أنهم يرغبون في دعم «يهود خيبر» وعند استجوابه قال:

"لا علم لي به. فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم، فقالوا له: فأين القوم؟ قال: تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبر ابن عليم. قالوا: فسر بنا حتى تدلنا. قال: على أن تؤمنوني! قالوا: إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمناك، وإلا فلا أمان لك. قال: فذاك! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنهم به، وأوفى بهم على فداقدوا أكام، ثم أفضى بهم إلى سهوله فإذا نعم كثير وشاء، فقال: هذا نعمهم وشاءهم. فأغاروا عليه فضموا النعم والشاء. قال: أرسلوني! قالوا: لا حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذروهم، فتفرقوا وهربوا، فقال الدليل: علام تحبسني؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء. قال علي رضي الله عنه: لم نبلغ معسكرهم. فانتهى بهم إليه فلم ير

أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير،
وألفا شاة.⁷⁹

وفي «غزوة خيبر» ألقت طليعة يقودها «عباد بن بشر» القبض على عين لليهود وعند استجوابه رفض في بادئ الأمر التعريف بنفسه وقال إنه يبحث عن أبعة ضلت له وهو على أثرها سائر. فسأله عن معلوماته عن خيبر فأجاب بأنه حديث عهد بها وماذا يريدون أن يعرفوا عنها؟ فسئل عما يعرفه عن اليهود؟ فأجاب بمعلومات مضللة يهدف بها بث الرعب في قلوب المسلمين ويؤكد ما كان قد أشيع أن من دعم «بني سعد» لليهود قائلاً:

"نعم، كان «كنانة بن أبي الحقيق» و«هوزة بن قيس» ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم «عتبة بن بدر»، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماءً واتن يشربون في حصونهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة.⁸⁰

ولكن «عباد بن بشر» -رضي الله عنه- استشعر الكذب والتضليل في إجابته، ولاستجلاء حقيقة أمره، استخدم الشدة معه والتهديد بضرب العنق إن لم ينطق بالحقيقة، كما واجهه بمعلومة مؤكداً له أنه لا يغدو كونه يعمل عيناً لليهود ولا بد له من قول الحقيقة، وهكذا لم يكن له من مناص إلا قول الحقيقة فاعترف قائلاً:

«أفتؤمنني على أن أصدقك؟ قال عباد: نعم. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجلون لما قد صنعتهم بمن كان يثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا

ابن عمّ لي وجدوه بـ «المدينة»، قد قدم بسلعة يبيعها، فبعثوه إلى «كنانة بن أبي الحقيق» يخبرونه بقلتكم وقلة خيلكم وسلاحكم. ويقولون له: فأصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم، فإنه لم يلق قوماً يحسنون القتال! وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم! وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى هوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر! ويقول آخرون: يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر! قال الأعرابي: وأنا أسمع كل هذا، فقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحذرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم.⁸¹

وعندما أحضروه إلى رسول الله ﷺ أمر «عمر بن الخطاب» عبادة بضرب عنقه إلا أن «عبادة» أجابه بأنه قد منحه الأمان لقاء اعترافه وتقديم المعلومات الحقيقية. فأمر رسول الله ﷺ عبادة باستمرار سجنه، وفي خيبر عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فأسلم. وهناك أمثلة كثيرة أخرى في السيرة النبوية، حيث يتم فيها استجواب وكلاء العدو وعيونه. ففي «فتح مكة»، وعندما كان رسول الله ﷺ بين العرج والطلوب، حيث كانت تتقدم جمع المسلمين طليعة استخبارية رصدت رجلاً على راحلته يختفي مرة وتارة يعتلي أماكن مرتفعة فاشتبهوا فيه، وعندما اتجهوا إليه حاول الهروب فألقوا القبض عليه واستجوبوه، فأفاد أنه من «بني غفار» وعندما توالى الأسئلة عليه شعر المستجوبون أنه لا يقول الحقيقة فهددوه بضرب العنق إن لم يصدقهم، فطلب الأمان مقابل أن يدلي بالحقيقة، وعندما وُعد بذلك قال:

"فإني رجل من «هوازن» من «بني نصر»، بعثني «هوازن» عيناً. وقالوا: ائت «المدينة» حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه غلا يستغورهم، فإن خرج سائراً أو بعث بعثاً فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سرف، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك في بطن سرف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد «قريشاً» فسيلزم الطريق. فقال رسول الله ﷺ: وأين «هوازن»؟ قال: تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع، وأجلبوا في العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش في عمل الدبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً. قال رسول الله ﷺ: وإلى من جعلوا أمرهم؟ قال: إلى فتاهم «مالك بن عوف». قال رسول الله ﷺ: وكل «هوازن» قد أجاب إلى ما دعا إليه «مالك»؟ قال: قد أبطأ من «بني عامر» أهل الجد والجلد. قال: من؟ قال: «كعب» و«كلاب». قال: ما فعلت «هلال»؟ قال: ما أقل من ضوى إليه منهم، وقد مررت بقومك أمس بـ «مكة» وقد قدم عليهم «أبو سفيان بن حرب» فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وجلون. فقال رسول الله ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراه إلا صدقني!⁸²

وخشية أن يتوجه الأسير عند إطلاق سراحه إلى قومه لينذرهم فقد أمر رسول الله ﷺ «خالد بن الوليد» أن يحبسه ولكنه في الطريق أفلت فلحق به «خالد» وامسك به وقال: لولا أنه قد منح لك الأمان لضربت عنقك. وفي «مكة» دعاه رسول الله ﷺ للإسلام فأسلم وكان ضمن جيشه لـ «هوازن».

وفي «غزوة بني سليم ببحران» قبض المسلمون على رجل من «بني سليم» حول منطقة «بحران» وعند استجوابه أفادهم أن القوم الذين اجتمعوا من «بني سليم» للهجوم على رسول الله ﷺ قد تفرقوا وعادوا إلى مائهم. فتم التحفظ عليه لحين التأكد من صحة معلوماته واستمرت الحملة في السير حتى وصلت إلى «بحران» فلم يجدوا أحداً هناك وتم التأكد من صدق قوله فأطلق سراحه.⁸³

وفي دومة الجندل توفرت لرسول الله ﷺ معلومات عن تجمع عدد كثير من المشركين العرب، الذين كانوا يخططون لمهاجمة المسلمين في «المدينة». فخرج إليهم على إثر ذلك رسول الله ﷺ في سرية قوامها ألف رجل من المسلمين، وقد اصطحب معه دليلاً خريت. وعند وصوله ﷺ «دومة الجندل» لم يجد أحداً منهم، حيث تفرقت الجموع عند علمها بقدومه. فأمر السرايا بأن تجوب مضاربهم بحثاً عنهم، فلم يعثروا إلا على واحد منهم، فألقي القبض عليه، وتم أسره من قبل الصحابي «محمد بن مسلمة». وعند إحضاره لرسول الله ﷺ سأله عن مصير بقية قومه، فأفاده "بأنهم هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت أنعامهم."⁸⁴

5.3.7: مطارد من بلاد الروم

لم يكن اليهود الوحيدين من الديانات التي اضطروا المسلمون لاستهدافهم واختراقهم وتجنيد بعض أفرادهم، فقد كان هناك استهداف لبعض مسيحي بلاد الشام من العرب وخاصة القادة منهم حيث تم تجنيدهم لصالح دولة الإسلام. وما قصة إسلام حاكم معان «فروة الجذامي» إلا خير دليل على نجاح «استخبارات المدينة» في اختراق تلك القيادات للدولة البيزنطية. فقد تبادل «الجذامي» الرسائل السرية مع رسول الله ﷺ، إلا أن أمره قد انكشف من قبل الروم مما حدا بملكهم إلى حبسه ثم صلبه.⁸⁵

وقد جند الصحابي «شجاع بن وهب» أحد رجال «الحارث بن أبي شمر الغساني» التابع للبيزنطيين، وكان رومياً اسمه «مري» يعمل حاجباً لدى «الحارث». وقد علم «شجاع بن وهب» من خلال هذا الرجل عن شخصية «الحارث» وشدة خوفه من «هرقل» كما أفصى الرجل إلى «ابن وهب» عن مضمون كتاب «الحارث» لـ «هرقل» الذي يستأذنه فيه لغزو «المدينة» ورد «هرقل» عليه وأمر «الحارث» بأن لا يسير الجيوش لمحمد.⁸⁶

وفي السياق نفسه يشار إلى أن عيون «المدينة» في «الشام» قد أبلغت رسول الله ﷺ عن اعتراض «شرحبيل بن عمرو الغساني» وقتله لـ «حارث بن عمير الأزدي» الذي كان قد بعثه النبي ﷺ برسالة إلى «ملك بصرى» يدعوه فيها إلى الإسلام. وقد كان هذا الحادث سبباً للخروج في غزوة مؤتة بأرض الشام. كما علم من خلال هؤلاء العيون عن حلفاء الدولة البيزنطية وحجم القوات البيزنطية.⁸⁷ وكان بعض عيون رسول الله ﷺ أبلغوه عن تحرك الحشود التي قاتلت المسلمين في «سرية ذات أطلاح» وقد تركوا موقع المعركة وساروا إلى مكان آخر مما جعله يترك البعث بسرية أخرى إليهم.⁸⁸

6.3.7: المنشقون والمخبرون المستقلون

يقدم المنشقون والمعارضون على الدوام معلومات استخبارية ونصائح سياسية وعسكرية واقتصادية إلى من يأويهم ويتكفل بحمايتهم، بل إنهم في الغالب الأعم يستغلون بعلم أو بغير علم منهم في العمل على جمع المعلومات التي يستطيعون الوصول إليها عمن انشقوا عنه. ويبلغ الأمر سوءه عندما يحدث ذلك ممن ينتمي إلى قبيلة ذات شأن أو كان له ملك أو سيادة في قومه ويكون دافعه استعادة ما يعتقد أنه سلب منه. فارتباطه الوثيق بالمؤثرين في قومه يجعل له حظوة في الاطلاع على ما تسير إليه الأمور. ومن خلال ما ورد في السيرة النبوية الشريفة يمكن القول أنه كان هناك انشقاق واضح

لأحد الزعماء السياسيين لقبائل الأوس في الجاهلية ويدعى «أبو عامر الراهب»⁸⁹ ويعرف في كتب السير بما أسماه رسول الله ﷺ «أبا عامر الفاسق». حيث اشتد عليه ظهور الإسلام فجاهر بالعداوة لرسول الله ﷺ ومن كان معه من قومه. وكان قد ألّب قريشاً على رسول الله ﷺ ولكنه لم يفلح في ذلك.⁹⁰ عندها فر إلى «هرقل» قيصر الروم وأقام لديه وقدم له ما بجعبته من معلومات عن رسول الله ﷺ ودين الإسلام، واستنصره وطلب العون منه وقد وعده «هرقل» بذلك.

ولكي ترسم الخطط لغزو «المدينة» كان لابد من وجود معلومات استخبارية دقيقة جارية عن الأوضاع في «المدينة» أولاً بأول. ولتحقيق ذلك جند «أبو عامر الراهب» لتوفير مرصد يتمتع بغطاء دائم ويكون فعالاً في جمع المعلومات سراً. فشرع في تكليف أتباعه من المنافقين بـ «المدينة» باتخاذ بيت آمن يلتقي فيه من يبعثهم إليهم ويكون لهم نقطة للرصد والالتقاء واستلام التوجيهات ورفع التقارير. وما كان من هؤلاء إلا أن اتخذوا مسجداً أطلق عليه لاحقاً مسمى ضرار، للتضليل والتمويه. فقاموا ببنائه بـ «المدينة» وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه لإضفاء الشرعية عليه لكي يصبح محطة استخبارية للروم والفاسق معاً تحت غطاء ديني شرعي عميق لا يشك فيه. ولكن أمر هذه العصاة المتآمرة قد انكشف وهدم المسجد وانفضح أمر المنافقين الذين قاموا بإنشائه.⁹¹

ونرى في حادثة أخرى في فتح خيبر، عندما كلف الرسول الكريم «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه- بالإشراف على العسكر ومهامهم، إذ أتى يهودي لرسول الله ﷺ كان قد أصر أن لا يتحدث إلا له، ولم يذكر المصدر أنه ألقى القبض عليه من قبل العسكر، إلا أن فحوى حديث اليهودي مع الرسول الكريم ﷺ يشير إلى أنه قد انشق عن بني جلدته ولجأ إلى المسلمين

حيث يصف اليهود بأنهم قوم ليس بهم نظام وانهم اذلاء كما وصف روحهم المعنوية ورعبهم من رسول الله ودل المسلمين على مخازن أسلحتهم الاستراتيجية. وعندما سأله رسول الله ﷺ قائلاً:

"(ما وراءك ومن أنت)؟ فقال اليهودي: تؤمنى يا أبا القاسم وأصدقك؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم). فقال اليهودي: خرجت من حصن النطااة من عند قوم ليس لهم نظام تركتهم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين يذهبون)؟ قال: إلى أذل مما كانوا فيه إلى الشق، وقد رعبوا منك حتى إن أفئدتهم لتخفق وهذا حصن اليهود فيه السلاح والطعام والودك وفيه آلة حصونهم التى كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيبوا ذلك فى بيت من حصونهم تحت الأرض، قال رسول الله ﷺ: (وما هو)؟ قال: منجنيق مفككة ودبابتان وسلاح من دروع وبيض وسيوف فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله. قال رسول الله ﷺ: (إن شاء الله)، قال اليهودي: إن شاء الله أوقفك عليه فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيرى، وأخرى قيل ما هى؟ قال: تستخرجه ثم أنصب المنجنيق على حصن الشق، وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة، فقال عمر: يا رسول الله إني أحسبه قد صدق، قال اليهودي: يا أبا القاسم احقن دمي، قال: (أنت آمن)، قال: ولى زوجة فى حصن النزار⁹² فهبها لى، قال: (هى لك)، قال رسول الله ﷺ: (ما لليهود حولوا ذرايرهم من النطااة)؟ قال: جردوها للمقاتلة وحولوا الذراى إلى الشق والكتيبة⁹³.

ولا تقل أهمية معلومات المخبرين المستقلين أو بائعي المعلومات عن سواها في الحقل الاستخباري. وعادة ما تكون دوافع المتقدمين بهذا الصنف من المعلومات أما مادية أو حباً للجاه والبروز أو نيل حظوة لدى الغير من الخصوم أو لمآرب شخصية شتى. ففي العهد النبوي الشريف كان هناك الكثير من المخبرين المستقلين الذين تقدموا بمعلومات مهمة وحساسة أما مباشرة لرسول الله ﷺ أو عن طريق أحد أصحابه -رضي الله عنهم-. فقد روي أن رجلاً من طيء قدم لزيارة قريبة له كانت زوجة لأحد الصحابة وأبلغ عن قيام «طليحة الأسدي» وأخيه «سلمة» بدعوة وتجميع الجموع للتوجه لغزو «المدينة».⁹⁴ كما أن «غزوة ذات الرقاع» كانت مبنية على معلومات قدمها مخبر قدم للمدينة يفيد بأن «أنماراً» و«ثعلبة» قد جمعوا لهم الجموع.⁹⁵ وفي واقعة أخرى عند فتح خيبر جاء رجل من اليهود اسمه «غزال» ليخبر رسول الله ﷺ بمعلومات هامة عن الإمداد السري لحصون اليهود والذي بدون السيطرة عليه وقطعه سيطول الحصار، وقال:

"يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهراً ما بالوا، إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم أصبحوا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ".⁹⁶

وفي «فتح خيبر» تقدم رجل من اليهود مخبراً أنه قد رأى «كنانة» يطوف بخربة كل غداة، ويعتقد أنه دس فيها كنزاً قد أودع عنده من «بني النضير» عندما تم إجلاؤهم فأحضر لرسول الله ﷺ فسأله عنه فأنكر معرفته بمكان وجوده. فأمر رسول الله ﷺ بالخرابة فحفرت، ثم استخرجت منها كنوزهم.⁹⁷

الفصل السابع

المفهوم الاستخباري المعاصر

3.7 المفهوم الاستخباري المعاصر

على الرغم من تأكيد البرفسور «شيرمان كينت» (Sherman Kent)، الأب الروحي للاستخبارات الغربية وخاصة الاستراتيجية منها، عام 1955 بأن "الاستخبارات قد بلغت سن الرشد في معظم أنشطتها ومجالاتها"¹ إلا أنه لا يزال هناك حتى الآن العديد من القضايا التي لم تدرس بالعناية التي تستحقها، بل أن هناك الكثير من الأسئلة الملحة التي لم تتم الإجابة عنها على نحو شافٍ بعد. ومن هذه الأسئلة على سبيل المثال: ما هي طبيعة الاستخبارات بالضبط؟ وما هي مقوماتها وأدواتها؟ وهل الاستخبارات علم أم حرفة؟ فالأكاديميون والخبراء الاستراتيجيون وعلماء السياسة وضباط الاستخبارات السابقون والحاليون لا يزالون يناقشونها ويتداولون فيها دون أن يتفقوا أو حتى يتوافقوا على توصيف مشترك لها. ولعل جزءاً من الصعوبة في الإجابة عن تلك الأسئلة حسب «مايكل ورنر، Michael Warner» يعود إلى أن الاستخبارات لا يمكن تعريفها بسهولة أو تحديد معالمها بدقة لأنها باختصار «تعني شيئاً مختلفاً لكل فرد، حتى بات من الصعب حقاً تلخيص ما قيل فيها في تعريف واحد».² وسيظل الجدل قائماً حول طبيعة الاستخبارات وماهية مكوناتها على الرغم من أن هناك نوعاً من الإقرار العام بوجود بعض الثوابت والأسس العامة التي يقوم عليها العمل الاستخباري.

وهكذا وعلى الرغم من الاعتراف بأن مصطلح الاستخبارات لا يزال عصياً على التعريف بجملة قصيرة واحدة. فهناك من يحاول اختزال الأمر كله بالقول أن الاستخبارات هي «المعلومات السرية التي يجمعها فرد ما عن شخص آخر». بينما لا يراها آخرون على هذا النحو المبسط ويؤكدون أنها أكثر تعقيداً وشمولاً لأنها تمثل «حصيلة جمع المعلومات السرية ومعالجتها

ومجانستها وتحليلها وتقييمها وتفسير فحواها وبالتالي نشرها أو توزيعها على من يهمهم الأمر»³.

ويرى «والتر لاكور، Walter Laqueur» خبير الاستراتيجيات الدولية والتاريخ الحديث أن الاستخبارات ليست علماً دقيقاً أو تطبيقياً، ذلك أن الذين يمارسونها ليسوا جميعاً على دراية كافية بالأساليب الاستقصائية العلمية وطرق البحث العلمي الحديثة بل أن كثيراً منهم قد يقعون فريسة لمعلومات مضللة أو مواقف متحيزة أو قد يتعجلون التوصل إلى نتائج غير صحيحة إما بسبب انعدام الكفاءة أو لشحة المعلومات... الخ.⁴ ويضيف «لاكور» أن وقوع خطأ ما سيؤدي بالضرورة إلى مفاجآت غير متوقعة، وبالتالي إلى فشل الاستخبارات. ويلخص هذا الباحث الهدف النهائي لأي جهاز استخبارات فيؤكد بأن العاملين في هذا المجال ينشدون في آخر المطاف حماية الذين يخدمونهم من المفاجآت.⁵ سواء أكان هؤلاء أفراداً أم كيانات أم دولاً.

وفي معرض تعليقه على مستوى أداء أجهزة الاستخبارات حول العالم، يعرض «لاكور» تقييمه لأداء وكالة المخابرات المركزية الـ «سي أي إيه، C.I.A» خلال العقود القليلة الماضية. ويركز في هذا المجال على آليات جمع المعلومات في الوكالة وكيف تمت الاستفادة منها واستغلالها من ناحية وكيف تم تجاهل المعلومات الاستخبارية المتوفرة في بعض الأحيان. ويشترك «لاكور» عدداً من الدروس ذات الأهمية الخاصة لمنتجي الاستخبارات وللمستهلكين على حد سواء. أما حكمه النهائي فهو أن أداء الـ «سي أي إيه، C.I.A» بعد الحرب العالمية الثانية كان خليطاً من النجاحات والاختفاقات. "ففي الوقت الذي ابتكرت فيه عدة وسائل جديدة لجمع المعلومات، إلا أن الوكالة كانت ضعيفة في الاستخبارات البشرية «HUMINT». وعلى الرغم من أن الوكالة كانت على قدر كبير من الاتقان والتميز في إصدار التفاصيل

والأرقام، لكنها في ذات الوقت كانت أقل مهارة في تجميع تلك البيانات والمعلومات في صورة مترابطة بتحليل التوجهات، وتقييم المواقف، والتحذير من احتمالات المستقبل".⁶

ويخلص «لاكور» إلى تحديد معالم العمل الاستخباري ويقول في معرض تعريفه له: "إنه حقل يتطلب الكفاءة والإتقان لا بمعرفة القضايا الراهنة، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم النفس، والاقتصاد، والعلوم والتكنولوجيا فحسب، بل ينبغي أن تتوفر للعميل الاستخباري الخبرة الشخصية للعيش في بلد أجنبي واحد على الأقل، إلى جانب خبرة عملية للتعامل مع لغة أجنبية واحدة على الأقل أيضاً".⁷

أما «شيرمان كينت» الذي سبقت الإشارة إليه فيقول: "إن الدلالات التي ينطوي عليها مصطلح الاستخبارات هي دلالات عامة وشاملة ولا يمكن حصرها بسهولة لأنها تتناول الأنشطة البشرية كافة"، لكنه رغم ذلك يسعى إلى الخروج بتعريف جامع مانع لها فيقول: "إن الاستخبارات تعني المعرفة أولاً وأخيراً. وليس المقصود هنا المعرفة المطلقة بلا حدود، بل التسلح بتشكيلة معرفية متنوعة عامة".⁸ ويرى أيضاً أن مصطلح «الاستخبارات» يشمل "نوعية المنظمة التي تنتج المعرفة" وكذلك "النشاط الذي تقوم به المنظمة الاستخبارية".⁹

وفي محاولة لتحديد الخطوات التي يمكن اتخاذها لتحسين الأداء الاستخباراتي الأمريكي في المستقبل ناقش «روي غودسن Roy Godson» وعدد من الباحثين والمتخصصين في مجال الاستخبارات في الكتاب الموسوم «متطلبات الاستخبارات في الثمانينيات»، طبيعة العمل الاستخباري، ومستوى أداء «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، C.I.A.» وغيرها من

الوكالات الأمنية القومية. ويركز هؤلاء جُلّ اهتمامهم على فحص ما تحتاجه الولايات المتحدة من العناصر الأربعة الرئيسة للاستخبارات وهي: التجميع السري للمعلومات، والتحليل والتقييم، والاستخبارات المضادة، والعمل السري. ورغم أن الذين أسهموا في هذه الدراسة النوعية ليسوا على كلمة رجل واحد فيما يتعلق بما يجب عمله لمجابهة التحديات، فإنهم رغم ذلك متفقون عموماً على أن مستوى الأداء عند تقييم المعلومات المستجمعة، لم يكن في المستوى المطلوب وأن هناك حاجة لتحسين أوجه النشاط الاستخباري كافة.¹⁰ ويعرّف «غودسن» تجميع المعلومات على أنه "قنص المعلومات القيمة بطرق سرية"، كما يعرّف التحليل بأنه "معالجة المعلومات ومنتجها النهائي". أما الاستخبارات المضادة فيعرّفها على أنها "الجهد المبذول لحماية الأسرار والحيلولة دون استغلالها من قبل طرف أو أطراف أخرى لمصالح أو أهداف خاصة، وتعتمد الدول لحماية أسرارها في خضم نشاطها الاستخباري المضاد، بشكل جزئي، على إجراءات أمنية وتدابير مضادة". وأخيراً يعرّف «غودسن» العمل السري على أنه "أي محاولة تقوم بها حكومة أو كيان، لممارسة نفوذ على دولة أخرى أو إقليم آخر دون أن ينكشف تورطها بذلك".¹¹

من الدراسات المهمة التي صدرت في هذا الموضوع ما نشره الأكاديمي المخضرم «أنجلو كودفيللا Angelo Codevilla» تحت عنوان «دعم إدارة الدولة: استخبارات القرن الجديد». وفي هذه الدراسة يتفق «أنجلو كودفيللا» مع «غودسن» بأن العمل الاستخباري يقوم أساساً على أربعة ركائز هي: "التجميع والاستخبارات المضادة والتحليل والعمل السري".¹²

أما الدبلوماسي السابق واحد أهم رجال المخابرات البريطانية «جون بروس لوكهارت، John Bruce Lockhart» فقد شرح طبيعة العمل الاستخباري

مؤكداً على أنه يقوم على أركان خمسة هي:

1. وجود خطة لتحديد الأولويات والأهداف والمتطلبات.
2. جمع المعلومات بوسائل وأساليب سرية «بشرية وتقنية».
3. الاهتمام بالاستخبارات المضادة ومكافحة التجسس.
4. التوسع في العمل السري غير المعرض للانكشاف.
5. تحليل وتقييم البيانات المجمعة، وتحويلها إلى معلومات استخبارية.¹³

ويحاول «غاري شميث، Gary Schmitt» و«إبراهام شولسكي، Abram Shulsky» وهما من أبرز المحافظين الجدد في الولايات المتحدة ومن أكبر مخططي غزو العراق عام 2003م أن يحددوا موقع الاستخبارات في جداول المعرفة البشرية ويناقشا على نحو مفصل مقولة الأب الروحي للاستخبارات الاستراتيجية «شيرمان كينت» حول العناصر الثلاثة التي تشكل كُنْهَ الاستخبارات وهي المعرفة، والنشاط، والتنظيم. ولكن -على خلاف «كينت»- يعتبر كل من «إبراهام شولسكي» و«غاري شميث» أن تحصين الدولة ضد أي اختراقات محتملة، والحيلولة دون حصول الخصوم أو آخرين أيّاً كانوا على معلومات سرية أو استراتيجية، جزءاً حيوياً مرتبطاً بالعمل الاستخباري الصرف.¹⁴

ويشرح «شولسكي» وزميله «شميت» مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق «رونالد ريغان» في كتابهما المشترك «الحرب الصامتة» مفاهيم وفلسفات وعمليات التجميع الاستخباري، وتحليلها وإدارتها. ويؤكدان على الطبيعة المزدوجة بل المعقدة للعمل الاستخباري الذي يشمل -إلى جانب التعامل الفطن مع المعلومات السرية المستجمعة- الإسهام في إثارة الخلافات بين الخصوم والمنافسين، سواء أكان هؤلاء دولاً، أم كيانات، أم فصائل مسلحة، أم تنظيمات أممية. وهذا يعني أن الاستخبارات وفقاً لهذين الباحثين "هي أحد

فروع العلوم الاجتماعية العامة التي تسعى إلى استشراف آفاق المستقبل والتي تهدف إلى إشباع حاجات صناعات السياسة والقرار من معلومات عن الدول الأخرى، بما فيها مستقبلها".¹⁵

وفي معرض مناقشته مسألة ما إذا كانت المهمة الاستخبارية ذات علاقة بالنظرية الاستخبارية، أو ما إذا كان يجدر أن تكون هناك أصلاً نظرية استخبارية، يشير الدكتور «فيليب ديفيز، Philip Davies» مدير مركز الدراسات الاستخبارية والأمنية في جامعة «برونل» البريطانية في «لندن» إلى أنه في الوقت الذي نجد أن هناك نوعاً من الاتفاق في الولايات المتحدة على المدلولات التي ينطوي عليها مصطلح «استخبارات»، إلا أنه ليس هناك اتفاق عام في الرأي على مدلولات هذا المصطلح في الفكر البريطاني.¹⁶ ويخلص إلى القول بأن:

تصورنا أو تعريفنا للعمل الاستخباري هو الذي يؤثر في أساليب التنفيذ التي نلجأ إليها حين نقوم بالمهام الاستخبارية. وعلى أية حال فإن حجب الزاوية لأي فكر استخباري لابد أن يستند إلى حصيلة الأفكار والتصورات الكثيرة المتباينة وعواقبها التي تؤثر في صميم المؤسسة الاستخبارية وعملياتها.¹⁷

ويتناول الدكتور «ديفيز» في بحث آخر بشيء من التفصيل المفهومين المختلفين لمصطلح الاستخبارات في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ويقول أنه على الرغم من وجود:

«نظام استخباري مشترك ومتشابه يتعامل مع المعلومات الخام نفسها وعلى الرغم من أن المؤسستين الاستخباريتين تشتركان في وحدة الهدف المطلوب عند

تقييم هذه المعلومات إلا أنه يمكن ملاحظة أن المؤسستين تتحركان في اتجاهين مختلفين لأسباب هي في المقام الأول ثقافية، لا تنظيمية أو ظرفية».¹⁸

من جهة أخرى، يحاول «مايكل هيرمان Michael Herman» المؤلف الأكاديمي الذي سبق أن عمل لأكثر من ثلاثين عاماً في أجهزة المخابرات البريطانية أن يسبر أغوار المجتمع الاستخباري في كتابه الذي يحمل عنوان «سلطة الاستخبارات في السلم والحرب»، ويحلل المكونات المختلفة للاستخبارات ويناقش قضاياها ويركز تحديداً على قضايا الدقة والكفاءة المرتبطتين عضوياً بمستوى النجاح والإخفاق في العمل الاستخباري ثم يقدم عدة توصيات الغرض منها تحسين أداء المؤسسات الاستخبارية في ظل النظام العالمي الجديد.

ويرسم «مايكل هيرمان» صورة للاستخبارات الغربية أكثر إيجابية من تلك التي عرضها الدكتور «لاكور» -الذي أشير إليه سابقاً-. ففي تقييمه للأعراف والأنظمة التي تحكم عمل المؤسسات الاستخبارية البريطانية والأمريكية، يرى «هيرمان» أن أحد عناصر القوة في النظامين البريطاني والأمريكي هو أن المتخصصين في جمع المعلومات السرية لا توكل إليهم مسؤولية تقييم هذه البيانات والمعلومات. ويؤكد على أن استكشاف جميع الأدلة المتوفرة من جميع المصادر المختلفة، يوفر مجالاً أوسع لتحليل المعلومات واستخلاص النتائج منها لا سيما إذا ما قورن هذا المنهج مع المدرسة الروسية للاستخبارات التي تؤمن أن الاستخبارات في الأساس نتاج تجميع سري للمعلومات.¹⁹

ويتطرق «محمد جمال محفوظ» وهو لواء سابق في الجيش المصري

في كتابه المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، إلى أنه مهما تعددت التعاريف لما تعنيه كلمة الاستخبارات فهي تنطوي على خمسة عناصر رئيسة هي:

1. الحصول على المعلومات عن العدو.
 2. فرز وتقويم هذه المعلومات وتقدير مدى صحتها.
 3. تحليل هذه المعلومات وتفسيرها.
 4. إمداد المسؤولين بالمعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها.
 5. الاستفادة من المعلومات وما يستخلص منها في التخطيط وفي اتخاذ القرارات.
 6. مقاومة أعمال استخبارات العدو.²⁰
- وقد عرف الاستخبارات بعض القادة العسكريون العرب ومنهم اللواء الركن محمود شيت خطاب واللواء الركن محمد جمال محفوظ بأنها:
- "هي الخطى المتناسقة المدروسة الموجهة، لاستخدام كل الوسائل المتيسرة، للحصول على كافة المعلومات، وتصنيفها وتقديرها لإمداد المسؤولين بالحقائق والتقديرات الواقعية، وفي الوقت المناسب، لوضع استراتيجية الدولة، ولرسم سياسات معينة، ولاتخاذ القرارات السليمة التي تكفل سلامة الأمن القومي للدولة."²¹

كما عرف هيثم الأيوبي الاستخبارات في الموسوعة العسكرية بأنها:

«هي مجموعة من الأجهزة والتشكيلات والوسائل المستخدمة لجمع المعلومات السياسية والنفسية والاقتصادية والعسكرية الخاصة بالعدو وتحليلها، والمعاملة في نفس الوقت على مكافحة عمليات التجسس والتخريب المعادية، وإبطال أعمال العدو المماثلة»²².

2.7: تطور الثقافة الاستخبارية

لا يمكننا إغفال إسهامات قليلة منشورة هنا وهناك في حقل الدراسات الاستخبارية في العالم العربي، بيد أن هذه الإسهامات مبعثرة، وغير مصنفة، وموزعة على دوريات ومنشورات ذات مقاربات متباينة، واهتمامات متفاوتة التركيز على الشأن الاستخباري. أي أن المشكلة الملحة المتمثلة بعدم وجود بحوث أو دراسات معمقة متخصصة في هذا المجال الحيوي من حقول المعرفة مازالت قائمة. ورغم الإنجازات الكثيرة التي تحققت في معظم المجالات العلمية لا سيما في الدول التي حباها الله بثروات طبيعية فإن العالم العربي عمومًا لا يزال يفتقر إلى مراكز ومؤسسات علمية متخصصة في الاستخبارات وعلوم استشراف المستقبل لمعالجة القصور الكبير، لا في الدراسات المتعلقة بالنشاطات السرية بصفة عامة بل في الثقافة الاستخبارية على وجه خاص. ومن المؤمل ونحن نسعى إلى استجلاء وتأصيل ركائز النموذج الاستخباري العربي الإسلامي أن نسهم في سد جزء ولو يسير من هذه الفجوة التي تعاني منها المكتبة العربية.

ركزت معظم البحوث المنشورة في السنوات القليلة الماضية التي تناولت الكيانات الاستخبارية في العالمين العربي والإسلامي على قضايا محددة تناولت على وجه التحديد العقيدة العسكرية والهيكل التنظيمية، والموارد المالية، وأساليب العمل والأطراف الممولة بالسلاح أو بالدعم المادي أو المعنوي.²³ ولم تسلط هذه البحوث ما يكفي من الضوء على هذه الكيانات باعتبارها منتجة ومستهلكة للاستخبارات.

على أن هناك عوامل عدة حالت ولا تزال تحول دون إعداد دراسات جادة

عن منابع أو جذور الفكر الاستخباري الإسلامي، أبرز هذه العوامل يتمثل في حساسية الموضوع نفسه التي جعلت كثيراً من الأكاديميين والمهتمين بهذا الجانب من المعرفة البشرية يناون بأنفسهم وببحوثهم عما قد يتأتى لهم بسبب هذه الحساسية من عواقب غير سليمة، لذلك فضلوا عدم الارتباط بهذا النوع من الأبحاث. ومن المعوقات الجدية الأخرى أن مصادر المعلومات شحيحة جداً ومغلقة بالسرية والكتمان فضلاً عن أن معظم الكوادر السابقة في الكيانات الاستخبارية يتحاشون الكشف عن الأدوار التي أدوها أثناء انخراطهم في تلك التنظيمات خشية الانتقام.

وقد أدت العوامل والظروف آنفة الذكر إلى شح المصادر العلمية الموثوقة والموثقة عن الأنشطة الاستخبارية عموماً حتى أن الحديث عن عالم الاستخبارات وما يدور فيه بات ضبابياً تلفه المبالغات والتبريرات والدعايات المضللة. بيد أن الهجوم الياباني الصاعق على قاعدة «بيرل هاربر، Pearl Harbor» في السابع من ديسمبر 1941م الذي كان له وقع الزلزال المدمر في نفوس الأمريكيين قد أحدث تغييراً جذرياً في الموقف العام تجاه الاستخبارات ودوائرها. فبعد أن كان الحديث ينحصر في الأروقة السرية ومقرات صنع القرار في أمريكا عن مدى مسؤولية القادة العسكريين عما يجري في ساحات القتال، أو عن الاستعدادات الاستخبارية لزمّن الحرب أو عن مستوى أداء المنتسبين عموماً أبان الأزمات والفترات العصيبة، أصبح هذا الحديث بعد هجوم «بيرل هاربر» مفتوحاً ومباحاً أمام كل من أراد أن يدلّو بدلوه في هذا الشأن الذي يمس حياة كل فرد. ولم يكن ذلك ممكناً لولا هول الكارثة التي حلت بالقوات الأمريكية التي ذهب ضحيتها ألفان وخمسمائة قتيل أمريكي، ودمرت فيها مائتا طائرة مقاتلة وثمانية بوابج حربية وست حاملات عملاقة للطائرات إلى جانب الخسائر والأضرار البشرية والمادية والنفسية الجسيمة الأخرى.

أثار الهجوم الياباني جدلاً عريضاً في الأوساط السياسية والعسكرية والإعلامية الأمريكية بل في عموم المجتمع كله، وقد تمحور هذا الجدل، من بين أمور أخرى، حول نقطتين أساسيتين هما: هل كانت واشنطن على علم بأن اليابانيين كانوا يستهدفون القاعدة الجوية في «بيرل هاربر» ويتحنون الفرص لدكها، أم أنها كانت تجهل ذلك؟ وفي حال علمها بمخططات اليابان فلماذا حلت الكارثة؟ وأين الخلل؟ وهل فشلت الأجهزة الاستخبارية في إيصال حصيلة معلوماتها الخطيرة إلى القاعدة البحرية في الميناء؟²⁴

الذي يهمننا في هذا المجال أن الإدارة الأمريكية بكل فروعها وأجنحتها أقدمت إثر الهجوم المدمر على بذل جهود غير مسبقة لرصد مواضع الضعف على مستويي: الأداء الاستخباري، والأداء القتالي. وهذا يعني أن الإخفاقات الخطيرة في «بيرل هاربر» أجبرت القيادات العسكرية والسياسية والاستخبارية وكل العاملين في الحقل الأمني على فتح نقاشات جادة حول السبل الكفيلة بمعالجة ضعف الأداء الاستخباري والحيلولة دون تكرار ما حدث مستقبلاً. وقد أسهم في هذا النقاش أيضاً عدد كبير من الإخصائيين والخبراء والأساتذة الأكاديميين في الحقول الأخرى ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بعمل الاستخبارات كالعلوم السياسية والدراسات الاجتماعية وعلم النفس ووسائل الاتصال بال جماهير إلى جانب أولئك المتخصصين في العلوم الحديثة والتكنولوجيا بمختلف صنوفها وفروعها. وشهدت فترة ما بعد «بيرل هاربر» صدور العديد من الدراسات المتخصصة التي تعد في الوقت الحاضر من المصادر الرئيسية في المجال الاستخباري. وقد أشير إلى بعض هؤلاء في الصفحات السابقة.

ورغم كل الاحتياطات التي اتخذت والتخصيصات الهائلة التي سخرت لتعزيز وتطوير أداء الأجهزة الاستخبارية في الولايات المتحدة على مدى

العقود التي تلت هجوم «بيرل هاربر» فإن هذه الأجهزة على كثرتها وتنوعها وعظم إمكاناتها المادية والتكنولوجية لم تتمكن من درء كارثة الحادي عشر من سبتمبر 2001م التي أدت إلى جانب الخسائر البشرية الهائلة والأضرار المادية والنفسية الجسيمة. على أن من بين أبرز النتائج العرضية لتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر أن النقاش الاستخباري قد تضاعف كمّاً وتطور نوعاً. ولم يقتصر هذا النقاش الجاد الذي اجتاحت المحافل المهنية والأكاديمية وغيرها على المؤسسات الاستخبارية والجامعية وهيئات البحوث في الولايات المتحدة فحسب، بل تعداه ليشمل العالم أجمع تقريباً حيث تم إنشاء عدد من مراكز البحوث الأمنية والاستراتيجية وتوالت الإصدارات التي تتناول جوانب عدة مما يتصل بالدراسات الاستخبارية والمستقبلية، وسبل مكافحة ما بات يشار إليه اختصاراً بمسمى «الإرهاب»، فهو لا يرتبط بدين أو بوطن محدد، ولا يرتدي زياً مميزاً، وينفذ عملياته تحت أسماء مختلفة، وهويات متعددة، ويتسم بسرعة التنقل والاختفاء. وعلى أية حال فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وما تلاها من أعمال إرهابية دعت إلى بحث ونقاش شأن الاستخبارات وتناولها بالنقد أو المساءلة والتحليل.

وهكذا أصبح النقاش حول نجاح أو إخفاق أجهزة الاستخبارات الغربية وأجهزة فرض القانون مفتوحاً على نحو واسع، ليس في الكونجرس الأمريكي، أو البرلمان البريطاني، أو مراكز البحوث، أو أجهزة الأمن القومية في دول العالم فحسب، بل بين عامة الناس وخاصتهم وفي مختلف وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة والمسموعة. ففي المملكة المتحدة على سبيل المثال شهدت فترة ما بعد سبتمبر/أيلول 2001م تشكيل عدة لجان برلمانية وقضائية لمناقشة الاستراتيجيات الأمنية وللتحقيق في مستوى أداء الأجهزة الاستخبارية وخرجت هذه اللجان التي ترأستها شخصيات مرموقة سياسياً وقانونياً بعدة توصيات ونتائج أعلنت على الملأ كان من أبرزها التوصيات

التي نشرتها اللجنة التي ترأسها عضو مجلس اللوردات «روين بتلر، Robin Butler» وتلك التي كانت برئاسة اللورد «جيمز هانتون،²⁵ James Hatton» وفي الأوساط الأكاديمية والإعلامية في بريطانيا وفي غيرها من دول أوروبا والعالم عموماً، احتدمت النقاشات والحوارات الساخنة في الشؤون الاستخبارية حتى أصبحت أكثر عمقاً وشمولاً قياساً بما سبق لاسيما بعد حرب العراق 2003 م وتفجيرات مدريد 2004 م وهجمات لندن الانتحارية 2005 م.

7.3 دورة الاستخبارات *Intelligence Cycle*

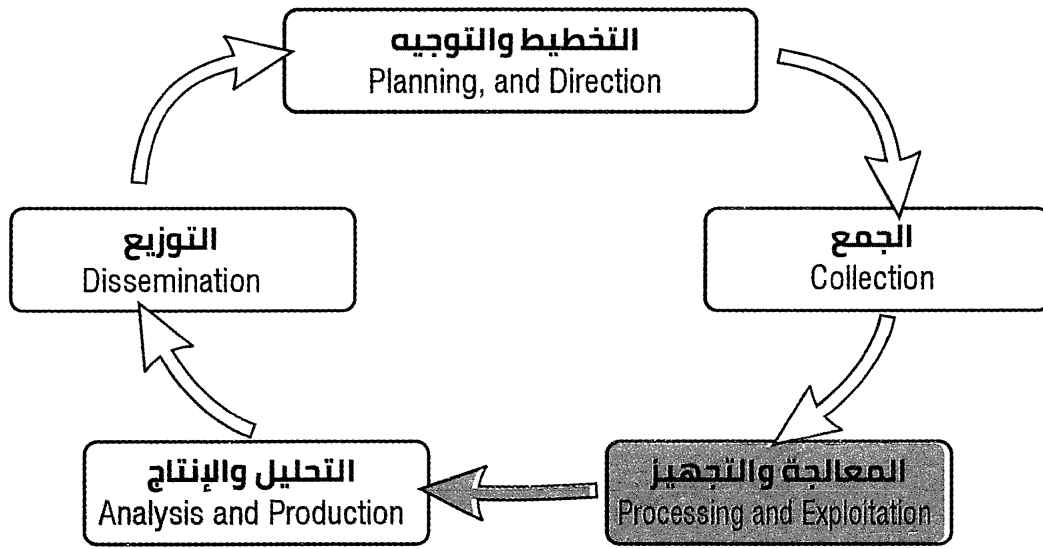
كما بينا سابقاً عند استعراض التعاريف المختلفة لمصطلح الاستخبارات، فليس ثمة اتفاق عام حول تعريف موحد لهذا المصطلح سواء بين قدامى العاملين في حقل الاستخبارات أو الممارسين الحاليين والمتخصصين الأكاديميين، ويعود ذلك ليس فقط لكون هذا المصطلح يحمل معانٍ مختلفة متعددة يفسرها كثيرون كما يرتأون، بل أيضاً لكونه استخدم بمثابة مظلة واسعة تنضوي تحتها سلسلة من الأنشطة الاستخبارية المتنوعة التي تحتويها دورة الاستخبارات.²⁶ لهذا فإن أي شرح لهذا المصطلح لا بد أن يتم من خلال فهمنا لدورة الاستخبارات ومراحلها الرئيسية الخمسة التي يتم فيها:

1. التخطيط والتوجيه.
2. عملية الجمع.
3. المعالجة والتي يتم فيها التعامل مع البيانات المجزأة لتصبح «معلومات».
4. التحليل والإنتاج.
5. التوزيع للمنتج النهائي «الاستخبارات».

وهناك أيضاً من يضيف مرحلتين لهذه الدورة وهما: الاستهلاك للمعلومات، والتغذية العكسية.²⁷

إلا أن الدورة ذات الخمسة مراحل هي الشائعة الاستخدام. وهذا لا يعني بالضرورة أن كل البيانات المستجمعة لا بد أن تمر عبر مراحل الدورة

آنفة الذكر لتنتج «استخبارات»، فالاستخبارات كمنتج، أكبر من أن يختصر ويوصف بأنه، مجرد عملية جمع منظم لبيانات مستهدفة، وعلى أية حال فإن بالإمكان رغم كل ما يقال حول صعوبة الإحاطة بتعريف جامع مانع للاستخبارات، القول أن دورة «الاستخبارات» هي التي يمكن من خلالها أن نجد تعريفاً للاستخبارات يمكن التوافق عليه.²⁸



نموذج توضيحي لمراحل دورة الاستخبارات

المرحلة الأولى:

التخطيط والتوجيه "Planning, and Direction"

وهي المرحلة الأولى في العملية الاستخبارية التي يتم من خلالها التوجيه والتخطيط لجمع المعلومات من المصادر المختلفه وفقاً للمتطلبات الواردة للمنظمة الاستخبارية أو المنبثقة منها. فهنا تحدد الأهداف والمعلومات المطلوبة والجهات التي يمكن الاستعانة بها لتحقيق ذلك، مع تحديد درجة الأسبقية والأهمية للموضوع. وما أن تصدر التوجيهات بذلك

حتى تقوم الإدارات المختصة في المنظمة الاستخبارية بالمباشرة في التنفيذ، من خلال ماتم رسمه والتخطيط له. ولا تقتصر المهام في هذه المرحلة على ذلك فقط، بل أيضاً يتم فيها رسم ووضع الأهداف الاستراتيجية المراد تحقيقها وفقاً للأولوية التي تملئها عليها أسبقية تلك الأهداف، سواء كانت أهدافاً استراتيجية عامة للدولة أو تخص المنظمة ذاتها. كما أن الحكومة ممثلة في وزاراتها ومؤسساتها المتعددة تكون أحياناً من يوجه بعملية الجمع وذلك من خلال البعث بمتطلباتها للمنظمة الاستخبارية للإجابة عليها، إلا أن معظم الوزراء والمسؤولين لا يفضلون الاتصال مباشرة بالمنظمة الاستخبارية ويتدردون في إرسال متطلباتهم التي تخدم سياسات تلك الوزارات، مما يجعل المنظمة الاستخبارية في كثير من الأحيان انتقائية فيمن تزوده بمنتوجها الاستخباري.²⁹

المرحلة الثانية:

الجمع "Collection"

يعتبر جمع المعلومات الخام أو ما قد نطلق عليه البيانات، المرحلة الثانية في دورة الاستخبارات، حيث يقوم المختصون بتجميع المعلومات المتفرقة وغير المعالجة استخبارياً من المصادر المفتوحة والمصادر السرية كالبشرية والتقنية للاستفادة منها في تحقيق المعرفة عن الأهداف المرجوة.³⁰

ولا خلاف في العرف الاستخباري في أن تستمد المنظمات الاستخبارية الجزء الأكبر من مادتها الاستخبارية من المصادر المفتوحة، والتي كانت قد قدرت نسبتها في فترة السبعينيات بما يقرب من 80%، مقارنة بعصرنا هذا، الذي تميز بثورة المعلومات، واتساع النشر مما رفع تلك النسبة إلى ما يقدر بـ 90%. ومما لا شك فيه أن فترة السلم تتسم بوفرة المعلومات المتاحة حيث يمكن الحصول عليها بكل يسر من خلال الإعلام المقروء والمسموع والمرئي

بالإضافة إلى التقارير المتخصصة والمنشورة على صفحات الإنترنت وغيرها من إصدارات مراكز الأبحاث والدوريات والكتب وغيرها. وهكذا فإن ازدياد قنوات نشر المعلومات وازدياد مساحة الحرية للتعبير والنشر أدت دوراً هاماً في تسهيل تدفق المعلومات للمصادر المفتوحة وبالتالي الاستفادة منها من قبل المنظمات الاستخبارية المختلفة.³¹ وبالرغم من سهولة الوصول للمصادر المفتوحة واستقاء الكثير من المعلومات منها، إلا أنه يعيبها الكم الهائل المتوفر والذي يشكل عبئاً في تحديد القيم والمفيد منها. كما أن التعرف على أو التثبت من موثوقية مصادر المعلومات المتاحة يجعل العملية أكثر تعقيداً.

لم يعد جمع المعلومات مقتصرًا على الاستخبارات البشرية والذي يرمز لها بـ "HUMINT" أي Human Intelligence ، كالمخبرين والمنشقين والخصوم السياسيين والمنفيين والعملاء، بل اتسع ذلك أيضاً ليشمل الاستعانة بوسائل أخرى كأدوات الجمع التقني والذي أصبح له دور فعال في توفير كم هائل من المعلومات الدقيقة ومنها استخبارات الإشارة³². "SIGINT" أي Signals Intelligence ، واستخبارات القياس والتوقيع "MASINT" أي Measurement and Signatures Intelligence واستخبارات التصوير الجوي "IMINT" أي Imagery Intelligence. واستخبارات المصادر المفتوحة "OSINT" أي Open-Source Intelligence³³.

المرحلة الثالثة:

المعالجة والتجهيز "Processing and Exploitation"

وهي المرحلة التي فيها يتم تحويل الكم الكبير من المعلومات المجمعة إلى نوع من الصياغة الشاملة التي يستطيع المحلل الاستخباري عند استلامها استخدامها والبناء عليها في إعداد المنتج النهائي للاستخبارات.

ففيها يتم حذف المعلومات المتكررة والمتناقضة الواردة من المصادر المختلفة وكذلك يتم ترجمة المعلومات المدونة بلغات أخرى وفك تشفير التقارير المرمزة وإدراج معلوماتها في قواعد المعلومات الاستخبارية لتصبح في متناول من يسمح له بالاطلاع عليها.³⁴

المرحلة الرابعة :

التحليل والإنتاج "Analysis and Production"

يتم في هذه المرحلة تحويل المعلومات الأساسية إلى « استخبارات » لتصبح صالحة للاستعمال من قبل متخذي القرار وصانعي السياسات، وتنطوي هذه العملية على دمج المعلومات المجزأة، واعداد التقييم والتقدير للمعلومات، حيث يعتبر المحلل هو المسؤول الأول والأخير عن تقدير درجة الوثوق والاعتماد والملاءمة للمعلومات موضوع التحليل، ثم يقوم بصياغتها في سياق تسلسلي للمعلومات، وبأسلوب مترابط وتكاملي، جاعلاً الاستنتاج والرأي ضمن سياق « المنتج الاستخباري النهائي » أي ما يسمى « Finished Intelligence ».³⁵

ولا يقتصر عمل المحلل على الاكتفاء بما يرده من معلومات من مرحلة الجمع، بل يستعين ببرامج حاسوبية تساعد في مهامه التحليلية كالبحث في قواعد المعلومات السرية والعلمية بهدف الاطلاع على المعلومات التي تنير له موضوع التحليل من كافة جوانبه. ولا بد أن ندرك بأن عملية التحليل ليست بالمهمة السهلة على الإطلاق، فبالرغم من سعة أفق المحلل وتوفر الإمكانيات التقنية المساعدة له، إلا أن التحليل في حد ذاته ليس من العلوم الدقيقة كما هو الحال في العلوم التطبيقية، فمهما بلغ المحلل من الدقة والمهارة قد تأتي نتائج تحليله مجانبة للصواب، والعكس أيضاً صحيح، فقد يفتقد المحلل للدقة والمهارة ويأتي تحليله وافياً.³⁶

ويجب ملاحظة أن المفردات والأسلوب الذي يكتب به المنتج النهائي للاستخبارات عادة ما يتصف بالحسم والجزم، رغم كونه يتعامل مع حقل يعتمد على مبادئ وأسس الاحتمالات والتقدير. لهذا فإنه من الجوهري أن تنقل الاستخبارات بدقة عالية لمتخذ القرار وصانع السياسات، ليكون ما يبني عليها واضحاً وسليماً.

كما لا يغيب عن أذهاننا أن هناك منظمات استخبارية في كثير من الدول يكون دورها استشارياً فقط، يقدم التوصيات والاستشارات على أن ليس كل ما ينتجه ملزماً للأخذ به، وفي الطرف الآخر، هناك منظمات استخبارية يكون دورها في الحكومة أكبر بكثير من النوع السابق، فهي ترسم السياسات وتطالب بتنفيذها وتشرف على ما يترتب عن معلوماتها.

المرحلة الخامسة:

التوزيع "Dissemination"

وهي المرحلة الأخيرة في الدورة الاستخبارية التي يتم فيها توزيع الاستخبارات على أصحاب القرار وصانعي السياسات، وقد يكون من نتائج هذه المرحلة أن يصار إلى وضع متطلبات أخرى مما يؤدي بالتالي إلى العودة مجدداً إلى المرحلة الأولى التي انطلقت منها. وليس هناك ما يميز هذه المرحلة، عدا طغيان الاستعانة بالمفردات «التجارية» على الأطراف المكونة لها. فتستخدم كلمة «المنتج» لتعني الاستخبارات وتطلق كلمة «زبون» على من يرسل له «منتج الاستخبارات»، وأحياناً تطلق عليهم تسمية «المستهلكين» للاستخبارات. ولكون عصر استخدام الورق والحبر قد بدأ في الانقراض وأصبحت الاتصالات الألكترونية (الإنترنت والانترنك...) الخ) الأكثر يسراً وشيوعاً في تبادل المعلومات بين المنظمات الاستخبارية الرسمية وفروعها والمستفيدين منها، إلا أنه لا يمكن استبعاد من قد

يحتاجون إلى تقارير ورقية، أو إيجاز سريع باستخدام الحاسوب المحمول. وتعتمد تقارير الاستخبارات عند توزيعها على من سيستفيد منها أو من يجب أن يطلع عليها، وليس بالضرورة أن كل تقرير يتم إنتاجه لابد أن يمرر ويوزع، فهناك من التقارير الذي يبقى في دائرة الاستخبارات ويتم التحفظ عليه ضمن قواعدها الاستخبارية.³⁷

الختام

الخاتمة

مارس العرب كغيرهم من شعوب الأرض كافة، العمل الاستخباري واستخدموه بأشكاله المتعددة على امتداد التاريخ البشري. ومن المعلوم أن هذه المهنة الضاربة في أعماق التاريخ لم تكن لتنشأ منذ فجر التاريخ لولا النزعات والصراعات المحتدمة، أحياناً والمستترة في أحيان أخرى، بين بني الإنسان على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم وألوان بشرتهم. ولا غرابة إذن أن تصاحب هذه الحروب والنزاعات أنشطة استخبارية متنوعة وحثيثة. وعلى الرغم من أن الإشارات في المصادر الأولية التي بحوزتنا عن العمل الاستخباري قديماً ليست واضحة تماماً أو أنها كثيراً ما ترد تحت مسميات مصنفه تختلف عن مسميات عصرنا هذا، إلا أنه يمكن للمهتم بهذا الصنف من المعرفة استبيانها بيسر من خلال قرائن وتلميحات متواترة وإشارات ضمنية ليست عصية على الفهم على الرغم من أنها ليست صريحة أو مكشوفة.

فالمعرفة المسبقة عن الأعداء والخصوم والمنافسين كانت ولا تزال مطلباً أساسياً لكل من يسعى إلى القيادة أو إلى فرض إرادته أو الانتصار أو تحقيق أهداف معينة كتوفير الحماية والأمن والحيلولة دون تفشي الجريمة أو اندلاع التمرد والعصيان. والعكس صحيح، فالفشل في التوافر على هذه المعرفة أو الإخفاق ولو جزئياً في التثبت من درجة مصداقيتها ستكون له عواقب وخيمة وتكون القرارات المتخذة عليها وفق «الحقائق» غير المؤكدة مضرة وغير سليمة.

وبالرغم من بدائية الأنشطة الاستخبارية وبساطتها في العصر القديم

مقارنة بما هو متوفر في عصرنا هذا إلا أنها عمومًا كانت تفي بحاجة ممارسيها في تلك الأزمان. وتؤكد الكتب والوثائق التاريخية أن العمل الاستخباري أسهم عبر العصور في إرساء قواعد اتخاذ القرار السليم. فمتى ما توفرت المعلومة اللازمة أصبح مالکها على قدر كبير من الجاهزية والتنبؤ بما قد يضمه الآخرون أو يخططون له، وفي ضوئها يستطيع درء المخاطر المحدقة واتخاذ الإجراء المناسب.

وكغيرهم من بني الإنسان فقد طور العرب العمل الاستخباري وأجادوا مهاراته وطوعوا أنشطته لخدمة أهدافهم وحماية وجودهم. وليس ثمة ما يشير إلى أن العرب الأوائل أنشأوا كياناً مؤسساتياً يعنى بهذا الصنف من العمل أي بجمع المعلومات وتحليلها، سواء على مستوى القبيلة أو التحالفات أو الدولة والذي يمكن لنا أن نشير إليه ككيان استخباري مستقل. إلا أنهم كانوا بسبب تواتر المعلومات والحقائق لديهم من روافد عدة جعلتهم متسلحين بالمعرفة المسبقة عند الحاجة إليها. وكان كل ما يحتاجه زعيم العشيرة أو الحاكم أو قائد الغزوة أثناء الأزمات هو إصدار أوامره لأحد ثقاته للقيام بجمع المعلومات بأساليب مختلفة عن الأهداف المطلوبة ثم يبعثها له أو يعود له بها شخصياً.

وكانت هذه الممارسات وغيرها واسعة الشيع، ذلك أن غريزة حب البقاء وديمومة السيطرة وتوفير الحماية من القبائل الأخرى كانت تتطلب ذلك. ومن هنا تطورت الأنشطة الاستخبارية وتنوعت أشكالها وأساليبها. وكان الإنسان العربي على مر الزمن يتقدم في ممارساته الاستخبارية بكافة عناصرها، فالمعلومات الآنية أو ما يسمى في عصرنا هذا «الاستخبارات الجارية» "Current Intelligence" كانت أغلب ما كان يحتاجه، فمارس الاستطلاع وكافح التجسس وحنل الأخصام ووفر الأمن له ولعشيرته بل قام بعمليات سرية ضد أعدائه ليتخلص منهم أو لإعاقتهم ودرء مخاطرهم.

ويتضح مما وصل لنا من روايات عن أيام العرب، ومن مصادر أخرى متعددة أن العرب القدماء تعلموا من خلال نزاعاتهم وحروبهم الطويلة فيما بينهم، ومع الشعوب الأخرى كيف كانوا يستطيعون الحصول على المعلومات الضرورية لنيل الظفر وانتزاع النصر في النزالات. فتعلموا مثلاً كيف يراقبون المنافسين والأضداد والأعداء بل حتى الأصدقاء على حد سواء، وكيف يرسلون إنذاراتهم المعبرة عن حلول الخطر، أو اقترابه وكيف يمررون معلوماتهم للأطراف المعنية بها مستخدمين الطليعة والريئة والدليل ونحوه كأهم عناصر الاستخبار لديهم. وما غزارة المسميات المتخصصة لمحترفي هذا الحرفة وكثرة ترادفها في الأدب العربي إلا دليلاً على ازدهار وتوسع هذه النشاطات واستخداماتها آنذاك.

إن وفرة المسميات والنوع الوظيفية التي أطلقها العرب الأوائل على من امتهن الاستخبار وفروعه أو ما عرف لاحقاً بـ «صاحب الخبر» تشير وعلى نحو واضح إلى أن العمل الاستخباري كان من المهن والأنشطة الهامة التي كان لها قواعدها وأصولها ومتطلباتها في المجتمعات العربية على مر العصور. فالمسميات الوظيفية المحددة لم تكن تطلق جزافاً على كل من يجمع المعلومات سرّاً أو ينهض بمهمة استخبارية سرية، بل كانت تلك المسميات تنطوي على توصيف دقيق موضوعي لطبيعة العمل المناط بكل فئة من فئات العاملين في هذا الحقل الضروري والحساس. فالأدلاء على سبيل المثال صنفوا وفقاً لمهارتهم، وحذقهم، وهذوئهم، ودهائهم ومعرفتهم الدقيقة بطبيعة الأرض وخصائص الروابط الاجتماعية بها. وكذا الحال مع الريئة والطليعة والعين والسهار والنذير العريان وغيرهم. وتمثل هذه الأنشطة جزءاً من الميراث الثقافي لعرب شبه الجزيرة الذي لم يتبدد أو ينقطع بل توارثه المسلمون فيما بعد، وطوروه لخدمة حاجاتهم الخاصة ومتطلباتهم حسب ما اقتضت ظروفهم الاجتماعية والسياسية وأوضاعهم العامة.

وعلى الرغم من أن العمل الاستخباري العربي قديماً يبدو لأول وهلة أنه كان بدائياً لا سيما عند مقارنته بالتطورات الهائلة في ميدان الاستخبارات في عصرنا الحديث، كالمجال التقني ونحوه، إلا أن تلك البواكير لم تكن سوى البذرات الأولى لهذا العمل الشاق المنظم الذي طوره المسلمون وشرعه القرآن ونظمه وذلك في القرون اللاحقة، ليبقى مصدر إلهام على مر الزمن لمن أراد أن يقيس عليه أو يحاكيه.

فإلى جانب كون القرآن الكريم والسنة المطهرة هما المصدران الرئيسيان للشريعة الإسلامية، فإنهما يؤلفان النبع الدائم الذي يتوجه نحوه المسلمون جميعاً على الدوام ومنهم العاملون في عالم الاستخبارات استلهاماً واستقاءً للتعاليم النيرة المكتنزة في هذين المعينين. وعلى الرغم من أن الاستخبارات لم تحظ باهتمام استثنائي منفرد سواء في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الشريفة إلا أن هناك - كما سبق تبيانها - إشارات واضحة ومباشرة تنير درب العاملين في الحقل الاستخباري وترشداهم إلى السبيل الأمثل لأداء واجبهم الحساس. وهناك أيضاً من الصور الضمنية من عوالم الغيب وقصص الحيوان والأمثلة غير المباشرة ما يمكن عدّه إضاءات إرشادية لكل المنخرطين في الجهد الاستخباري الحساس من الراغبين في الاغتراف من المنهل الخصب الذي يجسده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومن يتمعن في الآيات التي وردت في العديد من السور التي سبقت الإشارة إليها في الفصول السابقة سيجد بما لا يقبل الشك أن العناصر التي تؤلف ما اصطلح على تسميته بالاستخبارات واردة وعلى اختلاف درجاتها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وليس أوضح من ذلك من الآية الكريمة التي قال فيها يعقوب لبنيه في سورة يوسف ﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ التي تشير فيما تشير إليه إلى التجميع السري للمعلومات.

أما التثبت من المعلومات وتأكيدھا فليس بأقل أهمية، حيث قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِحَـٰثِلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

ولتحليل التقارير وصد الشائعات وتحصين المجتمع والحوول دون ما قد يحدث من تبعات ومخاطر قد تصيب جسد الأمة في الحاضر أو المستقبل، يأمر القرآن المسلمين بالتروي في نقل ما يسمعون وأن يوافقوا صناع القرار والمكلفين بتحمل مسؤولية الحكم ما قد يقفون عليه من أخبار أو شائعات، لا سيما تلك التي تنطوي على ما يثير الريبة أو الخوف وما إلى ذلك. ففي سورة النساء الآية ٨٣ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ففي سورة النساء نقراً تحذيراً قرآنياً صريحاً موجهاً إلى كل المؤمنين، يأمرهم القرآن الكريم فيه بأن يكونوا على حذر وتأهب في كل حين، بينما يأمر الله المؤمنين في سورة الأنفال ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ومن ضمن أنواع الخيانة المشار إليها هنا التجسس لصالح أعداء الإسلام لتقويض سلطة الدولة الإسلامية وإمرار المعلومات التي تنفع أعداء المسلمين، إما بوعي أو بغير وعي. إن هذه التحذيرات سواء ما كان يندرج منها في إطار خدمة غير المسلمين أو موالاتهم والعمل معهم أو ما يقترب من ذلك، تشير على نحو جلي إلى الأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام للاستخبارات المضادة.

هكذا إذاً، وقياساً على ما سبق فإن القرآن يحوي ثوابت عناصر وأخلاقيات النشاط الاستخباري ويقدم أيضاً نماذج حياة تجسد حالات فعلية للنشاط الاستخباري كما جاء ذلك في سورة يوسف مثلاً والتي سبقت الإشارة إليها.

ويوضح القرآن أيضًا وفي عدد من المناسبات، كما في قصة الملك سليمان مثلاً، فنون العمل الاستخباري وتشعباته كالاستطلاع واستكشاف المواقع وجمع المعلومات وإعداد التقارير وتحليل المعلومات وصناعة القرار. ولا بد من الإشارة إلى أن الفترة الأولى من الإسلام، لا سيما في حياة الرسول ﷺ وبدء الدعوة، كانت مليئة بالنشاطات التي يمكن من خلالها استشراف المفهوم القرآني للاستخبارات واستجلاء معالمه. وهذه الممارسات تجسد دون شك أساس المنهج الفكري للاستخبارات وفق المنظور الإسلامي.

إن ما استعرضناه من أنشطة العمل السري في زمن الرسول ﷺ يتضح بجلاء أن الرسول الكريم ﷺ كان منذ البدء يعي تمامًا الدور الذي تؤديه «الاستخبارات» في ضمان نجاح عملياته المتصلة بنشر الدعوة وتثبيت دعائم دولة الإسلام في المدينة وفي تحقيق الأهداف الاستراتيجية والتكتيكية لها. فخلال المرحلة السرية من الدعوة والتي استمرت ثلاث سنوات، شعر الرسول الكريم ﷺ بأنه لا بد من اللجوء إلى التكتّم التام وتغليف تحركاته واتصالاته كافة بستار كثيف من السرية المحكمة اتقاء لشُرور المشركين ومكائدهم. وفي هذا الجو المكّي الخانق الذي كان القرشيون يراقبون فيه كل حركة يقوم بها النبي ﷺ ويسعون إلى سماع كل كلمة ينطق بها توجه الرسول ﷺ بادئ ذي بدء نحو الذين يعرفهم وبعد أن ضمن ولاء هذه الصفوة المختارة، أخذ يعلم ويدرب «المنظمين» الجدد ويعرفهم بالإسلام ويثقفهم في أمور الدين دون خشية من غدر أو خيانة. أي أن السرية التامة التي باتت أبرز سمات تلك الفترة المبكرة من الدعوة كانت ضرورة حتمتها الظروف التاريخية التي نشأ الرسول الكريم ﷺ في كنفها والتي كانت تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى الحيلولة دون دحر الدين الحنيف قبل أن ينمو ويتجذر.

وخلال الفترة التالية، أي بعد أن انتظم في الدين الجديد مسلمون

آخرون من «قريش» ويعد أن تم تأسيس قاعدة صغيرة لكنها قوية مقتدرة، قرر الرسول ﷺ أن يطور أسلوب الدعوة ويرفع جزءاً من السرية التي كانت تغلف جميع أوجه الدعوة الإسلامية وذلك داخل المجتمع المكي، وأصبح أقل سرية في دعوته إلى الإسلام، ليس في أوساط أهل مكة فحسب، بل مع من جاءوا إلى مكة لأسباب تجارية أو دينية أو شخصية أيضاً.

وتبدأ المرحلة الثالثة عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة حيث نجح في تثبيت دعائم أول دولة إسلامية عرفت بالبشرية. وقد شهدت هذه المرحلة الأخيرة مواجهات عنيفة ودامية بين المسلمين الجدد وبين الذين رفضوا التخلي عن دين آبائهم واجدادهم وحاولوا وأد الدعوة الجديدة في مهدها. وخلال هذه الفترة تحديداً يمكن القول أن العمل الاستخباري الإسلامي قد بلغ مرحلة مشهودة من النضج الوظيفي والتطبيقي وقد توضحت معالم شرعيته وتثبتت الفروق بين ما هو حلال وما هو محرم فيه. وتم تبني تكتيكات وأساليب جديدة لحماية الدولة الناشئة ونشر الدين الجديد خارج حدود نواة دولة الإسلام.

ومن المؤكد أن النشاطات الاستخبارية التي قسمناها إلى التجميع السري والتحليل والتوزيع والاستخبارات المضادة والعمليات السرية أسهمت على نحو كبير في إقامة أولى قلاع الإسلام في المدينة. بل إنها أثرت على نحو جلي في الفترات التي تلت العصر النبوي والتي امتدت عبر التاريخ الإسلامي في مختلف العصور. وهنا لا بد أن نقرّ مجدداً ونؤكد على أن العناية الإلهية والأبعاد الروحية والأخلاقية السامية المتجسدة في الدعوة الإسلامية هي الأسس المتينة التي استندت إليها نجاحات الرسول ﷺ أولاً وأخيراً. بعد ذلك يبقى القول أننا إذا ما أردنا أن ننظر إلى نشوء الدعوة واتساعها من منظور تاريخي إنساني فإنه لا يمكن أن ننكر الدور الذي نهضت به الاستخبارات

الإسلامية في المساعدة على إقامة الإسلام ونشره في أنحاء الجزيرة. فهذه العمليات والنشاطات والأساليب «الاستخبارية» التي تم تطبيقها خلال المراحل الثلاث من الدعوة الإسلامية، أنشأت لنفسها وبقوة، مكانة في التاريخ الإسلامي كجزء من الميراث الذي يحاول المسلمون أن يتبعوه ويستلهموه ويقتدوا به.

لقد حظيت الاستخبارات السياسية "Political Intelligence" والاستخبارات العسكرية "Military Intelligence" باهتمام في الدولة الإسلامية منذ أوائل عهدها. فنجد أن كتب السير والمغازي للعهد النبوي تتحدث بشيء من التفصيل عن الغزوات والمعارك التي خاضها رسول الله ﷺ في جميع مراحل الدعوة. وفيها ما يشير وبوضوح لا شك فيه إلى أنه كان يولي الاستخبارات العسكرية أهمية بالغة. فقد عمد رسول الله ﷺ إلى العمل على جمع المعلومات واستطلاع أرض المعارك ومراقبة العدو قبل النزال بعد الانسحاب من أرض المعركة أيضًا. ومن جانب آخر تمكن الرسول الكريم ﷺ من خلال الإيفاد المتكرر للطلائع والربايا والكشافة والادلأء، وإبقاء العدو القرشي وغيره تحت الملاحظة المستمرة وتحقيق الحماية اللازمة للحدود المتاخمة للمدينة من أي اعتداء، أن يشيد صرح الإسلام ليشع بهاءً من «المدينة المنورة» فيغمر أرجاء الدنيا كافة. وإلى جانب كل ذلك فقد عمل الرسول الكريم ﷺ على حرمان الأعداء والخصوم من معرفة خطط وتحركات واهتمامات القادة ونواياهم حيث أظهرت الغزوات النبوية الشريفة العبقرية الفذة التي يتمتع بها سيد الخلق رسول الله ﷺ والتي مكنته من تطوير العمل الاستخباري بنشاطاته المختلفة. وكان ذلك من خلال استخدامه الأمثل للمصادر البشرية والجواسيس والاستفادة من معلومات الأسرى والسجناء وتطبيق مبادئ السرية والكتمان والتورية في مقاصد الحملات العسكرية، ومكافحة التجسس، وحرمان الخصم من أي امتيازات قد يحصل عليها.

وقد نوقش ذلك باستفاضة في فصول الكتاب السابقة. ويجدر التنويه هنا إلى أن الرسول الكريم ﷺ قد أمهر في تعامله مع جواسيس العدو الذين ينكشفون له كالمنافقين في المدينة حيث أبقاهم تحت الملاحظة المستمرة «كعبد الله بن أبي» ومن هم على شاكلته، أما الجواسيس الذين يلقي القبض عليهم في الغزوات أو المعارك أو داخل المدينة، فيتم عادة استجوابهم وعرض الإسلام عليهم ونادرا ما يتم قتلهم. ولم يكن الإجراء الأخير مستغربا في تلك الحقبة من الزمن لا سيما بعد أن نزلت آيات الأمر بالقتال. أما من يعتنق الإسلام فيلحق بجماعته أو يبقى في «المدينة» مع أصحاب رسول الله ﷺ وقليل منهم من تم توجيهه وفقا لأهمية موقعه بين قبيلته لخدمة الدين الحنيف أو يطلب منه الاضطلاع بموقف معين يصب نتاجه في مصلحة الإسلام والمسلمين. ولا نبالغ هنا عندما نجد أن عبقرية رسول الله ﷺ قد وجهت قسما منهم بالبقاء في أماكنهم وإحاطة ذلك بستر من السرية والكتمان، فعمل بعضهم كعين لصالح المسلمين ولنا في «العباس بن عبد المطلب» رضي الله عنه مثال يوضح هذا الصنف من العيون.

إن العيون المتمرسنة آنذاك كانت قبل أي معركة أو غزوة تستطلع القوات الغازية، وترصدها، وتقدر تعداد قواتها، وتبعث لقياداتها بتقييم أقرب للواقع وذلك من خلال استدلالات مستمدة من الحقائق الماثلة على الأرض. ومن المؤشرات التي كانت تنطوي على معلومات استخبارية مهمة عدد الركائب التي يمتطيها الخصوم أو الماشية التي ينحرونها لوجبات أفراد قواتهم العسكرية. وقد رأينا ما استنبطه النبي ﷺ وأصحابه من تفاصيل مهمة جدا في أحداث معركتي «بدر» و«أحد». وإلى جانب الرصد المتواصل لجيش العدو وتحركاته فإن الوقوف على استعداد السرايا للغزوات أو جاهزيتها للتصدي لأي اعتداء قد يكون وشيكا كان من الأسباب التي أدت إلى تحقيق النصر على أعداء المسلمين.

وبصفة عامة يمكن أن نلاحظ أن ممارسة الأنشطة الاستخبارية في العهد النبوي بكل مراحله قد تدرجت في التطور والاتقان. فانتقلت من ممارسات بسيطة تعتمد على الملاحظة لتحركات العدو وطرق سيره ونقل أخباره وصفيًا مع إعطاء التوقعات المحتملة أو نحو ذلك إلى تكثيف لأعمال الكشف والطلائع والرياء والعيون وتحليل المواقف السياسية والعسكرية واستغلال المعلومات الاستخبارية لتنفيذ انسب الحلول ولاتخاذ الإجراءات التي تصون الأمن العام وتذود عن شوكة الاسلام.

ولتحقيق النصر فإن القائد العسكري المحنك يسعى دائماً إلى حجب معلومات قواته الحقيقية عن العدو مستخدماً كافة الطرق والوسائل لتحقيق ذلك. ومنها أساليب التضليل والخداع وبث المعلومات المغلوطة عمداً بهدف التشويش على الخصم، الذي يسعى جاهداً للحصول على تلك المعلومات. ومن تلك المعلومات تعداد القوات وتسليحها ومدى جاهزيتها. فمن الأهمية القصوى لأي قائد عسكري أن تتناسب قواته المشاركة في أي معركة مع قوات الخصم، وأن لا يقدم على أي تعرض دون أن تكون هناك فرصة واقعية للنصر. ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا كان القائد مسلحاً بالمعلومات الاستخبارية المستقاة من الاستطلاع لأرض المعركة، ومن طوبوغرافيتها، وتوظيف كل ذلك لصالح قواته لتحقيق الانتصار. إن تسخير كافة الموارد والخبرات اللازمة لإنجاح أي حملة عسكرية لا يكفي إن لم تكن هناك معلومات استخبارية دقيقة يتحرك القائد في ضوئها ويرسم خطته وفقاً لما يرد في هذه المعلومات الاستخبارية.

على أن الحاجة للاستخبارات الاستراتيجية "Strategic Intelligence" عند العرب لم تظهر أو تستشعر على نحو خاص إلا عند ظهور الإسلام وتكوين نواة الدولة الإسلامية في «المدينة المنورة». حينما كانت دولة الإسلام تنظر

بريبة وحذر إلى الإمبراطوريتين المجاورتين: البيزنطية والفارسية. وكانت الحاجة إلى توفر المعرفة المسبقة عن نواياهم وخططهم وتحركاتهم العدائية قد تصاعدت، فنشط رجال العمل الاستخباري في جمع التفاصيل الدقيقة، والمعلومات الاستراتيجية لمعرفة تلك النوايا لدرء المخاطر المحتملة. فبعد «غزوة مؤتة» وازدياد تعداد الجيش الإسلامي أصبحت الحاجة لتوفير الاستخبارات الاستراتيجية، والاستخبارات التكتيكية "Tactical Intelligence" أكثر إلحاحًا. وقد أدت الخطوات التي اتخذت لمعالجة هذا الأمر إلى تطور أساليب جمع المعلومات، والعناصر الاستخبارية الأخرى، وفروعها حتى أصبحت أكثر تقدمًا استخباريًا من جارتها الإمبراطوريتين العظيمين آنذاك اللتين ما لبثتا أن انهارتا لاحقًا أمام جيوش الإسلام الزاحفة المسلحة بالإيمان وعدالة القضية إلى جانب علو كعبها في المجال الاستخباري.

وختامًا لا بد من الإشارة إلى أن أحد أهم الأهداف التي كنت أرمي إلى إبرازها في هذا الكتاب هو استجلاء وتحديد معالم المفهوم العربي الإسلامي للاستخبارات وتبديد الفكرة السائدة بأن المفهوم العربي للاستخبارات كان منسوخًا من الحضارات المجاورة له قبل الإسلام وحديثًا من النموذج الغربي والأمريكي أو النموذج الروسي. فبالرغم من أن العرب كانوا في العصور التي سبقت ظهور الإسلام محدودي الاحتكاك بالقوى الأجنبية المجاورة كالبيزنطية والفارسية، عدا مملكتي الغساسنة والمناذرة شمال الجزيرة العربية في بلاد الشام والعراق، إلا أن تلك العلاقات لم ترق إلى المستوى الذي أمكن فيه تحقيق أي شكل من أشكال التعاون الاستخباري بينهم. وعلى أية حال فقد كانت القوتان العظيمتان آنذاك تفتقران إلى أجهزة استخبارية متطورة ولو بمقاييس ذلك العصر. وكانت قوتا إمبراطوريتيها تعتمدان أساساً على جبروت القوة العسكرية وضخامة عساكرها المجندة وليس على سطوة قدراتها الاستخبارية .

الحوامش

مقدمة

1. معظم الكتابات عن الاستخبارات في الشرق الأوسط تركز على «إسرائيل». ومن بين القلائل الذين كتبوا عن الاستخبارات في العالم العربي هو الكاتب «أندرو راثميل»، على سبيل المثال انظر:
Brotherly Enemies: The Rise and Fall of the Syrian-Egyptian Intelligence Axis, 1954- 1967, Intelligence and National Security 13(1998), 230 - 253.؛ Rathmell, Andrew. Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 1949- 1961 (New York, 1990).
2. Dilks, D.O., The Missing Dimension (Urban, IL: University of Illinois Press, 1984), 1.
3. سورة «الجمعة»، الآية: 2.
4. سورة «آل عمران»، آية: 314.
5. انظر تفسير «ابن كثير» على الرابط التالي:
<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura62-aya2.html>
6. Neustadt R.E. and E. May, Thinking in Time (New York: Free Press, 1986), 233.

تمهيد

1. Peter Jackson, and Jennifer Siegel. *Intelligence and Statecraft: The use and Limits of Intelligence in International Society* (Westport, Conn.: Praeger, 2005), 1.
2. Angelo Codevilla. *Informing Statecraft: Intelligence for a New Century* (New York: Free Press, 1992), 1.
3. Adda B. Bozeman, *Strategic Intelligence and Statecraft: Selected Essays*, (Washington: Brassey's, 1992), 25.
4. "رغم التشابه الكبير بين النظامين في طرق تجميع معلومات الخام، يواكبه في نفس الوقت التقييم المشترك كهدف، الا انه يمكن رؤية النظامين على أنهما يتحركان في اتجاهين مختلفين لأسباب ثقافية في المقام الأول، لا لأسباب الهيكلية أو الظرفية." انظر:
Philip Davies, Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States, *Cambridge Review of International Affairs*, 17, no. 3 (October 2004): 520.
5. Bruce D. Berkowitz and Allan E. Goodman, *Best Truth: Intelligence in the Information Age* (New York: Yale University Press, 2000), 147.
6. John D. Stempel, The Impact of Religion on Intelligence, *International Journal of Intelligence and Counterintelligence*, 18:2 (2005), 282.
7. سورة «النحل»، الآية: 89.
8. انظر تفسير ابن كثير على الرابط التالي:
<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura16-aya89.html#katheer>

9. يشير السجل الإنساني القديم منه والحديث إلى أن السرية والتخفي والنشاطات السرية بات جزءاً لا يتجزأ من النمط العام للحياة، وأن الصراع والتآمر والخداع باتت من معالم العلاقات السياسية والاجتماعية بين البشر وأن تصوراتنا عن العدو تتسم بالدقة، وأن القتال ينظر إليه بشكل إيجابي وعلى أنه عمل نبيل، وأن الناس لديهم استعداد عال لممارسة العنف. وإن الثقة والوثام والسلام يسود في المجتمعات الصغيرة التي يعرف أفرادها بعضهم بعضاً وتجمعهم افكار مشتركة انظر: Bozeman, Strategic Intelligence and Statecraft, 106 -107.
10. Ahmed Youssef Rimawi, *The History Of The Palestinian National Struggle In The Twentieth Century* (Beirut: n.p. 1998), 205 -212.
11. Stempel, The Impact of Religion on Intelligence, *International Journal of Intelligence and CounterIntelligence*, 18:2 (2005), 281.
12. سورة التوبة، الآية 120.
13. محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي: محاسن التأويل (بيروت: دار الفكر، 1978)، 5، الجزء الثامن: 357.
14. تفسير بن كثير، سورة التوبة، الآية: 120.
15. Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order* (New York: Touchstone, 1996), 263.
16. Richard Gabriel, *Islam's first great general*, (Norman: University of Oklahoma Press, 2007), xviii.
17. أبو الفرج وإبراهيم إبياري، كتاب الأغاني (القاهرة: طبعة خاصة تصدرها دار الشعب، 1969)، حيث يذكر أمثلة كثيرة عن حروب طويلة، أمثال البسوس وداحس والغبراء.

الفصل الأول

1. فاتح عبد السلام هارون، رسائل الجاحظ (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964)، 1: 145.
2. انظر لسان العرب، 2: 1090 تحت كلمة الخبر. الكلمة مستعملة في القرآن كثيرا في شكل «خبير»، وكما في سورة فاطر، الآية 14: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وفي سورة النمل، الآية 88: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَذَى أَنْفَنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.
3. انظر كل من الكلمات «الرسائل» و«التقارير» و«الخطابات» و«الاتصالات» في القواميس والمعاجم: تاج العروس، لسان العرب، القاموس المتحد، الغني.
4. ومع ذلك، فقد اعتمدت بعض الدول العربية، مثل المملكة العربية السعودية، مسمى «استخبارات» للإشارة إلى ما قد تطلق عليه بعض الدول العربية الأخرى مسمى «مخابرات».
5. انظر كلمة «جاسوس»، في معجم لسان العرب، والقاموس المتحد، والغني.
6. انظر كلمة «ناموس»، في المصدر السابق.
7. محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، 40.
8. سورة الحجرات، الآية: 12.
9. انظر شرح الإمام الألباني على الرابط التالي:

<http://kulalsalafiyeen.com/vb/showthread.php?t=43115>

10. سورة يوسف، الآية: 87.
11. تفسير بن كثير، سورة الحجرات، الآية: 12. على الرابط التالي:
<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura49-aya12.html>
12. ابن منظور. لسان العرب، تحت كلمة «عين».
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
وانظر كذلك: مرتضى الزبيدي، تاج العروس، على الرابط التالي:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1>
13. صاحب بن عباد، المحيط في اللغة: على الرابط التالي:
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
كما انظر: المرزوقي. شرح ديوان الحماسة، 447.
14. مرتضى الزبيدي، تاج العروس على الرابط السابق. وانظر الزمخشري، أساس البلاغة، 106.
15. انظر الكلمة في المصدر السابق، تاج العروس.
16. انظر الكلمة في المصدر السابق.
17. الخليل بن احمد الفراهيدي، معجم العين، 8: 113.
18. راجع كلمة «مهرول» على الرابط التالي:
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
19. انظر كلمة «حوس» في (العباب الزاخر) على الرابط السابق وتعني بِغْيَةٍ مُتَأَنٍّ مُتَثَبِّتٍ.
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
20. انظر لسان العرب، تاج العروس تحت كلمة فيج.
21. انظر المصدر السابق تحت كلمة شيفة.
22. انظر المصدر السابق تحت كلمة بغية او حواس.
23. انظر المصدر السابق تحت كلمة خريت.
24. انظر المصدر السابق تحت كلمة مثم.
25. انظر المصدر السابق تحت كلمة نقرس.
26. انظر المصدر السابق تحت كلمة حمك.
27. الزمخشري، اساس البلاغة، 133.
28. المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، 447.
29. تاج العروس، مصدر سابق.
30. الميداني، مجمع الأمثال، 270-288.
31. المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 900.
32. انظر كلمة طليعة في معجم لسان العرب.
33. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، 12: 181.
34. الواقدي، فتوح الشام، 202.
35. الأصفهاني، الأغاني، 20: 45.
36. عروة بن الورد العبسي، ديوان عروة بن الورد (بيروت: دار الكتاب العربي، 1994)، 55.
37. أوس بن هجر، ديوان ت. محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، 1979)، 68.

38. الأصفهاني، الأغاني، 8: 252.
39. أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، 220.
40. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربي، 1147.
41. انظر كلمة الفيوج، تاج العروس.
42. الراضي الصاغاني، العباب الزاخر، 450.
43. انظر الكلمة في تاج العروس، لسان العرب، القاموس المتحد.
44. المصدر السابق.
45. طُفَيْل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان. شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان وهو أوصف العرب للخيول وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها.
46. انظر معجم لسان العرب كلمة (فيج) الفَيْج، على الرابط:
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
47. انظر لسان العرب على: كلمة بَغِيَّة. على الرابط:
<http://www.baheth.info/all.jsp?term>
48. لسان العرب، مصدر سابق.
49. لسان العرب، حرف الخاء، مصدر سابق.
50. هو رؤية بن العجاج بن رؤية بن لبيد بن صخر، ينتهي إلى زيد مناة التميمي الراجز المشهور من أغراب البصرة. أدرك الدولتين، وكان لغويًا علامة، وأراجيزه مشهورة، وتوفي بالبصرة سنة 145 هـ.
51. الميداني، مجمع الأمثال، 176.
52. لسان العرب، مصدر سابق.
53. انظر كلمة أمم في المصدر السابق.
54. الأصفهاني، الأغاني، 21: 386.
55. انظر ص 82.
56. <http://krc.orient.ox.ac.uk/resources/publications/macdonald/Ancient%20Arabia%20a%20Brief%20History%20and%20Time-Line.pdf>
57. المصدر السابق، 5-7.
58. علي عز الدين هبن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار سادير، 1982)، 139.
59. منقولة بتصرف من: P. Youle, Putzger, historic world atlas
60. Sir John Glubb, *A Short History of the Arab Peoples* (London: Hodder and Stoughton, 1969).
61. Ibid., 234.
62. Ibid., 236.
63. الأصفهاني، الأغاني، 12: 159.
64. خير الدين زركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 2002)، 2: 153 - 154.
65. ابو فرج الاصبهاني. الأغاني. (د.ت) 12: 158.
66. الأصفهاني، الأغاني، 5: 2-130.
67. A.F.L. Beeston, *Warfare in ancient South Arabia* (2nd-3rd centuries A.D.): studies in

old South Arabian epigraphy Series fasc. 3 (London: Luzac, 1976), 711.

68. Glubb, *A Short History of the Arab Peoples*, 25.
69. Philip K. Hitti, *The Arabs: A Short History* (London: Macmillan, 1950), 13.
70. للاستزادة ينظر الفصل الخامس والخمسون «الحروب» في الجزء الثاني من موسوعة الدكتور جواد علي الموسوعة (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) الجزء الثاني الطبعة الثانية من منشورات جامعة بغداد 1993.
71. عبد اللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام (بيروت: دار الأندلس، 1963)، 176.
72. المصدر السابق، 169.
73. للمزيد من التفاصيل ينظر: الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي: العصر الجاهلي (بيروت: دار المعارف).
74. أوس بن حجر، الديوان، ت. محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ب.ت.)، 66.
75. سوق عكاظ بالقرب من مدينة الطائف، أعيد إحياءه في مكانه القديم ويقوم سنوياً باستلهم ماضيه ومحاكاته، فيحضره المثقفون والمؤرخون وفطاحلة الشعراء ليدلي كل منهم بما تجود به قريحته، حتى أصبح هذا المهرجان السنوي يترقبه من هو متعطش للشعر العربي من ادباء ونقاد وشعراء ويشرف عليه أمير منطقة مكة المكرمة الشاعر الأمير/خالد الفيصل.
76. طه إبراهيم أحمد، تاريخ النقد العربي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري (بيروت: دار الكتب العلمية 2003)، 153.
77. معاهدة حرب البسوس،
<http://encyclopedia.aarabiah.net/soundboards-and-war>
العرب يستعملون كلمة «الأيام» بشكل رمزي ليرمز إلى أيام الحرب. انظر الأغاني:
<http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/3063614.html> (accessed July 05, 2008).
78. أبوفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، 5: 25.
79. علي عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 507.
80. المصدر السابق، 1: 521.
81. أبوفرج الأصفهاني، الأغاني (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، 24: 29-35.
82. محمد التونجي، ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، (بيروت: دار صادر، 1998)، 26.
83. انفراد ياقوت بنسبه إلى قبيلة «الأزد» من بين المؤرخين فقال إن اسمه «لقيط بن يعمر الأزدي».
84. ابن عبدربه، العقد الفريد، 1: 80.
85. ديوان لقيط، مصدر سابق ذكره، 22.
86. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، 1: 103.
87. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 22.
88. قبيلة إياد هي أكبر القبائل العربية التي هاجرت من تهامة غرب الجزيرة العربية، واستقر بها الحال في العراق وعلى مقربة من بلاد فارس، وكانت هذه القبيلة ذا باس وسؤدد، هاجمت جيوش كسرى فخطط لأبعادها عن حدوده الا انها هزمتها المرة تلو الأخرى.
89. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 72 - 73. ؛ ابن قتيبة الدينوري، مصدر سابق، 1: 103.
90. محمد التونجي، مصدر سابق ذكره، 74 - 90. ؛ الاصفهاني، الأغاني، 22: 357.
91. ديوان لقيط، مصدر سابق ذكره، 23. حيث يوضح المحقق ان القصيدة تلك بلغ علمها لكسرى فسخط عليه،

- وقطع لسانه ثم قتله.
92. الأغاني مصدر السابق، 1: 181.
93. المصدر السابق، 24: 29-35.
94. المصدر السابق، 1: 586.
95. انظر أعلاه ص: 33
96. علي عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 492.
97. انظر أعلاه ص: 47 و 48.
98. انظر ما ورد من شرح عن معنى النذير العريان في معجم لسان العرب؛ محمد اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (دار ابن كثير، 1993)، 6: 2656.
99. المصطلح «عيون» كان حتى بداية القرن العشري اسماً شاع إطلاقه على الجاسوس، خصوصاً في الجزيرة العربية. انظر محمد سلام زناتي، نظم العرب القبلية المعاصرة، (بيروت: 1994)، 2: 1326.
100. انظر كلمة «ربيئة» في تاج العروس، القاموس المحيط، الأغاني.
101. علي عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، 1: 116. انظر موقع الباحث العربي على كلمة الرواد على الرابط: <http://www.baheth.info>
102. أبو عبيد عبد الله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم (د.م.، د.ت.) 1: 80.
103. وجاء في لسان العرب ان كلمة «الرُّوَاد» وهي جمع كلمة «رائد»، "وأصل الرائد الذي يتقدّم القوم يُبْصِر لهم الكلاً ومساقط الغيث، ومنه حديث الحجاج في صفة الغيث: ... وفي حديث وفد عبد القيس: إِنَّا قَوْم رَادَّةٌ؛ وهو جمع رائد كحكاكة وحائك، أي نرود الخير والدين لأهلنا".
104. أبو عبيدة معمر بن المثنى، أيام العرب قبل الاسلام: نقائض جرير والفرزدق (بيروت: دار الكتاب العربي، 1908-09)، 2: 650 - 75، 75-84.
105. رعد محمود أحمد برهاوي، العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ وإلى نهاية العصر الأموي (إريد: دار المتنبي، 2001)، 26.
106. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ت. عبد السلام هارون (د.م.، 1960)، 1: 617-625.
107. عثمان بن عمرو الجاحظ، البيان والتبيين، ت. عبد السلام هارون (الكويت: المكتب العربي، 1968)، 1: 98.
108. البكري، معجم، 1: 92.
109. المصدر السابق، 2: 411.
110. مصعب بن عبد الله الزبيري، كتاب نسب قريش، صححه وعلق عليه ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، 1953)، 210.

الفصل الثاني

1. سورة فصلت، الآية: 42.
2. سورة يوسف، الآية: 111.
3. سورة الحجر، الآية: 9.

4. أبو عبدالله محمد القرطبي، تفسير القرآن (دار إحياء التراث العربي: بيروت، 1985)، 40:84. و Philip Hitti, *History of the Arabs*, 116.
5. صحيح البخاري، باب جمع القرآن. حديث رقم 4701.
6. "روى البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس، وإنني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعه، وإنني لأرى أن تجمع القرآن؛ قال أبو بكر: فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير؛ فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن؛ قلت: كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: هو والله خير؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره".
7. انظر الرابط التالي: <https://goo.gl/images/OJE3DY>
8. سورة الروم، الآية: 37.
9. سورة يوسف، الآية: 111.
10. سورة الزمر، الآية: 27.
11. سورة الكهف، الآية: 54.
12. أبو عبد الله محمد الدمشقي، الأمثال في القرآن الكريم (د.م.، د.ت.)، 1.
13. سورة القصص، آية: 4-13.
14. سورة يوسف، آية: 67-87.
15. تفسير الآيتين، 67 و 87 من سورة يوسف: سمرقندي المسمى بحر العلوم، تفسير القرآن (بيروت: دار الكتب العالمية، 2006)، 2:165. انظر أيضاً: محمد طاهر عاشور. تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار سحنون، 1997)، 13:20. كما انظر: تفسير الوسيط الطنطاوي على الرابط: <http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/qortobi/sura39-aya27.html>
16. أبو الفرج جمال الدين البغدادى، زاد المسير (بيروت: دار الفكر، 1987)، 4:190.
17. سورة النساء، الآية: 71.
18. أبو عبد الله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985)، 5:275.
19. أحمد الصاوي المالكي، تفسير الجلالين (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999)، 3:117.
20. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. تفسير السعدي (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.)، 1:169.
21. سورة النمل، الآية: 20 - 22.
22. أبو جعفر الطبري. تفسير الطبري (دار المعارف: بيروت، 1992)، 19:93.
23. سورة النمل، الآية: 23.
24. سورة النمل، الآية: 24 - 25.
25. سورة النمل، الآية: 27-31. جدير بالذكر هنا أن هناك وثيقة نشرت حديثاً في الارشيف الوطني البريطاني تبين توظيف الحمام في اعمال تجسسية خلال الحرب العالمية الثانية من قبل البريطانيين والنازيين. انظر صحيفة الديلي تلغراف تحت العنوان التالي:

Ben Fenton: Documents Reveal Role of Winged Spies The Daily Telegraph, 21

March 2007. على الرابط التالي:

<http://www.telegraph.co.uk/news/uknews/1546107/Documents-reveal-role-of-winged-spies.html>

26. سورة الحجرات، الآية: 6.
27. الوليد بن عقبة بن أبي معيط، هو أخ عثمان ابن عفان رضي الله عنه من أمه، أسلم يوم فتح مكة، كان استعمله رسول الله ﷺ على جمع الصدقات من بني المصطلق ثم بني تغلب في عهد عمر ثم ولاه عثمان الكوفة قبل أن يستدعيه ويعزله. انظر: الزركلي. الاعلام. 1314.
28. بني المصطلق هم بطن من قبيلة خزاعة سكنوا قديداً، وبها وقعت غزوة رسول الله ﷺ المعروفة بغزوة بني المصطلق.
29. أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري (بيروت: دار المعارف، 1992)، 26:78.
30. سورة النساء، آية: 94.
31. انظر تفسير ابن كثير على الرابط التالي:
http://quran.ksu.edu.sa/index.php#aya=4_94&m=hafs&qaree=husary&trans=ar_mu
32. سورة النساء، الآية: 83.
33. تفسير القرطبي، 5: 291.
34. سورة التوبة، الآية: 73. وقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَفِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، سورة النساء، الآية: 88.
35. سورة الممتحنة، الآية: 1.
36. ساره وهي من مولاي عبد المطلب كانت، مغنية في مكة وكانت تردد بغنائها أشعار الهجاء ضد رسول الله، أهدر الرسول ﷺ دمه ثم عفا عنها عند فتح مكة وأسلمت.
37. وقد ورد في السيرة الحلبية، روايات ثلاث لنص كتاب حاطب وهي «إن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرته الله تعالى عليكم، فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله تعالى ناصره ووليه. وقيل فيه: إن محمداً قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر، وقيل فيه إن رسول الله ﷺ قد أذن بالغزو ولا أراه إلا يريدكم، وقد أحببت أن تكون لي يد بكتابي إليكم».
38. صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (الإسكندرية: دار الوفاء، 2007)، 343:1.
39. أبو عبد الله محمد الدمشقي، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996)، 252:3.
40. محمد بن أبي بكر التلمساني، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (الامارات: مركز زائد للتراث والتاريخ، 2001)، 130:1.
41. انظر معاهدة يهود المدينة على الرابط:
http://www.alhawali.com/popups/print_window.aspx?article_no=4818&type=3&expand=1
42. أبو عبد الله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار احياء التراث، 1985)، 396:4.
43. المصدر السابق، 397:7.
44. سورة الانفال، الآية: 27. انظر الألوسي، تفسير الألوسي، 991:4.
45. ابن كثير، سورة الأنفال، الآية: 27.
46. سورة التوبة، الآية: 47. انظر ابن كثير، تفسير ابن كثير، 141:8.

47. سورة الأحزاب، الآية: 13.
48. سورة الأحزاب، الآية: 12.
49. سورة الأحزاب، الآية: 60.
50. تفسير الآية 60 من سورة الأحزاب: انظر أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة، 1992)، 35:22.
51. See Second World War Posters, <http://www.ww2poster.co.uk/> (accessed April 14, 2008).
52. انظر سورة النساء، الآية: 83. وكذلك: سورة المائدة، الآية: 2.
53. أبو جعفر محمد الطبري، تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار الفكر، 1978)، 114:15. الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (مصر: د.ت)، 119:10.
54. Sherman Kent. *Strategic Intelligence for American World Policy*, 3.
55. سورة الأنفال، آية: 60.
56. الرازي، مفاتيح الغيب، 149. على الرابط: http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=132&ID=2700

الفصل الثالث

1. سورة الحجرات، الآية: 6.
2. سورة الحجرات، الآية: 12.
3. سورة الإسراء، الآية: 77.
4. مناع القطان، تاريخ التشريع الإسلامي، 71 - 73.
5. "Major Religions of the World Ranked by Number of Adherents," at: http://www.adherents.com/Religions_By_Adherents.html. (accessed April 01, 2008).
6. ريتشارد غبريل، أمريكي الجنسية، بروفيسور قسم الدراسات والتاريخ في الكلية العسكرية الملكية بكندا وقسم دراسات الدفاع في كلية القوات الكندية بتورانغو. سبق أن عمل أستاذاً للتاريخ والسياسة كلية الحرب بالجيش الأمريكي. مؤلف أكثر من 40 كتاباً.
7. Gabriel. *Islam's First Great General*, xviii-xix.
8. البروفيسور روي غودسون أستاذ فخري في جامعة جورج تاون. من 1993 - 2015، شغل أيضاً منصب الرئيس التعليمي، بالمركز الوطني للمعلومات الاستراتيجية. وكان الدكتور غودسون مستشاراً لمجلس الأمن القومي الأمريكي، وما يتصل بها من برامج ووكالات للحكومة الأميركية، وكذلك لدى الأمم المتحدة، ومنظمة الدول الأمريكية، والحكومات الأجنبية ومؤسسات المجتمع المدني. وقد قاد أيضاً فرق البحث التي ابتكر المواد الأكاديمية الجديدة في جورج تاون وغيرها من الجامعات، وبرامج التعليم والتدريب المدني والحكومة في الولايات المتحدة والخارج.
9. "استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود" حديث صحيح، أخرجه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة 3، باب الأدب والاستئذان والصلة، رقم الحديث 1453.
10. سيف الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (الرياض: دار السلام، 1979)، 80.

11. المرجع السابق، 80.
12. عبد الملك بن هشام المعارفي، السيرة النبوية لابن هشام (بيروت: دار الجيل، د. ت.)، 2: 320.
13. سورة الأنفال، الآية: 60-61.
14. انظر تفسير الآية أعلاه على الرابط
<http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer-saadi-waseet-baghawy-qortobi-tabary-tanweer-eerab/sura8-aya60.html#eerab>
15. المباركفوري، الرحيق المختوم، 183.
16. المصدر السابق، 185.
17. المصدر السابق، 185.
18. المصدر السابق، 185.
19. المصدر السابق، 186.
20. المصدر السابق، 186.
21. المصدر السابق، 186 - 187.
22. الطبري، تاريخ، 2: 296.
23. معركة أحد على الرابط
- <http://www.johina.net/vb/t13799.html> (accessed April 01, 2008)
24. ذوالحليفة هو مكان يبعد عن المسجد النبوي بالمدينة المنورة 14 كيلومترا تقريبا ويقع في الصاحية الشهيرة «أبيار علي» وهو ميقات المغادرين من المدينة إلى «مكة المكرمة».
25. غدير الأشطاط: اسم لمكان يقع وراء عُسفان أي على بعد ثمانين كيلو من مكة.
26. الواقدي، المغازي، 2: 580.
27. مالك بن عوف بن سعد يلقب بأبي علي النصري، فارس وشاعر من أهل الطائف كان زعيم قبيلة هوزان قاد جيش الكفار ضد رسول الله ﷺ في غزوة حنين التي انتهت بهزيمته وفراره إلى الطائف فتحصن مع أهل ثقيف فيها، وعندما سمع بعفو رسول الله ﷺ عنه إذا أتاه، فخرج خلصة واتجه إلى رسول الله ﷺ على رأس وفد من هوزان فعفى عنه ورد عليه أهله وولده ومنحه مائة من الإبل، أسلم فيما بعد وولي أمر قومه.
28. الواقدي، المغازي، 3: 893.
29. أسير بن زرام هو أحد زعماء اليهود أمرته اليهود عليها بعد أن قتل سلام بن أبي الحقيق، قتله الصحابي عبد الله بن أنيس عندما حاول الغدر بهم عندما اصطحابه في ثلاثين من قومه إلى رسول الله ﷺ.
30. الواقدي، المغازي، 2: 566.
31. المصدر السابق، 2: 566 - 7.
32. الواقدي، المغازي، 2: 117.
33. البرهاوي، العيون والجواسيس، 82.
34. المرجع السابق، 32.
35. المصدر السابق، 1: 406.
36. المصدر السابق، 1: 407.
37. البرهاوي، العيون والجواسيس، 99-102.
38. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 639.

39. المصدر السابق، 2: 640.
40. المصدر السابق، 2: 641.
41. ورد في النص: «شدوا عليه»، ولا يمكن تفسير هذا إلا على أنهم عاملوا الرجل بشدة وقسوة.
42. كتاب المغازي، مصدر سابق، 2: 562.
43. المصدر السابق 1: 194.
44. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 796. وانظر أيضاً: علي بن برهان الحلي، السيرة الحلبية، (القاهرة: ب. م. 1964)، 3: 74.
45. حاطب ابن أبي بلتعة لخمى القبيلة من مشاهير المهاجرين شهد معركة بدر وكان من سفراء رسول الله ﷺ، بعثه إلى المقوقس صاحب مصر مات سنة ثلاثين للهجرة.
46. المغازي، مصدر سابق، 2: 798.
47. المغازي، مصدر سابق، 2: 798 - 9.
48. سورة الفتح، الآية: 24.
49. انظر ص: 149-152.
50. المنجنيق آلة حربية لقذف الصخور والمقذوفات الأخرى على الأعداء.
51. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 805 - 6.
52. المصدر السابق. 3: 1047.
53. سورة التوبة، الآيتان: 107-108.
54. انظر ص 299.
55. علي بن علي طالب، كما نعلم هو ابن عم الرسول ﷺ. كان أول فدائي في الإسلام حيث نام على سرير رسول الله ﷺ ليلة هجرته إلى المدينة تمويها على كفار قريش الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ. شارك في كل الغزوات مع رسول الله ﷺ وكان الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ. دام في خلافته 4 سنوات و8 أشهر و22 يوماً.
56. الزبير بن العوام هو ابن عمه رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب. اعتنق الاسلام في السابعة عشرة وكان أحد الأعضاء الستة من مجلس الشورى الذي اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا من بينهم خليفة بعده، رضي الله عنهم جميعاً.
57. سعد بن أبي وقاص من بني زهرة، فخذ أمة بنت وهب أم الرسول. كان أيضاً من أوائل من أسلموا. يعرف في السيرة بأنه أول رمى بساومه في سبيل الله. افتداه الرسول ﷺ بأبويه فقال له يوم أحد: "ارم سعد فداك أبي وأمي".
58. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 52.
59. كان «أبوسفيان» من دهاة العرب. كان يكبر رسول الله ﷺ بعشر سنوات، ومات حين بلغ التسعين، بعد وفاة الرسول بعشرين سنة. حارب الرسول ﷺ حتى فتح الله عليه مكة، وهنالك اعتنق «أبوسفيان» الاسلام.
60. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 52.
61. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 53.
62. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 1624.
63. ابن هشام، المصدر السابق، 3: 60.
64. كتاب المغازي، مصدر سابق، 1: 298.

65. Gabriel. *Islam's First Great General*, xxi.
66. Ibid., xxv.
67. Ibid., xxv.
68. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثامنة، (بيروت: المطبعة البولسية، 1961)، 59. هذا، وفي تعليقه على تأثير الشعراء على عامة البشر، يشير بن تيمية إلى أن الشعر، على عكس النثر، بإمكانه أن يروج للشعور المعادي للإسلام ويدفع الناس عن الصراط المستقيم. وانظر أبو الفتح الشهرستاني، موسوعة الملل والأهلب، الطبعة الأولى، بيروت، 84.
69. سيرة ابن هشام، السيرة النبوية (بيروت: دار الجيل. ب.ت.)، 4: 417.
70. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 173. كذلك انظر سيرة بن هشام (المرجع الأكبر للتراث الاسلامي)، 4: 417 وما بعده.
71. سيرة بن هشام (المرجع الأكبر للتراث الاسلامي)، 1: 243.
72. يوسف بن عبد الله بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (القاهرة: دار المعرفة، 2006)، 3: 218. وأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق محمد حميد الله، أنساب الأشراف (القاهرة: دار المعارف، 1987)، 1: 373.
73. طبقات بن سعد، 22: 1.
74. اللجنة العلمية لنصرة خاتم الأنبياء على الرابط التالي:
<http://www.nusrah.tv/showthread.php?t=432>, (accessed May10, 2008).
75. ابن كثير، البداية والنهاية، 4: 8.
76. سورة النساء، الآيتان: 51-52.
77. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 189-99.
78. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 170.
79. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3: 947.
80. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 391.
81. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 171.
82. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 391-5.
83. الطبري، تاريخ، 3: 156.
84. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 468-9.
85. الطبري، تاريخ، 3: 30.
86. المصدر السابق، 3: 35.
87. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، كتاب اختلاف الفقهاء (مدينة لايدن: 1938)، 41.
88. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (القاهرة: دار التحرير، 1388هـ)، 2: الجزء 1: 69.
89. يا قوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، 1979)، 5: 424.
90. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (القاهرة: دار التحرير، 1388هـ)، 2: الجزء 1: 68.
91. علي محمد الصلابي، سيرة أبو بكر الصديق: شخصيته وعصره (القاهرة: مؤسسة إقرأ، 2006)، 162 وما بعده.
92. انظر فيروز الديلمي في حكومة دبي، إدارة الشؤون الإسلامية والنشاطات الخيرية، الموقع التالي:
<http://www.dicd.gov.ae/vEnglish/detailnewspage.jsp?articleID=3627&pageFlag=1>

(accessed April 12, 2008).

93. الطبري، تاريخ، 3: 185.
94. أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار النشر للجميع، 1958)، 6-125.
95. المصدر السابق، 3: 1383-1385.
96. هو أخو خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) الذي انتزع سوريا وفلسطين من قبضة البيزنطيين (632 للميلاد). ويعتبر خالد بن الوليد أشهر قائد إسلامي على الإطلاق ومن بين القلائل في التاريخ لم يخسر معركة واحدة طوال حياته.
97. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، 4: الجزء 1: 94.
98. الطبري، تفسير الطبري (دار المعرفة: 1990)، 4: 68.
99. المباركفوري، الرحيق المختوم، 30-129.
100. المصدر السابق، 130.
101. يذكر سيف الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم أن عتبة بن أبي لهب جاء إلى الرسول ﷺ مرة وصرخ في وجهه وتعرض له بيده وشق قميصه. وفي أخرى، جاء عتبة بن أبي معيط والرسول ﷺ ساجد خلف المقام بالكعبة، فوضع رجله على عنقه الشريفة وغمزها فما رفعها حتى كادت تخرج عيناه الشريفتان من مكانهما، ص 45 وما بعدها.
102. هو كما نعلم أحد ألد أعداء رسول الله. كان زعيمًا من زعماء قريش قبل الإسلام. ولقبه هذا، «أبو جهل»، يتداوله الناس منذ سماه به رسول الله ﷺ (حسب بعض الروايات) بعد أن رفض دخول الإسلام رغم ما عُرف عنه من رجاحة عقله، حيث كان يُعرف عند قومه «بأبي الحكم».
103. المباركفوري، الرحيق المختوم، 78.
104. المباركفوري، الرحيق المختوم، 80.
105. جلال الدين السيوطي، جامع المسانيد والمراسيل (دار الفكر، 1994)، 125. انظر ابن هشام، 1: 661-663.
106. ابن أبي شيبه، مصنف بن أبي شيبه، 5: 359.
107. البلاذري، أنساب الأشراف، 2: الجزء 1: 68.

الفصل الرابع

1. انظر: كتب التاريخ والسير والمغازي التي دونها ابن إسحاق والواقدي وابن هشام وابن كثير والمباركفوري.
2. الرحيق المختوم، مصدر سابق ذكره، 1: 194؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 3: 256.
3. Combs, Richard E., and John D. Moorhead. The Competitive Intelligence Handbook. Metuchen, N.J.: Scarecrow Press, 1992, 197 pp. see also: Reg Whitaker (1999). Review of Evan H. Potter 'Economic Intelligence and National Security' Canadian Journal of Political Science, 32, pp 185-186. doi:10.1017/S0008423900010325.
4. أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار الكتب العالمية، 1995)، 4: 31.
5. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 13. وانظر أيضًا: الإصابة في تمييز الصحابة، المصدر السابق، 6: 465.
6. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 3: 31.

7. الحافظ بن حجر العسقلاني، فتح الباري (لبنان: دار الفكر، د.ت)، 7: 218.
8. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، سنن الكبرى، (بيروت: دار الفكر، 1996)، 10: 64.
9. ستار جبار الزهيري، جهاد الرسول المصطفى والسلام العالمي (بيروت: دار الأثر، 2002)، 1: 237.
10. المباركفوري، الرحيق المختوم، 184؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني، معرفة الصحابة (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002) 3: 402.
11. المباركفوري، الرحيق المختوم، 93.
12. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 200، البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 3: 249.
13. المباركفوري، الرحيق المختوم، 96.
14. الجحفة: ميقات أهل الشام والقادم من طريقهم تقع بين بالقرب من مدينة رابغ وتبعد عن مكة 183 كم.
15. المباركفوري، الرحيق المختوم، 97.
16. المصدر السابق، 98. كما انظر البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 4: 116.
17. الرحيق المختوم، المصدر السابق، 99.
18. Richard A Gabriel. *Muhammad: Islam's First Great General*, p 98.
19. الرحيق المختوم، المصدر السابق ذكره، 99.
20. الواقدي، المغازي، 1: 27.
21. المباركفوري، المصدر السابق، 100.
22. المصدر السابق، 101.
23. الزهيري، جهاد الرسول المصطفى والسلام العالمي، 1: 290.
24. البداية والنهاية، مصدر سابق ذكره، 4: 4.
25. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 198.
26. علي عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة: دار الكتب العلمية، د.ت) 3: 165.
27. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 282.
28. المصدر السابق، 1: 204.
29. المصدر السابق، 1: 205.
30. أبي عمر يوسف القرطبي، الاستيعاب في معرفة الاصحاب (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995) 4: 50.
31. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1: 17.
32. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 207.
33. الطبقات الكبرى (ابن سعد)، مصدر سابق ذكره، 1: 185.
34. الواقدي، المغازي، مصدر سابق ذكره، 1: 208.
35. المصدر السابق، 1: 210.
36. المصدر السابق، 1: 210.
37. الرحيق المختوم، مصدر سابق ذكره، 1: 236.
38. المصدر السابق، 1: 273.
39. علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون انسان العيون (بيروت: دار المعرفة، 1980)، 2: 628.
40. الواقدي، مصدر سابق، 2: 441-3.
41. المباركفوري، الرحيق المختوم، 140.
42. المصدر السابق، 140.
43. المصدر السابق، 141.
44. المصدر السابق، 141.
45. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 444 – 445.

-
46. عبد القادر التحفي، أيام الاسلام الحاسمة في القرآن (لندن: دار الحكمة، 2001)، 157.
 47. أبو عبدالله أحمد الشيباني، مسند الامام احمد، (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1993)، 4: 434.
 48. الرحيق المختوم، مصدر سابق، 157.
 49. ابن هشام، السيرة النبوية، 2: 224.
 50. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 57.
 51. المصدر السابق، 2: 460.
 52. المصدر السابق، 2: 406.
 53. المباركفوري، الرحيق المختوم، 143.
 54. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 490.
 55. السيرة الحلبية، مصدر سابق ذكره، 3: 61.
 56. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 356.
 57. الواقدي، المغازي، 4: 119.
 58. المصدر السابق، 4: 121.
 59. المصدر السابق، 4: 114.
 60. المصدر السابق، 4: 125.
 61. المصدر السابق، 4: 119-120.
 62. المصدر السابق، 4: 116.
 63. الرحيق، 1: 358-9.
 64. سورة التوبة: آية: 25.
 65. الواقدي، المغازي، 4: 135-140.
 66. سورة التوبة: 26.
 67. الواقدي، المغازي، 4: 125.

الفصل الخامس

1. سورة المزمل: آية: 10.
2. سورة النمل: آية: 70.
3. سورة الحجر: من الآية: 94-95.
4. المباركفوري، الرحيق المختوم، 158.
5. ابن اسحاق، السيرة والمغازي، 150 - 151. ابن هشام، السيرة، 1: 270 - 271.
6. سورة المسد، الآيات 1 إلى 5.
7. يمكن رؤية مناقشة كاملة حول الحرب النفسية التي شنّها الكفار ضد المسلمين الأوائل في كتاب علي حسين الخربوطي، الرسول والحرب النفسية (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ب. ت.).
8. المباركفوري، الرحيق المختوم، 86.
9. محمد السيد أبو يابس، الهجرة: مرحلة من مراحل التغيير الإنساني (القاهرة: دار الصحوة، 1985)، 123.
10. المصدر السابق، 127.
11. أبو عبدالله محمد القرطبي، تفسير القرطبي (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1985)، 9: 15.
12. من ذلك مثلاً، إسلام أخت عمر بن الخطاب وزوجها. فكان وقع عمر على إسلامها بمحض الصدفة، وذلك

- حينما وجدهما يقرآن آيات من القرآن الكريم. وعلى أثر ذلك دخل عمر رضي الله عنه في الدين الجديد. المباركفوري، الرحيق المختوم، 49.
13. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، ب. ت. 14: 87).
14. حسين بن محسن بن علي جابر، الطريق إلى جماعة المسلمين (مصر: المطبعة الأزهرية، 1320هـ)، 358.
15. ابن عبد البر، الاستيعاب، 1: 131.
16. ابن هشام، السيرة، 1: 367 - 375.
17. W. Montgomery Watt, *Muhammed: The Prophet and Statesman* (Oxford: OUP, 1961), 57.
18. روي أن الرسول ﷺ عوض الأرقم عن بيته، حيث عرض عليه بيتاً بالمدينة عندما هاجر إليها.
19. W. Montgomery Watt, *Muhammed: The Prophet and Statesman*, 58.
20. لمناقشة شاملة عن تاريخ البريد القديم في الجزيرة انظر: Adam Silverstein, *Postal Systems in the Pre-Modern Islamic World* (Oxford, OUP: 2007).
21. Immanuel Kant and Hans Siegbert Reiss, *Kant's Political Writings*. Cambridge Studies in the History and Theory of Politics. [Selections.] (Cambridge Eng.: University Press, 1970), 105- 6.
22. William Curry ??Captivity and Adventures of Joesph Pills, “ The Dublin University Magazine Feb 1846 No CLVIII. Vlo. XXVII, 223.
23. انظر العنوان التالي على الرابط:
<http://www.livescience.com/27503-camels.html>
24. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 203 - 5.
25. رعد البرهاوي، العيون والجواسيس، 64 - 67.
26. المشار إليه هنا وفي أماكن أدناه، هو إلى «قصة الزير سالم كاملة»، للاستزادة على الرابط التالي:
<http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815>. (accessed January 24 , 2016)
27. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 459.
28. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 579.
29. المباركفوري، الرحيق المختوم، 177.
30. المصدر السابق، 178.
31. المباركفوري، الرحيق المختوم (دار الوفاء، 2007)، 1: 342.
32. المباركفوري، الرحيق المختوم، 178.
33. M. H. Haykal, *The life of Muhammad* (London: Shorouk International, 1983), ivi .
34. حسن محمد نور الدين، أدوات الكتابة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، 2008)، 25. كذلك انظر: Alwakeel Bassuani, ?Alwaragoon, at
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout. accessed February 24, 2008
35. ابن حجر العسقلاني، المطالب العلية، 11: 685.

36. محمد علي بن طباطبا، الفخري في الأداب السلطانية (بيروت: دار القلم، 1997)، 106.
37. انظر البريد عند العرب على الرابط التالي:
<http://www.alriyadh.com/72891>
38. محفوظ، الاستراتيجية العسكرية، 439.
39. D. Khan, *The Codebreakers* (London: Sphere books, 1973), p. 80.
40. Ibrahim A. Al-Kadi, The origins of cryptology: The Arab contribution, *Cryptologia* 16, no 2 (April 1992): 5 - 10.
41. سورة محمد، الآية: 30.
42. تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 7: 297.
43. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البدايه والنهايه (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 4: 102.
44. أي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع خبيب بن عدي.
45. ابوبكر الصولي، ادب الكتاب الصولي، (د. د. ت)، 1: 92.
46. Inmate's words: The poems of Guantanamo, ? The Independent, Thursday, 21 June 2007. <http://www.independent.co.uk/news/world/americas/inmates-words-the-poems-of-guantanamo-454005.html>. (accessed February 22, 2008).
47. انظر قصة رومانسية الزير سالم على الموقع:
<http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815>. (accessed January 24, 2016).
48. انظر المصدر السابق.
49. المباركفوري، الرحيق المختوم، 162.
50. مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1988)، 4: 273 - 4. الحديث بهذا النص ونصوص مشابهة وردت في البخاري ومسنند الإمام أحمد، وغيرهما من الكتب.
51. جامع الترمذي، أبواب التفسير، 2: 130.
52. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، 2: الجزء 1: 25.
53. محمود شيت خطاب، محمد جمال الدين محفوظ وعبد اللطيف الزايد، اقتباس النظام العسكري في عهد النبي ﷺ (الدوحة: الشؤون الدينية، 1981)، 196.
54. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 728.
55. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، 2: الجزء 1: 25.
56. خطاب، النظام العسكري، 169.
57. المباركفوري، الرحيق المختوم، 92.
58. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1959)، 6: 499.
59. محمود بن أحمد العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، د. ت.)، 14: 275.
60. أبي عمر يوسف القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس (المرجع الأكبر للتراث الإسلامي)، 1: 316.
61. الشيخ رشيد رضا، الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)،

69.

62. صححه الألباني في سلسلة الصحاح.

63. الحلبي، السيرة الحلبية، 3: 11.

64. عبدالله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، ط1 (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت)، 1: 140.

65. الزبير كما هو معروف هو ابن عمه النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى.

66. صحيح البخاري.

67. في سورة المرسلات، الآية 20، يطرح الله على الناس سؤالاً يجادلهم به: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾. وهناك إشارة أخرى في سورة السجدة، الآية 8، ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾. وفي كل ذلك ينبهنا القرآن إلى أن الحياة البشرية مخلوقة من ماء حقير. وفي سورة الأنبياء، الآية 30، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. لذلك فإن الرسول إنما كان يقصد بعبارة «من ماء» أنه هو وأبوكر من ماء، أي مخلوقان من ماء. إلا أن الأعرابي فهم من ذلك أن الرسول ﷺ من أرض الماء، أو بلاد ما بين النهرين كما كانت العراق تعرف وقتئذ.

68. سورة المرسلات، آية: 20.

69. الواقدي، كتاب المغازي، 2: 756.

Sun Tzu on the Art of War, Translated from the Chinese by Lionel Giles, at 70

<http://www.chinapage.com/sunzi-e.html>;

أنظر كذلك 59، Gabriel, "The Warrior Prophet".

71. الواقدي، كتاب المغازي، 1: 299.

72. المصدر السابق، 1: 536.

73. المصدر السابق، 2: 796.

74. محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، ط4 (بيروت: دار الجيل، د.ت)، 1: 122-3.

75. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2: 109.

76. ابن هشام، 2: 287.

77. أبو داود، سنن أبي داود، 7: 257.

78. الواقدي، فتوح الشام، ط4، 1: 122 - 3.

79. عباس محمود عقاد، عبقرية عمر، 84.

80. محمد بن إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوي (بيروت: د. د. 1960)، 376.

81. المصدر السابق. 376.

82. الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص20.

Ralph Sawyer and Mei-chün Sawyer. *The TAO of Spycraft* (Boulder, Colo : 83

Westview Press, 2004), 274.

84. محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996)، 1: 95.

85. الأول فتح مصر وأصبح حاكمها في عهد عمر بن الخطاب، أم الثاني فهو أبو الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة أحد شعراء بني أمية.

86. المباركفوري، الرحيق المختوم، 43.

87. المصدر السابق، 44.
88. محمد بن قيم الجوزية، زاد المعاد، 1: 95.

الفصل السادس

Sun Tzu, Sun Pin, Ralph D. Sawyer Trans., *The Complete Art of War*, (Boulder: Westview Press, 1996), p. 117- 123.

يعتبر كتاب «فن الحرب» مرجعاً للاستراتيجيات والوسائل العسكرية حيث لا يزال يدرس الى الان في كليات القيادة والاركان والدورات العسكرية المتقدمة الامريكية منها والأوربية. 2. يعرف القاموس الإنجليزي المعرفة المسبقة بانها الوعي بالشيء قبل وجوده او حدوثه. انظر الرابط التالي:

<http://www.thefreedictionary.com/foreknowledge> (accessed 22.11.2011).

3. انظر الصفحات السابقة 36 - 42.
4. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 344؛ وانظر أيضاً: الواقدي، كتاب المغازي، 4: 42.
5. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 151، 1: 250، 3: 59، 1: 177، 3: 280.
6. الواقدي، المغازي، 4: 275 - 276.
7. البلاذري، فتوح الشام، 488. الواقدي، المغازي، 1: 20، 2: 7، 3: 168، 4: 8. المباركفوري، الرحيق، 1: 226.
8. ابن كثير، السيرة النبوية، 4: 681؛ التلمساني، تخریج الدلالات السمعية، 208 - 209؛ ابن هشام، السيرة، 2: 402.
9. المباركفوري، الرحيق، 1: 368.
10. الطبري، تاريخ الطبري، 4: 318؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، (بيروت: دار التراث العربي)، 27: 123.
11. زاد المعاد، مصدر سابق ذكره. 1: 121.
12. مصعب بن عمير أحد المبايعين الاثني عشر رجلاً من اهل يثرب في العقبة الأولى وعند علمت امه بذلك طردته من البيت ومنعت عنه الاكل والشرب.
13. ابن هشام، سيرة ابن هشام، 2: 252.
14. المباركفوري، الرحيق، 1: 140.
15. المباركفوري، الرحيق، 1: 380.
16. المباركفوري، الرحيق، 1: 297.
17. انظر كتاب رسول الله لحاكم البحرين. «(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نغزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية).

18. محمود شيت خطاب، سفراء النبي، ط1، (جده: دار الاندلس الخضراء، 1417)، 1: 16.
19. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 389. خطاب، سفراء النبي، 1: 17.
20. الرحيق المختوم، مصدر سابق . 1: 183.
21. الواقدي، المغازي، 1: 282. ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 226، 343، 344.
22. ابن سعد، الطبقات، 2: 253.
23. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 226، 343، 344.
24. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3: 7.
25. الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، 4: 5.
26. ابن سعد، طبقات الكبرى، 5: 268.
27. ابن سعد طبقات، 2: 68.
28. سورة النساء، آية: 98.
29. الواقدي، المغازي، 3: 108. ينظر ابن الاثير، اسد الغابة، 3: 39-40، 114-117، 4: 129-135، 320-321، 2: 435-436.؛ ينظر ابن عبد البر، الاستيعاب، 1558: 5-1559؛ 3: 1230-1232، 2: 643-644، 4: 1621-1623.
30. ابن سعد، الطبقات، 1: 185. انظر ايضاً الواقدي، المغازي، 2: 627 و 1: 10-13. و 1: 186-187. و 2: 747.
31. ابن سعد، الطبقات، 4: 1: 98؛ الواقدي، المغازي، 1: 259.
32. البلاذري، انساب، 1: 156-185.
33. انظر خريطة القبائل العربية قبل الاسلام ص 259.
34. المباركفوري، الرحيق، 1: 253.
35. البلاذري، انساب الأشراف، 31.
36. الواقدي، المغازي، 1: 283.
37. المباركفوري، الرحيق، 1: 253-254.
38. الواقدي، المغازي، 2: 129.
39. الواقدي، المغازي، 3: 111.
40. الواقدي، المغازي، 4: 226.
41. المباركفوري، الرحيق، 1: 185.
42. الواقدي، المغازي، 1: 55؛ المباركفوري، الرحيق، 1: 190-191. والطبري، تاريخ، 2: 535، 612-622.
43. الواقدي، المغازي، 1: 56.
44. الواقدي، المغازي، 5: 18.
45. المباركفوري، الرحيق، 1: 185.
46. ابن هشام، السيرة النبوية، 3: 59.
47. المصدر السابق، الرحيق، 260 و 324 و 407.
48. الواقدي، المغازي، 3: 990.

49. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (دار الكتب العلمية، د. ت.)، 3: 23.
50. الواقدي، المغازي، 2: 214.
51. ابن هشام، السيرة النبوية، 4: 208.
52. المباركفوري، الرحيق، 1: 328.
53. المباركفوري، الرحيق، 1: 293.
54. المباركفوري، الرحيق المختوم، 1: 317.
55. الواقدي، المغازي، 1: 274.
56. الواقدي، المغازي، 2: 189.
57. المصدر السابق، 2: 187-190.
58. الواقدي، المغازي، 3: 103؛ وابن عبد البر، الاستيعاب، 1: 408.
59. الواقدي، المغازي، 3: 275.
60. الواقدي، المغازي، 2: 639.
61. حَيَّي بن أخطب من سادة بني النضير ووالد أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ صفية كان خطيباً وشاعراً وكان قد شهد للنبي بالنبوة إلا أنه ناصبه العداة.
62. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1: 210.
63. عبد الرازق بن همام الصنعاني، المصنف. (جنوب افريقيا: المجلس الإسلامي، 1390)، 5: 359.
64. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، 1988)، 4: 137؛ الواقدي، 2: 196-198.
65. المباركفوري، الرحيق، 1: 323.
66. الرحيق، 1: 309.
67. المباركفوري، الرحيق، 1: 309.
68. المباركفوري، الرحيق، 1: 22.
69. المصدر السابق، 1: 306.
70. المصدر السابق، 1: 380.
71. انظر عام الوفود والذي سردتها كتب المغازي والسير وكانت سبعون وفداً؛ المصدر السابق، 1: 380 - 388.
72. الواقدي، المغازي، 4: 215.
73. المباركفوري، الرحيق، 1: 369.
74. الواقدي، المغازي، 4: 218.
75. خطاب، الرسول القائد، 282.
76. Ralph D Sawyer. *The TAO of Spy craft*, 222.
77. انظر صفحات الكتاب 36 - 43.
78. الواقدي، المغازي، 2: 217.
79. الواقدي، المغازي، 3: 98.

80. الواقدي، المغازي، 3: 176.
81. الواقدي، المغازي، 3: 176.
82. الواقدي، المغازي، 4: 34.
83. الواقدي، المغازي، 1: 272.
84. الواقدي، المغازي، 2: 212.
85. أبو فرج جمال الدين الجوزي. الوفا بأحوال المصطفى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)، 1: 755.
86. نور الدين الحلبي، السيرة الحلبية، 942.
87. الواقدي، المغازي، 1: 334؛ الطبري، تاريخ الطبري، 3: 37. المبار كفوري، الرحيق، 368.
88. الواقدي، المغازي، 3: 299.
89. اسمه عبد عمرو ابن صَيْفِي بن مالك الاوسي، أحد زعماء الاوس، وكان يكنى بالراهب.
90. الواقدي، المغازي، 1: 285.
91. الواقدي، المغازي، 4: 277.
92. للاستزادة عن حصون خيبر ومواقعها انظر المبار كفوري، الرحيق، 1: 318 - 319.
93. الواقدي، المغازي، 3: 176.
94. المصدر السابق، 2: 136.
95. المصدر السابق، 2: 202.
96. المبار كفوري، الرحيق المختوم، 321.
97. المصدر السابق، 1: 323.

الفصل السابع

1. C.I.A., "The need for intelligence literature, ? by Sherman Kent (Fall 1955), https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/csi-publications/csi-studies/studies/fall00/ch1_needForIntelligence.pdf. (accessed Oct. 15, 2009).
2. C.I.A., "Wanted: a definition of intelligence, ? By Michael Warner (2002), <https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/kent-csi/pdf/v46i3a02p.pdf>. (accessed September 15, 2009).
3. Rand Corporation, "Toward a theory of intelligence, workshop report (Santa Monica, CA: RAND, 2006), http://www.rand.org/pubs/conf_proceedings/2006/RAND_CF219.pdf. (accessed September 15, 2006).
4. Walter Laqueur, *The Uses and limits of intelligence*, 2nd ed. (New Brunswick: Transaction Publishers, 1993), 255.
5. Ibid., 255.
6. Ibid., 339.

7. Ibid., 308.
8. Sherman Kent, *Strategic Intelligence for American World Policy* (Princeton, New Jersey: Princeton University Press 1951), 3.
9. Ibid., ix.
10. Roy Godson, ed., *The Intelligence Requirements for the 1980's* (Washington, DC: NSIC, 1979), 5- 7.
11. Roy Godson. *Dirty Tricks or Trump Cards: U.S. Covert Action and Counterintelligence* (New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 2001), 5- 6.
12. Angelo Codevilla. *Informing Statecraft: Intelligence for a New Century* (New York: Free Press, 1992), 4.
13. John Bruce Lockhart, ' *Intelligence: A British View, in British and American Approaches to Intelligence*', ed. K.G. Robertson (New York: St. Martin's Press, 1987), 37.
14. Abram Shulsky and Gary Schmitt, *Silent Warfare: Understanding the World of Intelligence* (Washington DC: Potomac Books, 2002), 235.
15. Ibid., 175.
16. Philip H. J. Davies, "Ideas of Intelligence," *Harvard International Review* 24, no. 3 (Fall 2002): 62. Academic Search Complete, EBSCOhost (accessed March 09, 2006).
17. Ibid., 5- 6.
18. Philip H. J. Davies, "Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States," *Cambridge Review of International Affairs* 17, no. 3(2002): 495-520. Academic Search Complete, EBSCOhost (accessed October 03, 2006).
19. Michael Herman, *Intelligence Power in Peace and War* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 380.
20. عبد الله مناصره، الاستخبارات العسكرية في الاسلام (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1991)، 180-181.
181. محمد جمال محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (القاهرة: دار الاعتصام، ط 2، 1976)، 150-151.
21. انظر: اللواء الركن محمود شيت خطاب ، اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ اقتباس النظام العسكري في عهد النبي ﷺ ، (قطر، الدوحة: مطابع قطر الوطنية)، 165.
22. هيثم الأيوبي ، الموسوعة العسكرية، ط1، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١)، 1: 62.
23. Frank Kitson, *Bunch of Five* (London: Faber, 1977); Steve Bruce. *The Red Hand: Protestant Paramilitaries in Northern Ireland* (New York: Oxford University Press, 1992); Richard English, *Armed Struggle: The History of the IRA* (Oxford: Oxford University Press, 2003); Rogelio Alonso, *The IRA and Armed Struggle. Political Violence* (London: Routledge, 2007); John Andrade, *World Police & Paramilitary*

- Force* (New York: Stockton Press, 1985); Richard L. Maullin, *Soldiers, Guerrillas, and Politics in Colombia* (Lexington, Mass.: Lexington Books, 1973).
24. Charles Lutton, "Pearl Harbor: Fifty Years of Controversy", *The Journal of Historical Review* 11, no 4 (1991): 431- 467.
25. فشل الاستخبارات الغربية في العراق يناقشه "Philip H J Davies and Anthony Gleees" في كتابهم: Butler's Dilemma: Lord Butler's Inquiry and the Re-Assessment of Intelligence" on Iraq's WMD" BCISS Working Paper 1. The Social Affairs Unit. © The Social Affairs Unit 2004.
26. Peter Gill and M.Phythian, *Intelligence In The Insecure World* (Cambridge: Polity Press, 2006), 1- 2.
27. <https://www.e-education.psu.edu/sgam/node/15>.
28. Peter Gill and M.Phythian, *Intelligence In The Insecure World*, 2.
29. Ibid., 62.
30. Ibid., 62.
31. Ibid., 63.
32. Abram Shulsky, *Silent Warfare*, 11 - 37 وكذلك Peter Gill and M. Phythian, *Intelligence In The Insecure World*, 63- 76.
33. <https://www.e-education.psu.edu/sgam/node/15> 50. Shulsky, *Silent Warfare*, 41- 57؛ Peter Gill, *Intelligence In The Insecure World*, 84 – 86.
34. Peter Gill, *Intelligence In The Insecure World*, 4.
35. Ibid., 90 - 95.
36. Ibid., 84
37. Ibid., 8890-.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربية

- * ابن أبي شيبة، عبد الله محمد بن إبراهيم العبسي، مصنف بن أبي شيبة، بيروت: عالم الكتب، 1998.
- * ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة: دار الكتب العلمية، 1996.
- * ابن حجر، أوس، ديوان أوس بن حجر، ت. محمد يوسف نجم، بيروت: دار صادر، د. ت.
- * ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، القاهرة: دار التحرير، 1388.
- * ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.
- * ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة: دار المعرفة، 2006.
- * ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت: دار المسيرة، 1979.
- * ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1343.
- * ابن قيم، الجوزية محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996.
- * ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1993.
- * ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعاقري، السيرة النبوية لابن هشام، بيروت: دار جليل، د. ت.
- * ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، د. د.، د. ت.
- * أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق، سنن أبي داود، المدينة: المكتبة السلفية، 1968.
- * أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، د. د.، د. ت.
- * أبو عبيدة، معمر بن المثنى البصري، أيام العرب قبل الإسلام: نقائص جرير والفرزدق، بيروت: دار الكتاب العربي، 1908.
- * أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1994.
- * أبو يابس، محمد السيد، الهجرة: مرحلة من مراحل التغيير الانساني، القاهرة: دار الصحوة، 1985.
- * أحمد، طه إبراهيم، تاريخ النقد العربي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- * الأصفهاني، أبو الفرج وإبراهيم إبياري، كتاب الأغاني، القاهرة: دار الشعب، 1969.
- * الأصفهاني، أبو فرج، الأغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.
- * البرهائي، رعد محمود أحمد، العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول وإلى نهاية العصر الأموي، الأردن: إريد، دار المتنبي، 2001-02.
- * البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، القاهرة: دار المعرفة، 1959.
- * البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، بيروت: دار النشر للجميع، 1958.
- * البيهقي، محمد بن إبراهيم، المحاسن والمساوي، بيروت: د. د.، 1960.
- * التحفي، عبد القادر، أيام الاسلام الحاسمة في القرآن، لندن: دار الحكمة، 2001.
- * الجاحظ، عثمان بن عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت: المكتبة

الكتب الإنجليزية :

- * Akram, A. The Sword of Allah: Khalid Bin Al-Waleed, His Life and Campaigns. Delhi: Adam, 2007 Adam Silverstein, Postal Systems in the Pre-Modern Islamic World ,Oxford, OUP: 2007.
- * Andrew Rathmell, Secret War in the Middle East: The Covert Struggle for Syria, 1949-1961-, New York, 1990.
- * Bozeman, Adda B. (Adda Bruemmer). Strategic Intelligence & Statecraft: Selected Essays. Brassey's Intelligence & National Security Library. Washington: Brassey's US, 1992.
- * Dvornik, Francis. Origins of Intelligence Services: The Ancient Near East, Persia, Greece, Rome, Byzantium, the Arab Muslim Empires, the Mongol Empire, China, Muscovy. New Jersey: Rutgers University Press, 1893.
- * Glubb, Sir John. A Short History of the Arab Peoples. London: Hodder and Stoughton, 1969.
- * Godson, Roy ed. The Intelligence Requirements for the 1980's. Washington, D.C: NSIC, 1979.
- * Godson, Roy. Dirty Tricks or Trump Cards: U.S. Covert Action and Counterintelligence. New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 2001.
- * Haykal, M. H. The life of Mohammad. London: Shorouk International, 1983.
- * Herman, Michael. Intelligence Power in Peace and War. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
- * Hitti, Philip Khuri. History of the Arabs. London: Macmillan, 1948.
- * Hitti, Philip Khuri. The Arabs; a Short History. London: MacMillan, 1950.
- * Huntington, Samuel P. The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order. New York: Touchstone, 1996.
- * Kant, Immanuel and Hans Siegbert Reiss. Kant's Political Writings. Cambridge Studies in the History and Theory of Politics. [Selections.]. Cambridge Eng.: University Press, 1970.
- * Kent, Sherman. Strategic Intelligence for American World Policy. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1951.
- * Laqueur, Walter. The Uses and limits of intelligence, 2nd ed. New Brunswick: Transaction Publishers, 1993.

-
- * Richard A Gabriel. Muhammad: Islam's First Great General, Campaigns and Commanders, Norman, Okla.: University of Oklahoma Press, 2007.
 - * Rodgers, Russ. The Generalship of Muhammad: Battles and Campaigns of the Prophet of Allah, Gainesville, FL: University of Florida Press, 2012.
 - * Sawyer, Ralph and Sawyer, Mei-chün. The TAO of Spycraft. Boulder, Colo: Westview Press, 2004.
 - * Schippmann, Klaus. Ancient South Arabia: From the Queen of Sheba to the Advent of Islam. Princeton, N.J: Markus Wiener, 2001.
 - * Shulsky, Abram N. and Gary James Schmitt. Silent Warfare: Understanding the World of Intelligence. 3rd, rev ed. Washington, D.C.: Brassey's, Inc, 2002.
 - * Watt, W. Montgomery. Muhammad: Prophet and Statesman. A Galaxy Book, 409. London, New York: Oxford University Press, 1974; 1961.

الدوريات :

- * Al-Kadi, Ibrahim A. "The origins of cryptology: The Arab contribution." Cryptologia 16, no 2 (April 1992): 10.
- * Brotherly Enemies: The Rise and Fall of the Syrian-Egyptian Intelligence Axis, 1954-1967-, Intelligence and National Security 13 (1998), 230-253-. (accessed June 9, 2006).
- * Davies, Philip H. J. «Ideas of Intelligence.» Harvard International Review 24, no. 3 (2002): 62. Academic Search Complete, EBSCOhost. (accessed March 9, 2006).
- * Davies, Philip H. J. «Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States.» Cambridge Review of International Affairs 17, no. 3 (October 2004): 495-520-. Academic Search Complete, EBSCOhost. (accessed March 9, 2006).
- * Gabriel, Richard A. "Muhammad: The Warrior Prophet." The Quarterly Journal of Military History (MHQ) Summer (2007). (accessed March 9, 2008).
- * Philip Davies, Intelligence Culture and Intelligence Failure in Britain and the United States, Cambridge Review of International Affairs, 17, no. 3 (October 2004). (accessed March 9, 2006).
- * Philip H J Davies and Anthony Glees, «Butler's Dilemma: Lord Butler's Inquiry and the Re-Assessment of Intelligence on Iraq's WMD» BCISS Working Paper 1. The Social Affairs Unit. © The Social Affairs Unit 2004.
- * Scott, Len and R Gerald Hughes. "Intelligence, Crises and Security: Lessons from History?." Intelligence and National Security 21, no. 5 (2006): 655. (accessed July

6, 2008).

- * Stempel, John D. "The Impact of Religion on Intelligence." International Journal of Intelligence and Counterintelligence 18, no. 2 (2005): 2812-. (accessed March 9, 2006).

المواقع الإلكترونية

«التفسير» تفاسير الآيات القرآنية، على الموقع:

<http://www.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=1&tTafsirNo=86&tSoraNo=60&tAyaNo=1&tDisplay=yes&Page=2&Size=1>, (accessed April 18, 2008)

«تصنيف الأديان الرئيسية في العالم وفقاً لعدد أتباعها» أتباع، على الموقع:

http://www.adherents.com/Religions_By_Adherents.html. (accessed 1st April 2008).

«صحيح البخاري» الأحاديث، على الموقع:

<http://www.sahihalbukhari.com/sps/sbk/sahihalbukhari.cfm?scn=searchresults>. (accessed April 25, 2008).

«مفاتيح الغيب» فخر الدين الرازي، على الموقع:

<http://www.daraleman.org/forum/uploads/Quraan/MafathRazi.rar>. (accessed April 25, 2008).

«اللجنة العلمية لنصرة خاتم الأنبياء» على الموقع:

<http://www.nusrah.tv/showthread.php?t=432>, (accessed 10th May 2008).

«الرحيق المختوم» المباركفوري، على الموقع:

<http://www.shamela.ws/open.php?cat=24&book=803>. (accessed on July 05, 2007).

«أسباب النزول» الواحدي، على الموقع:

<http://www.altafsir.com/AsbabAlnuzol.asp?SoraName=1&Ayah=0&img=A&LanguageID=2>. (accessed on July 05, 2008)؛

<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2>. (accessed on July 05, 2009).

«الوراقون» الوكيل بسيوني، على الموقع:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout. (accessed February 24, 2008).

«قصة الزير سالم كاملة» على الموقع:

<http://www.alhandasa.net/forum/showthread.php?t=54815>. (accessed on January 24, 2008).

-
- «معاهدة حرب البسوس»، شبكة العربية، على الموقع:
<http://encyclopedia.aarabiah.net/soundboards-and-war>. (accessed on July 05, 2008).
- «موقع الشئون الإسلامية»، فيروز الدليمي على الموقع:
<http://www.dicd.gov.ae/vEnglish/detailnewspage.jsp?articleID=3627&pageFlag=1>.
(accessed 12th April 2008).
- «تفسير الجلالين» فارس حمزة، على الموقع:
<http://www.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=0&tTafsirNo=0&tSoraNo=1&tAyahNo=1&tDisplay=no&LanguageID=2>. (accessed on 7th July 2008).
- «المعاجم» الكلمات ومشتقاتها، على الموقع:
<http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/3063614.html> (accessed July 05, 2008).
- «حسن تزو»، من مقولات على الموقع:
http://thinkexist.com/quotation/all_war_is_deception/149682.html. (accessed
October 27, 2008).
- «الإسلام أون لاين» على الموقع:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1182170319033&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout (accessed February 24, 2008).
- «معركة بدر» جهيئة. على الموقع:
(<http://www.johina.net/vb/t13799.html>). (accessed April 25, 2008)
- تفسير الآيات «تفسير ابن كثير» على الموقع:
<http://quran.alislam.com/Tafseer/DispTafsser.asp?nType=1&bm=&nSeg=0&l=arb&nSora=49&nAya=6&taf=KATHEER&tashkeel=1>. (accessed May 15, 2009).
- Michael Warner. "Wanted: a definition of intelligence"
<https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/kentcsi/pdf/v46i3a02p.pdf>. (accessed September 15, 2005).
- Rand Corporation. "Toward a theory of intelligence." workshop report.
<http://www.rand.org.pdf/rd/nsrd.p.7>. (accessed September 15, 2006).
- Rand Corporation. "Toward a theory of intelligence." workshop report. http://www.rand.org/pubs/conf_proceedings/2006/RAND_CF219.pdf. (accessed September 15, 2006).
- «الرحيق المختوم» صفي الدين المباركفوري، على الموقع:
<http://www.shamela.ws/open.php?cat=24&book=803>. (accessed on April 25, 2008).
- Sherman Kent. "The need for intelligence literature."
https://www.cia.gov/library/center-for-the-study-of-intelligence/csipublications/csi-studies/studies/fall00/ch1_needForIntelligence.pdf. (accessed Oct. 25, 2006).
- «قصة أبو لبابه» على الموقع:
-

- <http://sirah.alislam.com/display.asp?f=rwd3277.htm>. (accessed April 15, 2008).
- Stud. Intel. "Wanted: a definition of „intelligence." in Stud. Intel. v46:32002) 22-15-) pdf. https://www.cia.gov/csi/kent_csi/default.htm. (accessed September 15, 2005).
- مقولات صن تزو، كتاب «فن الحرب» على الموقع:
<http://www.chinapage.com/sunzi-e.html>. (accessed September 15, 2005)
- عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، انظر «الباحث العربي» على الموقع:
www.baheth.info/all.jsp?term=. (accessed September 18, 2008).
- «إعلانات الحرب العالمية الثانية» "على الموقع:
www.ww2poster.co.uk/ (accessed April 14, 2008).
- «الوراق»، للكتب الإسلامية التراثية والمحققة، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/index.jsp?option=1>. (accessed September 15, 2010).
- «كتاب المغازي» للواقدي على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=39#authorbooks>(accessed May 20, 2008).
- «لسان العرب» ابن منظور على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=89&option=1>. (accessed April 14, 2006).
- «الطبقات الكبرى» ابن سعد على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=24>.(accessed May 20, 2008).
- «كتاب الأغاني» أبو فرج الاصبهاني، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=9&option=1>. (accessed April 14, 2006).
- «تاج العروس» مرتضى الزبيدي، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=282&option=1>. (accessed April 14, 2006).
- «القاموس المحيط» الفيروزآبادي، على الموقع.
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=276&option=1>. (accessed April 14, 2006).
- «فتوح الشام» الواقدي، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=71&option=1>. (accessed April 14, 2006).
- «الإصابة في معرفة الصحابة» ابن حجر العسقلاني، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=264&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«أسد الغابة» ابن الأثير، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=142&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«تفسير القرطبي» القرطبي، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=55&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«معجم البلدان» ياقوت الحموي، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=94&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«معجم ما استعجم» أبو عبيد البكري، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2010&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«فتوح البلدان» البلاذري، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=84&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«مجمع الأمثال» الميداني، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=12&option=1>. (accessed April 14, 2006).

«انساب الأشراف» البلاذري، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=161>. (accessed April 14, 2006).

«سيرة ابن هشام» ابن هشام، على الموقع:
<http://www.alwaraq.net/Core/waraq/coverpage?bookid=2039>. (accessed April 14, 2006).

اسطوانة مدمجة

المرجع الأكبر للتراث الإسلامي، شركة العريس، الرياض: المستقبل الرقمي. الإصدار الثالث.
سيرة ابن هشام، «المرجع الأكبر للتراث الإسلامي»، 3.

ترتبط الاستخبارات بالسياسة ارتباطاً وثيقاً، فمنذ فجر التاريخ و"الأنشطة الاستخباراتية" جزء لا يتجزأ من فن الحكم "Statecraft" وكغيرهم من شعوب الأرض فقد برع العرب الأوائل في ممارستها واستخدامهم لها، فاستطاعوا من خلالها حماية كياناتهم والحفاظ على ديمومة بقائهم عبر العصور. قبل ظهور الإسلام واكب العرب تطورات الأحداث حولهم وسخروا تلك الأنشطة لحماية حدود أوطانهم، بل واستفادوا منها داخلياً لتوفير الأمن واحتواء المنافسين لزعاماتهم ودرء المخاطر المحدقة بمواردهم الاقتصادية. وساعدت الأنشطة الاستخباراتية مستخدميها في جمع المعلومات اللازمة وتوفيرها في الوقت المناسب لاتخاذ القرارات السليمة في ضوءها. وقد شملت تلك الأنشطة مجموعة واسعة من الأعمال السرية والعلنية التي وظفت لتحقيق أهدافهم المرحلية والاستراتيجية عبر العصور المتتالية وصولاً إلى وقتنا الحاضر حتى باتت تلك الأنشطة مكوناً عضوياً لآليات الأجهزة الاستخباراتية الحديثة.

بمنظور معاصر يوظف الكاتب العناصر الأربعة المكونة للمفهوم الاستخباري الحديث لتتبع الأنشطة الاستخباراتية في عصور ما قبل الإسلام كأيام العرب ثم ما تلاها في الفترة النبوية، حيث شنت خلالها معارك وغزوات عدة ونفذت فيها عمليات سرية متنوعة بدوافع مختلفة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. إن أثر الدين الإسلامي في تقنين تلك الممارسات الاستخباراتية وتشريعها، واضح وجلي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما الممارسة والتطبيق في الفترة "النبوية الشريفة" إلا برهان دامغ على مشروعية تلك الأنشطة. لقد تركت العناصر الأربعة الاستخباراتية: الجمع السري، والتحليل والتوزيع، والاستخبارات المضادة، والعمليات السرية، أثرها في المصادر القديمة من كتب التراث العربي والإسلامي، مكونة بذلك نواة المفهوم الاستخباري الإسلامي، كما أن ما صاحبها من فنون استخباراتية: كالتشفير والتمويه والإخفاء وأساليب التواصل والالتزام بالسرية واستخدام البيوت الأمانة وغيرها من الفنون الاستخباراتية، موثقة في بطون الكتب التراثية.

هذا الكتاب يسعى ليس فقط، لتبديد الأسطورة التي طالما ردها البعض، بأن العرب استنسخوا فكرهم الاستخباري عن الحضارات المجاورة لهم، بل ليؤكد أيضاً أن هذه الأنشطة ليست اختراعاً حديثاً تنفرد به حضارة ما عن سواها، فهذه المفاهيم العربية ليست إلا امتداداً لفكر عريق من تراث أمة مجيدة جوهرها الحاضر هو صدى لماضيها القديم.

نبذة عن المؤلف:

اللواء الدكتور / عبدالعزيز بن عبدالله الأسمرى، مستشار أمني، حصل على درجة الدكتوراه والماجستير من قسم العلوم السياسية بجامعة برونيل بلندن عام 2008م، فيما كانت درجة البكالوريوس من جامعة نيويورك الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية. قدم العديد من الدراسات الأمنية المتخصصة، كما شارك في إعداد الموسوعة الاستخباراتية التي نشرتها

جامعة جورج تاون بعنوان: Intelligence Elsewhere

Spies and Espionage Outside the Anglosphere